الأجزاء المفقودة من تاريخ البيهقي

جمعها باللغة الفارسية
الأستاذ سعيد نفيسي

ترجمه وقدّم له وعلّق عليه
الدكتور محمد حسن العمادي

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة

ت : ٢٥٩٢٢٦٢٠ ـ ٢٥٩٣٨٤١١ فاكس : ٢٥٩٣٦٢٧٧

ص.ب ٢١ توزيع الظاهر ـ القاهرة

E-mail : alsakaalDinaya@hotmail.com

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة

ت ٢٥٩٢٢٦٢٠ _ ٢٥٩٣٨٤١١ فاكس : ٢٥٩٣٦٢٧٧

ص.ب ٢١ توزيع الظاهر ـ القاهرة

E-mail : alsakaalDinaya@hotmail.com

الأجزاء المفقودة

من تاريخ البيهقي

جمعها باللغة الفارسية

الأستاذ سعيد نفيسي

ترجمه وقدم له وعلق عليه

الدكتور محمد حسن العمادي

كلية الآداب والعلوم - جامعة قطر

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد - القاهرة
٢٥٩٢٢٦٢٠-٢٥٩٣٨٤١١ / فاكس: ٢٥٩٣٦٢٧٧
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الاجزاء المفقودة من تاريخ البيهقى / جمعة باللغة الفارسية سعيد نفيسي
ترجمة وقدم له وعلق علية محمد حسن العمادى
ط ١ - القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ٢٠٠٨
١٩٤ ص : ٢٤ سم
تدمك : ٩٧٧-٣٤١-٣٨٤-٥
١- التاريخ
٢-البيهقى ،محمد بن الحسين البيهقى ، ٠٠٠-١٠٧٧
أ- نفيسى ،سعيد (جامع)
ب- العمادى ، محمد حسن (مترجم ومقدم ومعلق)
جـ - العنوان

ديوى :٩٠٧،٢

رقم الايداع :٢٢٢٦ /٢٠٠٨

المقدمة

يبدو أن كتاب البيهقي بمجلداته الثلاثين كان يعرف باسم «جامع التواريخ» أو «تاريخ آل سبكتكين» وكان لكل جزء منها اسم أيضا، فكان القسم الأول يدعى: تاريخ ناصرى، والقسم الثاني يعرف باسم تاريخ اليمينى أو مقامات المحمودى، أما القسم الثالث فيعرف باسم تاريخ المسعودى، ومازالت الأجزاء التالية مجهولة الاسماء حتى الآن.

ولقد سجل البيهقى في كتابه وقائع حكم الغزنويين منذ سنة ٤٠٩–٤٥١هـ/١٠٢٤–١٠٦٦م فشملت مجلداته وقائع ٤٢ سنة، بحيث غطت المجلدات الأربع الأولى تاريخ ناصرى وتاريخ يمينى، أما المجلد الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر فتشمل على القسم الموجود وهو تاريخ المسعودى والمسمى ب «تاريخ البيهقى».

أما المجلدات العشرون الأخيرة - من الحادى عشر وحتى الثلاثين - فقد فقدت جميعها وهي تتضمن تاريخ حكم خمسة ملوك هم مودود ومسعود الثانى وأبو الحسن علي وعبدالرشيد وفرخزاد وتشتمل على أحداث ١٩ سنة من ٤٣٢ هـ إلى ٤٥١هـ/ ١٠٤١- ١٠٦٦م.

وكان للبيهقى كتابان آخران أولهما هو «زينة الكتاب» الذى أشار إليه أبو الحسن البيهقى وبين أنه في فن الإنشاء، وليست لدينا معلومات كافية عن هذا الكتاب أكثر مما ذكره «أبو الحسن البيهقى» عنه وأما الكتاب الثانى فهو: كتاب «المقامات» أو «مقامات محمودى» وهو معروف بين المؤرخين باسم «مقامات أبى نصر مشكان. وقد كانت المقامات تطلق آنذاك حسب الاصطلاح الأدبى على الكتب التى كان المؤلفون يسجلون فيها ما سمعوه من شخص أو عدة

أشخاص، والمقامات تعني في هذه الحالة المشافهات أو المفاوضات أو المسموعات، فقد كانت هذه الكتب عبارة عن مجموعة ما كان قد سمعه البيهقي من أستاذه ورئيسه أبي نصر مشكان صاحب ديوان رسائل الغزنويين عن تاريخ محمود وآبائه، ولما كان هذا الكتاب يتعلق بتاريخ محمود فقد سماه بعض المؤلفين باسم «مقامات محمودى» في حين سماه مؤلفون آخرون باسم «مقامات أبى بو نصر مشكان» لأنه يحتوى على أمور كثيرة سمعت من أبى نصر مشكان وكانت تحت تصرف محمد عوفى عند تأليفه للكتاب «جوامع الحكايات ولوامع الروايات»، ونقل نصوصًا منها، ولقد كانت مخطوطته موجودة قطعا حتى القرن التاسع حيث ألف سيف الدين حاجى بن نظام عقيلى كتاب :آثار الوزراء» لأنه أيضا نقل نصوصا من مقامات أبى نصر مشكان إلا إذا كان عقيلى قد نقل هذه الموضوعات من كتاب آخر، وفقدت مخطوطته في عصره ، ولكن هذا الأمر ليس واضحا لنا.

ولقد كان كتاب «المقامات» أو :مقامات محمودى» أو «مقامات أبى نصر مشكان» لأبى الفضل البيهقى كتابا هاما ومفيدا للغاية، وهو جدير بأن نأسف لضياعه فى ذلك الوقت، حيث كان يحتوى على معلومات قيمة فى تاريخ السلطان محمود الغزنوى، كما كان يتضمن كثيرا من المعلومات التى لا توجد فى غيره من الكتب.

ويعد أسلوب البيهقى فى كتابه «مقامات أبى نصر مشكان» من أفضل نماذج النثر البسيط في القرن الخامس فى إيران، حيث كتبه بأسلوب أقرب إلى الحياة اليومية فى عصره، وتجنب التكلف والتعقيد، في حين بالغ أبو الفضل البيهقى في التكلف فى كتابه تاريخ البيهقى، فكتب بعض نصوصه بأسلوب مغلق شديد الالتواء كان شائعا فى البلاط في ذلك الوقت.

ويبدو أن محمد عوفي قد تصرف فى النصوص التى نقلها من كتاب «مقامات أبي نصر مشكان» وأوردها فى كتابه «جوامع الحكايات» وغير من أسلوبها. على العكس من «عقيلى» الذي أورد هذه النصوص دون تصرف منه، ونقلها كما وردت في كتاب المقامات.

أما هذا الكتاب الذى يتحدث عن الأجزاء المفقودة من كتاب أبى الفضل البيهقى، فقد جاء على أربعة أقسام:

القسم الأول: الأجزاء المفقودة من كتاب «تاريخ ناصرى» الذي ألف فى عهد حكم سبكتكين وكان يمثل القسم الأول من تاريخ آل سبكتكين.

القسم الثانى: الأجزاء المفقودة من تاريخ اليمينى، الذي كتب في عهد حكم محمود بن سبكتكين، وكان يمثل القسم الثانى من الكتاب.

القسم الثالث: الأجزاء المفقودة من الفصول الأخيرة، التي وصلتنا بعد تاريخ المسعودى وكتبت في عهد خلفاء مسعود بن محمود.

والقسم الرابع: الأجزاء المفقودة من كتاب مقامات أبي نصر مشكان.

فبالنسبة للقسم الأول من الأجزاء المفقودة من كتاب تاريخ ناصرى فقد أورد بعضها محمد عوفي فى كتابه «جوامع الحكايات ولوامع الروايات» حيث نقل حكايتين من «تاريخ ناصرى» كما نقل منهاج السراج نصين آخرين من نفس الكتاب في كتابه «طبقات ناصرى».

كما خصص محمد بن علي بن محمد شبانكاره في كتابه مجمع الأنساب – الذي ألفه سنة ٧٣٥ هـ فصلا فى تاريخ سبكتكين وأسلافه، قال إنه اقتبسه من تاريخ ناصرى.

وربما كانت رسالة سبكتكين في الموعظة من بين الأمور الهامة التي أوردها صاحب كتاب مجمع الأنساب، وذكر فيها أن الأمير سبكتكين أملى هذه الوصايا لأبى الفتح البستى الذى كتبها بخط يده، وغلف الأمير محمود هذه التوصيات وكان يطلع عليها كل يوم إلى أن وصل إلى السلطنة، ومن بين ما جاء فيها:

«... فاعلم الآن أن الله رزقك الإمارة كما رزقنى، واعلم أن الحكم على عباد الله ليس بالأمر اليسير، فالملك أمر خطير فى الدنيا على النفس، وفى الآخرة على الدين، فعليك أن تخشى الله، فإن خشيت الله خشيك عباده، عليك أن تكون ورعا، فلا حرمة للملك الفاجر»

ويمضى في ذكر هذه الوصايا فيقول:

«وعليك أن تتمهل فى الحروب والمعارك، فالحرب كالتجارة، وعليك أن تفكر أولا فى الصلح لأن الملك إن سلب منهم فلن تزول الأحقاد من قلوبهم حتى وإن لم تكن أنت السبب في نكبتهم. فإن كان الملك بيدك حسدوك. واعلم أنه سيأتي وقت يتحول فيه الصديق إلى عدو، ولكن لا يمكن أن يتحول العدو إلى صديق، وعليك أن تضمن محبة الأقرباء وأن تشفق عليهم، وتحفظ حرمة الكبار اللهم إلا من طمع في ملكك فلا تحابه...»

أما بالنسبة للقسم الثاني من الأجزاء المفقودة، فهو من «تاريخ اليمينى»، الذي يتضمن تفصيل حكم يمين الدولة محمود، والذي كان يمتد إلى نهاية المجلد الرابع، أما القسم المنشور والموجود بين أيدينا وهو تاريخ مسعودى فيبدأ من المجلد الخامس.

وقد بقيت من تاريخ اليمينى هذا بضعة أجزاء متناثرة فى الكتب، ومنها جزء بالغ الأهمية أورده مؤلف مجمع الأنساب، وقد احتفظ هذا الكتاب – الذي لم ينشر إلى الآن – بهذا الجزء الذى يضم فوائد تاريخية كثيرة.

ويتحدث فى هذا الجزء عن صفة السلطان محمود وسيرته وحروبه فى بلاد الهند وما وراء النهر، وهنا يقول صاحب كتاب «الأجزاء المفقودة» من تاريخ أبي الفضل البيهقى ص٧١:

«لقد كنت أنوي أن أكتفى بالنصوص التى نقلها محمد على شبانكاره اى فى مجمع الأنساب من المجلدات المفقودة من تاريخ البيهقى، بنهاية حكم محمود ومحمد ذلك لأن ما ذكره فى عهد حكم مسعود بن محمود نقله من القسم الذى وصل الينا اليوم من تاريخ البيهقى، ولكن بعضًا من الراغبين فى مثل هذا الحديث دفعوني إلى أن أنقل الفصل المخصص للغزنويين بأكمله من كتاب مجمع الأنساب كى ينشر ذلك الفصل من البداية حتى النهاية فى مكان ما ويكون فى متناول الباحثين، وسوف أنقل تتمته من الآن فصاعدًا.»

ويمضى –صاحب الكتاب– فيصل بأحداث تاريخه حتى عهد السلطان خسرو شاه بن بهرام شاه.

ومن بين ما ورد فى هذا الجزء الحديث عن صفة السلطان محمود وسيرته، والتي جاء فيها ص٦٤:

«اعلم أن هذا الملك كانت له همة عالية منذ عهد الطفولة، ولم يكن ينشغل باللعب كالأطفال الأخرين، وكان فى الكتّاب، منشغلًا بتحصيل العلوم، ولا يرغب فى السفسطة والجدل، وكان يحب البحث والمناظرة، ويطالع دومًا الأخبار والقصص والتواريخ، وبلغ فى طيب المولد وطهارة الأصل حدًا أن جماعة من الحساد شوهوا صورته عند أبيه، لاتهامه بذنب لم يرتكبه، ولكنه لم يضجر أبدًا، ولم ينزعج من أبيه، وأوثق أبوه رجله بيده، وعندما سمع ملك الهند هذا الخبر وهو أن ملك العجم حبس ابنه، بعث إلى الابن برسالة فى الخفاء وقال: الآن وقد حبسك أبوك فإنه غدر بك، فإن أذنت أرسلت شخصًا لكى

يخلصك من القيد، وتأتي إلى مملكتي، وأزوجك ابنتي، ومملكتي أكبر، وأجهزك بأموال وجيش أكثر من جيش أبيك، فوصفه محمود فى رده بأنه كلب كافر وقال: أبى هو مولاى وسيدى، وإن قتلني فهو الحاكم، وجوابى على الرسالة التى بعثتها إن الله تعالى هو الذى ينقذني من هذا الحبس، ولسوف أجيش الجيوش، وأتوجه إليك كى أقبض عليك، وأنتزع فروة رأسك»

ويمضى في الحديث عن سيرة السلطان محمود، فيقول ص٦٦- ٦٧ :

«وكان يحب الشعر، ويعطى الشعراء صلات كثيرة، وكان يتناقش فى الشعر كل يوم، وكان لديه ستمائة شاعر مجيد من أساتذة الشعر، وكان قد عين لهم كلهم إقطاعات وعطايا عدا الألف ألف دينار التى كان يعطيها مقابل كل قصيدة تنشد له، وكان عنصرى أمير الشعراء، ينادمه، وكان جميع الشعراء يتخرجون على يديه، ولكنهم انشدوا أشعارا رديئة، وبحيث لا يوجد شعر يستحق المطالعة فى هذه الأيام، ولا يعتد بها، ولكنها كانت تتحسن آنذاك، وقد نظم الفردوسي الشاهنامه له ولكنها لم تعجب السلطان لسببين: الأول لأن عنصرى عرف فن شعره فأخفاه عن السلطان، وشى أن ينفق سوق جميع الشعراء إن هو حظى بالقربه لدى السلطان والثاني إن الفردوسي كان شيعي المذهب، وترك السنة والجماعة، ولذلك لم يقربه من نفسه، ولم يحظ الفردوسي بقربه ليعلم أن سوء الاعتقاد هو هتك للحرمة فى الدنيا و الآخرة، رغم أننا نستطيع القول إنه كان يجمع جملة العلوم العقلية والنقلية، ولكن الله لم ينعم عليه بالشهرة بسبب ميله إلى سوء الاعتقاد»

أما بالنسبة للقسم الثالث من الأجزاء المفقودة فهو من «تاريخ مسعودي» والذي كان يشمل من المجلد الخامس حتى المجلد العاشر من أصل الكتاب.

وقد وردت هذه الأجزاء في كتاب «محمد عوفى» «جوامع الحكايات ولوامع الروايات» الذى ألفه فى بداية القرن السابع حيث أورد حكاية فى الباب الثانى عشر من القسم الأول، وحكاية أخرى في الباب الثانى عشر من القسم الثالث، وحكاية في الباب الرابع عشر من القسم الثالث، وحكاية فى الباب الثالث من القسم الثالث، وحكاية فى الباب التاسع عشر من القسم الثالث.

أما بالنسبة للقسم الرابع من الأجزاء المفقودة فهو من كتاب «مقامات أبي نصر مشكان» وقد وردت هذه الأجزاء فى «جوامع الحكايات ولوامع الروايات» لمحمد عوفي حيث وردت حكاية فى الباب الثانى عشر من القسم الأول، وحكاية فى الباب الخامس عشر من القسم الثاني، وحكاية فى الباب الحادى والعشرين من القسم الثانى.

كما أورد عقيلى في كتابه «آثار الوزراء» قسما من كتاب مقامات أبى نصر مشكان، ومن هنا تكون الأجزاء المفقودة من كتاب المقامات قد تم الاحتفاظ بها في كتابّي: جوامع الحكايات، وآثار الوزراء.

وربما كان من الأمور الهامة التي أوردها عقيلى في كتابه «آثار الوزراء» تلك المواضعة أو المعاهدة التى جرت بين السلطان مسعود ووزيره أبى القاسم أحمد بن حسن الميمندي كى يتقلد منصب الوزارة.

فكانت هذه المواضعة أشبه بشروط واضحة كتبها الوزير، وقبلها السلطان، وكان رد السلطان بالقبول بالصورة الآتية ص ١١١ :

«الجواب: قد أجبنا الخواجه الفاضل أدام الله تأييده فى هذا، وكتبنا ما هو مرسوم يقول أبو سعيد مسعود بن محمود نقسم بالله الطالب الغالب الرحمن الرحيم أننا سنلتزم بعهدنا هذا مع أبى القاسم أحمد بن حسن بأن لا نغير رأينا

الحسن عنه، ولا نصغي إلى أقوال معانديه وحاسديه وأعدائه ما لم تصدر منه خيانة سافرة وواضحة فى الملك، وأشهدنا الله عز وجل على ذلك، وكفى بالله شهيدًا، بخطه وتاريخه»

وكان قسم الوزير بالقبول بالصورة التالية ص ١١١- ١١٢ :

«وأما نص القسم الذى نطق به الوزير فهو: إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، أقسم بالله، وبعهده، وبالإله الذى يعلم سر الخلق وعلانيتهم، وبالإله الذى بعث الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين إلى الخلق بالحق، بأن أكون أنا أبو القاسم أحمد بن حسن صادقًا بالقلب والنية مع سيد العالم السلطان الكبير أبى سعيد مسعود بن محمود أطال الله بقاه، وأن أوالى أولياءه، وأعادى أعداءه، وأن أسعي كل السعي في ما هو لصالحه وصالح أولاده، وأوليائه، وحشمه، وأصناف جيشه، وماله وملكه، وأن لا أنشغل بالمضايعة والمداهنة، وأن أسير بالعدل فى منصب الوزارة الذى اعتُمد علّى فيه، وأن لا أخون بأخذ مال لنفسى عن طريق الرشوة، أو أن آخذ مال الغير الآخر، وأن أبذل كل جهدي فى تنظيم الإدارة والمحافظة على الأموال الثابتة والمنقولة وأن لا أتفق مع أولاده وأمراء جيشه وحشمه، وأن اسعى كل السعى من أجل إزالة كل ضرر يلحق به وبملكه، وإن كان لا بد من التكلم مع شخص من المعارضين أو مع الأعداء المعارضين لدولته أو المؤيدين مثل الحكام وملوك البلدان المجاورة أو مكاتبتهم فعلّى أن أقوم بذلك بأمر من جلالة الملك، وأن لا أعمل شيئًا فى الخفاء يعود بالفساد على حياته وملكه، وإذا لم أوف بهذه الشروط الواحدة تلو الأخرى فإني أكون بذلك قد ابتعدت عن الله عز وجل وعن حوله وقوته، واعتمدت على حولى وقوتى وما حصلت على الأموال والأملاك فترة حياتي، وإذا لم أوف بقسمى سوف أتنازل عن أموالى وأملاكى وحتى أحرر كل الجوارى والغلمان الذين أمتلكهم كما يحق له طلاق زوجاتى،

وبذلك يكون قد وقع عليه ثلاث طلقات، ومن ثم يوجب عليه أداء ثلاث حجات والذهاب إلى مكة حرسها الله، وإذا أديت هذه الحجات لا أطمع فى نيل ثوابها، أما إذا أردت إعادة أموالى وأملاكى والجوارى والغلمان والزوجات فعليه أداء ثلاث حجات أخرى، وقد أشهدت على نيتى فى هذا الأيمان سيد العالم السلطان المعظم أبا سعيد مسعود بن محمود أطال الله بقاءه، والله عز وجل، وكفى بالله شهيدًا وذلك فى يوم كذا»

وصاحب الكتاب الذى بين أيدينا هو سعيد نفيسى الذى ظل يمارس التدريس بكلية الآداب جامعة طهران إلى أن بلغ سن التقاعد سنة ١٩٥٢م بعد عشرين عاما من التدريس، ثم تفرغ للتأليف والتحقيق وخدمة الثقافة والصحافة. وترك سعيد نفيسي كمًا هائلًا من الأعمال الأدبية، سواء في مجال التأليف أو التحقيق والنشر، وكذا في مجال الترجمة عن اللغات الأجنبية. ونذكر من بين الكتب التي ألفها:

أ- تاريخ نظم ونثر در إيران.
ب- تاريخ اجتماعى وسياسى إيران.
ج- تاريخ تمدن إيران در دوره‌ء ساسانى.
د- خاندان طاهريان.
هـ- آثار گم شده ابو الفضل بيهقى.

والكتاب الأخير هو موضوع دراستنا، ترجمةً وتعليقًا.

وكان لمؤلفات سعيد نفيسى أثر كبير فى نفوس الأدباء والباحثين، ومن ثم فقد رأينا «إيرج أفشار» يقول عنه:

«عندما يذكر العلماء الإيرانيون الذين ساهموا بمؤلفاتهم فى مجال الأبحاث والثقافة الإيرانية يجب أن يذكر «سعيد نفيسى» حيث تميز هذا العلامة

بكثرة أعماله وتنوعها. ولاشك أن هذه الأعمال سوف تبقى على مدى سنين طويلة لتجعل اسمه خالدًا، وليكون دائمًا على رأس قائمة علماء إيران العارفين بتاريخها».

وكان من بين الكتب التى قام بتحقيقها ونشرها :
أ – دستور الوزراء.
ب – در بيرامون أحوال واشعار حافظ.
ج – ديوان قصايد وغزليات عطار.
د – تاريخ بيهقى.❖

يقول الدكتور يحي الخشاب فى مقدمة ترجمة تاريخ البيهقى :
«ومن بين الطبعات التى ظهرت فى السنوات الأخيرة لكتاب تاريخ البيهقى طبعة قام بها الدكتور سعيد نفيسى، وقد أخرجها فى جزءين بغير كشاف، وأصدر بعد ذلك جزءًا

❖إبراهيم ، غادة محمد عبدالقوي : المجموعة القصصية ماه نخشب (دراسة نقدية تحليلية) ، رسالة ماجستير ١٤١٨هـ - ١٩٦٨م ، مسجلة برقم ١٥٩ بمكتبة كلية الآداب – جامعة عين شمس ، تحت إشراف أ . د احمد سعيد الخولي ، لمزيد من المعلومات انظر الصفحات ٣٧ . ٤١ . ٤٢ . ٤٥ . ٤٧ . ٥٣

ثالثا تحوى الحواشي التى تبدأ من صفحة ٩٦٩ وتنتهى فى صفحة ١٥٩٥ والتى تتناول تسعًا وسبعين صحيفة من نص البيهقى، وهذه الحواشى الطويلة التى تصلح كل حاشية منها أن تكون كتابًا أو رسالة على حدة، تشهد بدقة الأستاذ نفيسى وسعة اطلاعه، على البحث والتحرى، وقد أفدنا منها كثيرًا، ولكننا لم نستطع أن ننقلها إلى العربية، مع جدارة الكثير منها بهذا النقل» ❖ ويبين لنا سعيد نفيسي كيف جمع الأجزاء المفقودة لأبي الفضل البيهقي من المصادر مثل: جوامع الحكايات ولوامع الروايات ولباب الألباب لسديد الدين محمد عوقي، وطبقاتناصرى لأبى عمر منهاج الدين الجوزجانى، ومجمع الأنساب لمحمد بن علي محمد شبانكاره اى، وآثار الوزراء لسيف الدين حاجى بن نظام عقيلى، وكيف أنه استقى هذه المعلومات بشكلها النهائى من هذه المصادر بعد أن بذل الجهد الكبير في إخراجها حتى يتحقق لنا هذه الغاية المرجوة كما سيتضح لنا من خلال كتاب آثار الوزراء.

ولما كان كتاب «الأجزاء المفقودة من كتاب أبي الفضل البيهقي» على درجة كبيرة من الأهمية لكل من يهتم بدراسة التاريخ، فقد توقفت أمامه طويلا، وعقدت العزم على أن أنقله إلى العربية، ليستفيد به أصحاب اللسان العربي، كما استفاد به أصحاب اللسان الفارسي.

❖ البيهقي : ابو الفضل محمد بن حسين البيهقى، تاريخ البيهقى، ترجمه إلى العربية يحي الخشاب، صادق نشات، دار النهضه للطباعة والنشر، بيروت، ص ٧ – ٨

ولم أوقف في دراسة هذا العمل عند حد الترجمة من الفارسية إلى العربية، ولكنني ألحقت هذه الترجمة بملحق كامل للحواشي والتعليقات والشروح التي تقتضيها طبيعة الترجمة، مما اضطرني إلى الرجوع إلى كثير من المصادر والمراجع العربية والفارسية.

ومن هنا أجد لزامًا علي أن أتقدم بخالص الشكر وعظيم التقدير لمن قدم لي يد العون وذلل الصعاب أثناء الترجمة وذلك لأنني كنت بحاجة إلى تعريب بعض الألقاب والمصطلحات التى استخدمها البيهقى في كتابته لهذه الأجزاء المفقودة، ويبدو أن اللغة التي استخدمت فى العصر الغزنوي هي لغة البلاط والدواوين وهذه اللغة كما حددها اللغوين: اللغة العربية وهي اللغة الرسمية التي كانت تكتب بها دواوين الدولة، واللغة الفارسية التي كانت لغة الشعر والأدب بالإضافة إلى اللغة التركية بلهجاتها المتعددة مثل الجغتائية وغيرها مع سيطرة الجنس التركي على إيران في عهود الغزنويين والقره خانيين والسلاجقة – ومن أتى بعدهم– حيث أدخلوا الألفاظ التركية الكثيرة فى أمور البلاط والدواوين من ألقاب ومصطلحات فى مجالات الإدارة والاقتصاد والجيش❖.

ولما كانت الكتب العربية التى تتناول عصر الغزنويين قليلة، بل ونادرة، باستثناء كتاب البيهقي الذى ترجمه الاستاذان الجليلان الدكتور يحيى الخشاب والدكتور صادق نشأت، فإني أرجو الله سبحانه أن أكون قد أضفت بهذا العمل كتابا جديدا إلى المكتبة العربية يعين الباحث العربى على كتابة البحوث والدراسات المتصلة بالمشرق الإسلامي. وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

الدوحة محمد حسن العمادي

ربيع الأول ١٤٢٨هـ = ابريل ٢٠٠٧م

❖ شتا، إبراهيم الدسوقي: المعجم الفارسي الكبير، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٢م، مج١، الصفحات: ج، د، هـ.

الترجمة العربية لنص كتاب

الأجزاء المفقودة من كتاب أبى الفضل البيهقى

الكتاب المعروف باسم «تاريخ البيهقى» هو جزء من كتاب غاية فى الضخامة عزف بأسماء مختلفة، فقد ذكره حاجي خليفة فى كتابه «كشف الظنون» باسم «جامع التواريخ لأبى الفضل البيهقى»، وذكره فى موضع آخر باسم «الجامع فى تاريخ سبكتكين لأبى الفضل البيهقى»، وسماه أبو الحسن البيهقى فى تاريخ بيهق «تاريخ آل محمود» مرة و«تاريخ ناصرى» مرة أخرى. وسماه مؤلف روضة الصفا «تاريخ آل سبكتكين» و يبدو أن مجموع المجلدات الثلاثين لهذا الكتاب كانت تعرف باسم جامع التواريخ أو تاريخ آل سبكتكين، وكان لكل جزء منها اسم أيضًا. فكان القسم الأول يدعى تاريخ ناصرى، والقسم الثاني تاريخ اليميني أو مقامات المحمودي، والقسم الثالث وهو (القسم الموجود) و يعرف باسم تاريخ المسعودى ولم يصلنا أى خبر بأسماء الأقسام أو الأجزاء التالية.

بدأ البيهقى كتابه سنة ٤٤٨هـ / ١٠٦٣م، وسجل فيه وقائع حكم الغزنويين منذ سنة ٤٠٩هـ / ١٠٢٤م ومضى به كما يقول أبو الحسن البيهقى حتى بداية (أول أيام) حكم السلطان إبراهيم أى حتى سنة ٤٥١هـ / ١٠٦٦، أى أن هذه المجلدات الثلاثين تشتمل على وقائع ٤٢ سنة: فكانت المجلدات الأربع الأولى تتضمن تاريخ ناصرى وتاريخ يمينى، فيما كان المجلد الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر يشتمل على القسم الموجود وهو تاريخ المسعودى المسمى (بتاريخ البيهقى)، ولا نعلم إذا كانت هناك صفحات قد سقطت منه، أم أن المخطوطة الأصلية هي التى وصلت إلينا، ذلك لأن تسلسل الأحداث

ينقطع في بعض المواضع، واستنادًا إلى ما يقوله أبو الحسن البيهقي بأن هذا الكتاب كان يشتمل علي ثلاثين مجلدًا، يجب القول إن المجلدات العشرين الأخيرة منه أي من المجلد الحادي عشر وحتى الثلاثين قد فقدت بدورها. ولأنها كانت تستوعب الأحداث التاريخية حتى بداية حكم إبراهيم بن مسعود، فإن تلك المجلدات العشرين المفقودة تتضمن تاريخ حكم خمسة ملوك أي مودود، ومسعود الثاني، وأبي الحسن علي، وعبد الرشيد، وفرخزاد.

وكانت تشتمل على وقائع ١٩ سنة من ٤٣٢ حتى ٤٥١هـ/ ١٠٤١-١٠٦٦م. ويعتبر تاريخ مسعودي كما وصل إلينا ناقصًا ولا ينتهي بحكم مسعود بن محمود بل يختتم بوقائع سنة ٤٣٢هـ/ ١٠٤١م، فهو لا يغطي السنة الأخيرة من نهاية حكم مسعود، (ص٢) ولا يعرف ما إذا كانت هذه السنة المتبقية ضمن المجلد العاشر، أم أنها كانت تضم مجلدًا أو مجلدات مستقلة، وعلى هذا فمن المحتمل أن تاريخ مودود لم يكن قد بدأ من المجلد الحادي عشر، وأنه كان يمثل مجلدًا واحدًا أو عدة مجلدات أخرى تابعة لتاريخ مسعودي. ولكن علينا أن لا نتصور أن المجلدات العشرين التي ضاعت كانت بضخامة وتفصيل هذه المجلدات الخمس التي وصلتنا اليوم، فقد كان من الواضح أنه يفصل الموضوعات بعضها عن البعض في أحداث مختلفة ويجزؤها من الناحية التاريخية، ويؤلف منها مجلدات مستقلة، حتى تكون كبيرة الحجم طويلة المحتوى، وكما نرى فقد صب الوقائع المفصلة في عهد سبكتكين ومحمود والتي لا بد وأن تكون أكثر وقائعها في فترة حكم مسعود، فقد وضعت في أربع مجلدات، بينما أخذت وقائع عهد مسعود خمسة مجلدات أو أكثر.

هذا بالإضافة إلى جامع التواريخ أو تاريخ آل سبكتيكن فقد كان لأبي الفضل البيهقي مؤلفان آخران أيضًا: الأول كتاب باسم «زينة الكتاب» وهو الذي يذكره أبو الحسن البيهقي ويقول «لا يوجد كتاب مثله في ذلك الفن»،

وقد كان على ما يبدو من اسمه ومن تعريف أبى الحسن البيهقى له، فى فن الإنشاء والكتابة، ولم يصل إلينا خبر عن هذا الكتاب مطلقًا سوى ما ذكره أبو الحسن هنا. وأما الكتاب الثاني فقد نقلت أجزاء قيمة منه فى كتب أخرى، ويبدو أن اسمه الصحيح هو «مقامات بونصر مشكان»، وسوف يرد الحديث عنه بعد ذلك.

كما نقلت من مجلدات تاريخ آل سبكتكين المفقودة، ومقامات بونصر مشكان موضوعات أو أجزاء بعينها فى الكتب، وقد كتبت هذه السطور لكى أجمع تلك الأجزاء بشكل مستقل فى هذه الصفحات، أما عن الدراسات التى كتبت عن حياة أبى الفضل فقد قدمت دراسات عديدة حول حياة أبى الفضل البيهقى وآثاره، ومن أفضل المقالات التى نشرت فى هذا المجال ثلاث مقالات، المقالة الأولى بقلم الدكتور رضا زاده شفق فى العدد ١٢ السنة١١ من مجلة ارمغان، وفى العدد الأول والثاني السنة ١٢ من نفس المجلة، ومقالة بقلم السيد الفاضل عباس إقبال فى العدد الأول السنة ١٣ من نفس المجلة، ونحن نكتفى بما جاء فى تلك المقالات عن البيهقى وسيرته. وقبل أن أدخل فى صلب الموضوع هناك ملاحظتان من الواجب أن أضيفهما فى بداية هذا البحث، الأولى تتمثل فى أن هناك قسمين من تاريخ بيهق للإمام أبى الحسن البيهقى، القسم الأول فى أحوال هذا المؤرخ الكبير، والقسم الثاني فى تاريخ آل سبكتكين، ولأنه لم يطبع حتى الآن فقد كان من الضروري أن يثبت فى هذه الصفحات.

(ص٣) يقول الإمام أبو الحسن البيهقى فى تاريخ بيهق (نسخة لندن ص ١٣):

« كان الخواجه أبو الفضل البيهقى كاتب السلطان محمود بن سبكتكين، وكان أستاذ الصناعة، والمستولى على مناكب البراعة وغواربها، وألف تاريخ آل

محمود بالفارسية فى أكثر من ثلاثين مجلدًا ، كان البعض منها فى مكتبة سرخس ، والآخر فى مكتبة مدرسة خاتون مهد عراق رحمها الله بنيسابور».

ويقول فى موضع آخر فى (مخطوطة لندن، ص ص ١٠٢- ١٠٤) فى ترجمة حياته : الشيخ أبو الفضل محمد بن حسين الكاتب البيهقى ، كان كاتب السلطان محمود بالنيابة عن أبى نصر بن مشكان وكاتب السلطان محمد بن محمود ، وكاتب السلطان مسعود ، وقد شغل نفس المنصب فترة حكم السلطان مودود حينًا وكاتب السلطان فرخزاد حينًا آخر ، وعندما قتل السلطان فرخزاد ، اختار العزلة ، وانشغل فى التصانيف ، ولقد كان مولده فى قرية حارث آباد ، ومن تصانيفه كتاب «زينة الكتاب» ولا يوجد كتاب مثله فى ذلك الفن ، وقد فصل تاريخ ناصرى الوقائع من أول أيام سبكتكين حتى أول أيام السلطان إبراهيم يومًا بيوم ، وهو فى أكثر من ثلاثين مجلدًا ، منها عدة مجلدات رأيتها فى مكتبة سرخس ، وأخرى فى مكتبة مهد عراق رحمها الله ، وعددًا من المجلدات منتشرة بين الأيدى ولم أرها بأكملها ، وقد انتشرت أحاديث كثيرة عن فصاحته وبلاغته ....[1] ويقول خواجه أبو الفضل نزل الثلج فى نيسابور سنة أربعمائة وسبعًا وستين مرة ، وحينئذ كتب السيد أبو البركات العلوي الجوري إلى رسالة ....[2] وقد كان سبب القحط الذى حدث فى نيسابور سنة إحدى وأربعمائة ، أن الآفة أصابت الغلال بسبب البرد ، وقد كان هذا القحط عامًا فى خراسان والعراق وكان أشد فى نيسابور ومناطقها ، وقد أحصى عدد الموتى فى نيسابور فبلغوا أكثر من ١٠٧ ألف ، وكما ذكر أبو نصر العتبى فى كتاب يميني ، أن القبور قد نبشت كلها وطعموا عظام أمواتهم ، وبلغ الأمر بهم أن الأمهات والآباء كانوا يأكلون أبناءهم ، ويقول الإمام أبو سعد خركوشي فى تاريخه إنه كان يحمل من محله إلى المقابر كل يوم أكثر من أربعمائة ميت ، ولم يكن هذا القحط سببه قلة الطعام ، بل بسبب داء الكلب الذى كان قد تحكم فى كيان الخلق. وجاء فى كتاب يميني أنه كان فى تلك الأيام ذهب طباخ إلى السوق بعدة أمنان من الخبز

وعرضها فى الدكان، فلم يشترمنها أحد، وكان سعر الـ١٧ منًا من الخبز دانقًا، وما كان الناس يشبعون مهما أكلوا .... ،[٣] وعندما وصلت الغلال فى سنة اثنتين وأربعمائة زالت تلك العلة وتلك الآفة.

ويقول الخواجه أبو الفضل البيهقى أنه لا ينبغى لخادم السلطان أن يجمع النقود لأن ذلك يعد مشاركة فى الملك، فتزيين الخزانة بالنقود وخزنها من صفات الملوك وعاداتهم، وأما جمع الضياع والعقارات فهو من عمل الرعايا، و خادم السلطان له درجة رفيعة وجاه بين الرعية وبين السلطان فهو أعلى من الرعية وأدنى من السلطان، فلا يجب التشبه بالسلطان فى خزن النقود، ولا يجب التشبه بالرعية فى جمع الضياع والعقارات. فيجب على من يقوم بخدمة السلطان أن يتسم (ص٤) بالقناعة فى الإنفاق، ولا يجب أن يطمع فى جاه ونفوذ ونفقة أكثر من متوسط خدم السلاطين، ولا يجب كسب الدنيا بهذا الجاه كى يبقى، فإنه إن جعل الجاه سببًا لكسب الدنيا، فسوف يزول كل من الجاه والدنيا، وتتعرض الروح للآفات، وحيثما كان هناك دار الملك، فيجب أن يكون لذلك الشخص بيت معمور لكى لا ينزل إلى مستوى الرعية، وإذا صادف أن حل الملك عند أحد الرعية، فمن الحكمة أن يكون بحوزته قطيع من الأغنام، فمن خلا بيته من الأغنام، سوف يسد فى وجهه باب ضيافة الملك. وإذا استطاع دفع هذه الجزية حسب العادة المتعبة فى هذه المناسبات سوف يجد رضا السلطان ويدفع عن نفسه البلاء ويكون العقاب والعزل، وإن أنفق المال فى إغاثة الضعفاء، وإعانة المحتاجين، فإنه يكون بذلك قد حصل على ركن من أركان سعادة الآخرة، وبذلك فإنه سيسلم من الآفة فى الدنيا، وسيكون له أمل فسيح فى العقبى برحمة الحق تعالى .....[٤] ولقد أدخله القاضي الحبس فى غزنه، بسبب مؤخر الصداق ثم سيطر بعد ذلك طغرل برار الذى كان غلامًا هاربًا من المحموديين على ملك غزنه، وقتل السلطان عبد الرشيد، وبعث خدم الملوك إلى

القلعة، وكان من جملتهم أبو الفضل البيهقى .....، [٥] ولم تمض فترة طويلة حتى قتل طغرل برار على يد نوشتكين زوبين دار، ولم تتجاوز مدة سيطرته سبعة وخمسين يومًا، وسيطر آل محمود على الملك، فالخروج على ولى النعمة ليس مباركًا، ولا تطول مهلته .....وتوفى الشيخ أبو الفضل محمد بن الحسين البيهقى الكاتب فى صفر سنة سبعين وأربعمائة.

وقد ارتكب المستشرق الروسي الشهير بارتولد فى نقل موضوعات هذا القسم من تاريخ بيهق فى ترجمة أبى الفضل بيهقي فى دائرة المعارف الإسلامية خطأ عجيبًا وهو أنه قرأ الكلمة المركبة «مهر زني» (أى صداق امرأة) فى الجملة (ازجهه مهرزني قاضي درغزني حبس فرمود) بضم الميم وسكون الراء، واعتبرها اسم فعل من (مهر زن)، وترجمها إلى مهرساز (صانع الأختام) وسند ساز أو كاغذ ساز (صانع الورق)، فى حين أنه كان يجب أن يقرأها بفتح الميم وكسر الراء وبياء النكرة أى بسبب عدم امتلاك صداق المرأة التى طلقها.

الملاحظة الثانية التى يجب التذكير بها هي أنه كان هناك شخص آخر من وجهاء بيهق يدعي أبو الفضل كان يعيش بعد مائة سنة تقريبًا من وفاة أبى الفضل البيهقى المؤرخ المعروف، وكان ينظم الشعر الفارسي يقول الإمام أبو الحسن البيهقى بشأنه: إنه كان من أهالى المنطقة، وكان قريب العهد بى، وله أشعار كثيرة.

ومن هنا يبدو واضحًا أنه كان يعيش فى القرن السادس، وقد خلط البعض بين الشاعر الفارسي أبى الفضل البيهقى هذا وبين أبى الفضل البيهقى المؤرخ والكاتب، فى حين لم يرد عن أبى الفضل المؤرخ سوى شعرًا عربيًا، وقد نسبت القطعة التالية لأبى الفضل الثاني (ص٥) والتى نقلها أبو الحسن البيهقى خطأ إلى أبى الفضل البيهقى المؤرخ، ونحن نلاحظ البيتين الثالث والرابع فى بعض دواوين الشعر: -

هر زمان بازم همي جنك وجدل باسرشود تازييم هجر او رخسار من اصفر شود

يار من از خوبروئى گر برآيد شب ببام درزمان نور روي او جهان انور شود

وربخندد آن بت شيرين لب سيمين عذار دامن او ازلب شيرينش برشكر شود

هركه اواندر خلافش يك نفس زدبيخلاف آن نفس درحلق اويران ترازخنجر شود

آن مبارك بي كه أو برنهد برخاك بأى خاك زيرباى أو از همتش عنبر ود (٦)

والترجمة :

فى كل لحظة وأنا أعيش جدالًا وصراعًا مع نفسى ، ويصفر وجهي خشية فراقه.

لو يصعد حبيبى السطح ليلًا ، فسوف يتلألأ العالم بالأنوار فى الحال لفرط جماله.

ولو ضحك ذلك الحبيب الحلو الشفة ، الفضي المحيا ، لامتلأ حضنه بالسكر بسبب شفته الحلوة.

كل من خالفه ولو بنفس ، فإن هذا النفس سيكون فى حلقه أحدّ من الخنجر دون شك.

ولو وطأ هذا المبارك الأصل بقدمه على التراب ، فسوف يتحول التراب إلى عنبر بسبب همته •

وأما ما وصلنا من آثار أبى الفضل البيهقى المفقودة فهو على أربعة أقسام : الأول من تاريخ ناصرى الذى ألف فى عهد حكم سبكتكين ، وقد كان يمثل

القسم الأول من تاريخ آل سبكتكين، والثانى من تاريخ يميني وقد كتب فى عهد حكم محمود بن سبكتكين، والثانى من الكتاب، والثالث من الفصول الأخيرة التى وصلتنا بعد تاريخ مسعودى، وكتبت فى عهد خلفاء مسعود بن محمود.

والقسم الرابع من كتاب مقامات بونصر مشكان، وكل ما وصل إلينا حتى الآن فى هذه الصفحات سجل على الترتيب التالى:

١ - تاريخ ناصرى

يبدو أن القسم الأول من تاريخ آل سبكتكين كان يحمل اسم تاريخ ناصرى، نسبة إلى لقب سبكتكين الذى تلقب بناصر الدين، والدليل علي أن اسمه كان تاريخ ناصرى هو أن سديد الدين محمد عوفى فى جوامع الحكايات ولوامع الروايات ولباب الألباب، وأبا عمر منهاج الدين عثمان بن سراج الدين الجوزجاني فى طبقات ناصرى واللذين نقلا منه بعض النصوص سّميا هذا الكتاب باسم تاريخ ناصرى.

وقد نقل محمد عوفى فى جوامع الحكايات حكايتين من تاريخ ناصرى هما:

١- فى الباب الحادي والعشرين من القسم الأول:

« جاء فى تاريخ ناصرى أن الأمير سبكتكين كان قد رأى فى منامه قبل ولادة محمود أنه كان يمسك بثلاث بازات، أطلق اثنين منها، وأمسك الآخر (الثالث) بيده. فطلب من المفسر تأويل هذه الرؤيا، فقال له: سوف يكون لك ثلاثة أولاد يموت اثنان منهم، ويعيش الآخر، ويملك العالم، وبالفعل فقد رزق سبكتكين بابنين قبل ولادة محمود، سمى أحدهما حسينًا، والآخر حسنًا، ولكنهما (ص٦) ماتا بعد فترة قصيرة، وفى ليلة الخميس، العاشر

من محرم سنة إحدى وستين وثلاثمائة، وبينما كان الأمير سبكتكين نائمًا رأى فيما يرى النائم أن شجرة ظهرت في وسط مجمرته، وأخذت هذه الشجرة تنمو، وظلت ترتفع حتى غطت كل بيته، ثم استطالت إلى أطراف العالم حتى أظلته كله، وعندما استيقظ الأمير سبكتكين من النوم فكر بينه وبين نفسه أن دولته ستكون كبيرة، وبينما كان يفكر إذا بأحد خدمه يبشره بأن الله تعالى رزقه صبيًا. ففرح سبكتكين بهذا المولود وسماه محمودًا، ولقد أثر مولده في العالم فقد كان في قصبة من الهند معبد للأوثان، وكان به صنم علي صورة الوعل، وكانوا قد رصعوه (بالجواهر) وكان معبد الأوثان هذا قد شيد بجوار البحر، فانهدم هذا المعبد في نفس الساعة التي ولد فيها السلطان محمود، وانهارت جدرانه في الماء، وسقط الوثن، وسيطر على الهنود من ذلك الحدث خوف شديد، وأخذوا يفكرون، وتوجهوا إلى الحاكم وقالوا له: يا ويلنا! لقد أسكنت المسلمين في أرضك، وأذنت لهم بأن يظهروا دينهم بيننا، وهذا نتيجة سحرهم، فأرسل الحاكم في طلب جماعة المسلمين الذين كانوا يسكنون في تلك المنطقة، وهددهم مخاطبًا بأنني أسكنتكم في ظل أمن وعدالة دولتي، ولكنكم ابتكرتم السحر حتى انهارت معابدنا، فتحير المسلمون، وكان بينهم عالم، فقال: أيها الملك: إنك حاكم عادل وعاقل، وما اتهمنا به نحن بريئيون منه، فالسحر حرام في ديننا، وإن مارس مسلم السحر خرج من الدين، ونحن لا نخرج من ديننا أبدًا بسببه أو بسبب غيره، ونحن نقرأ القرآن باستمرار، ونردد أسماء الله عز وجل كي لا يصيبنا السحر، وقد بالغ الكفار في ذلك المعني، حتى ظهر منجم وقال للحاكم: كف عن هؤلاء المسلمين، فهذا الأمر سماوي وليس أرضيًا، فقد ولد البارحة صبي تشير الطوالع والقرانات واتصالات الكواكب إلى أن ملكك سوف يقوض علي يده، وسوف يسيطر علي الهند كلها، ويهدم معابد الأوثان، ولا جرم لهؤلاء المسلمين في ذلك، فقال

الحاكم: رغم أن ما قلته صحيح ولكن على المسلمين أن يخرجوا من ولأيتى، وقد أمهلتهم أسبوعا كى ينهوا معاملاتهم، ثم يرحلوا، فإن رأيت أحدًا بعد الأسبوع عاقبته. فذهب أولئك المسلمون إلى غزنه، وأخبروا الأمير بما حدث لمعبد الأصنام. وقد ذكروا أن ذلك كان فى ليلة عاشوراء. فقوى أمر محمود، وبعد فترة قصيرة ظهر أثر ذلك المنام، وعلت رأية حكم محمود، وتحطمت معابد الأوثان، وقهرت الأصنام».

٢- فى الباب السابع من القسم الثاني:

(ص٧) (ورد فى تاريخ ناصرى أن ناصر الدين سبكتكين كان فى أوائل أمره عبدًا، ولم يكن يملك سوى حصانًا، وكان يعيش فى نيسابور(٧)، وكان يخرج إلى الصحراء كل يوم ويصطاد، وذات يوم كان يتجول فى الصحراء وإذا به يري غزالًا مع ولده فى تلك الصحراء. فوثب الحصان، وهرب الغزال من أمامه بقفزة واحدة، ولكنه أمسك بولد الغزال بوثبةٍ واحدةٍ من حصانه، وأوثق يديه ورجليه، وعلقه أمام السرج، وعندما سار لمسافة، رأت الأم ولدها فأخذت تسير خلفه، فعلم أنها تتبعهم من أجل ولدها، ففكر فى نفسه، ترى بماذا سينفعني ولد الغزال هنا؟ ها هي أمه المسكينة تتبعني، ورغم أن الصيد حلال، فإن لها روحًا، فدفعته رحمته وشفقته إلى أن يطلق ولد الغزال، فأطلقه حتى مضى مع أمه، ودخل سبكتكين المدينة بينما ذلك الغزال ينظر إليه. فرأى فى تلك الليلة فيما يرى النائم النبي صلي الله عليه وسلم يقول له يا سبكتكين لقد تقربت من رب العزة بسبب رحمتك وشفقتك على ذلك الحيوان المسكين الضعيف ولسوف تكون ملكًا من أولى الأمر، وعليك أن تتعامل بالشفقة مع عباد الله أيضًا، كى يثبت ملكك ودولتك. ومنذ ذلك الحين أمسك الأمير سبكتكين بزمام الأمور بكل قوة، وكانت تلك الشفقة سبباً فى تمتعه بكل تلك القوة).

وقد وردت نفس هذه الحكاية التى بين أيدينا الآن فى تاريخ مسعودى أيضًا، طبعة طهران ص٢٠٠- ٢٠١ وطبعة كلكته ص٢٣٨- ٢٤٠، ولا نعلم ما إذا كان البيهقى قد أوردها مرة فى تاريخ ناصرى، وذكرها مرة أخرى فى تاريخ مسعودى أم أنه جاء بها فى تاريخ مسعودى فقط، ويريد عَوْفى من تاريخ ناصرى هذه المجلدات التى وصلتنا اليوم، وعلى أية حال فلا شك فى أن البيهقى كتب قسمًا من تاريخ سبكتكين كما يقول هو نفسه فى تاريخ مسعودى (ص٨٩ طبعة طهران و ١٠٣ طبعة كلكته) : (إن أولئك الأفاضل الذين حكوا تاريخ الأمير العادل سبكتكين من بدء طفولته حتى دخل قصر البتكين، وألقيت على عاتقه مسؤولية الحجابة الكبرى، وقيادة جيش السامانيين والأمور الكبيرة، حتى ولى إمارة غزنه، وقضي ذلك فى العز، ثم انتقل الأمر إلى الأمير محمود ولقد كتبوا، وفصلوا، وكتبت أنا أيضًا حتى آخر عمره ولقد قاموا بما عليهم، وقمت أنا بما على، بقدر علمى ....)٠

(ص٨) ونقل منهاج السراج أيضًا فى طبقات ناصرى نصين فى تاريخ ناصرى : فيقول فى موضع (يروى الإمام أبو الفضل محمد بن الحسين بيهقي رحمه الله فى تاريخ ناصرى عن السلطان السعيد محمود طيب الله ثراه أنه سمع من أبيه الأمير سبكتكين أن والد سبكتكين كان يدعي قرا بجكم وكان اسمه جوق، وحيث يقال للفتنة بالتركية بجكم، ومعني قرا بجكم الفتنة السوداء، وقد بلغ من الجلادة والشجاعة أن الأتراك كانوا يهزمون أمامه حيثُما سمعوا اسمه فى التركستان).

ويقول فى موضع آخر: يروى الإمام أبو الفضل بيهقي أن نصر حاجي كان تاجرًا، وفى عهد إمارة عبد الملك نوح الساماني اشترى سبكتكين، وحمله إلى

بخارى، (٨) فاشتراه الأمير الحاجب البتكين عندما رأى فيه إمارات الكياسة والجلادة، وانخرط فى خدمة البتكين بطخارستان (٩)، وعندما أوكلت إليه ولاية طخارستان كان الأمير سبكتكين فى خدمته ... وعندما جاء البتكين إلى غزنه بعد حوادث الأيام، و فتح بلاد زاولستان، وخروج غزنه من سيطرة الأمير انوك، وعندما لحق الأمير البتكين بالرفيق الأعلى بعد ثمانى سنوات، جلس على سدة الحكم ابنه إسحاق، وحارب انوك، فهزم، وذهب إلى بخارى فى بلاط الأمير منصور بن نوح كى يقدم له المساعدة: فعاد، وسيطر على غزنه، وتوفى إسحاق بعد سنة وولى الحكم أمير الأتراك بلكاتكين (١٠)، وكان رجلًا عادلًا وتقيًا ومن أبطال العالم، وبقى فى الإمارة سنتين، ثم توفى، وكان الأمير سبكتكين فى خدمته، وتولى الإمارة بعد بلكاتكين أمير بيرى أوبيرتكين، وكان رجلًا ماجنًا، وقد كتبت جماعة من غزنه شيئًا لدى أبى على انوك واستدعوه، فطلب أبو على انوك المدد من ابن ملك كابل (١١)، وعندما وصلوا إلى جرخ، هجم عليهم الأمير سبكتكين مع خمسمائة من الأتراك، وهزمهم، وقتل خلقًا كثيرًا، وأسر أخرين، وغنم عشرة فيلة وجاء بها إلى غزنه، وعندما تيسر هذا الفتح على يده كان الجميع قد ضاقوا ذرعًا بفساد بيرى، فاتفقوا على تولية الأمير سبكتكين إمارة غزنه، وفى السابع والعشرين من شهر شعبان سنة ست وستين وثلثمائة خرج يوم الجمعة من القلعة إلى صلاة الجمعة تحيط به الأعلام والمظلات الحمراء وأضحى ملكا وصاحبًا لتلك الإمارة، وخرج بالجيش من غزنه إلى ما حولها، فسيطر على أرض دوار (١٢)، وأرض قصدار (١٣) وباميان (١٤) وجميع أرجاء طخارستان وبلاد الغور (١٥)، وهزم الهنود بقيادة جيبال الذى كان على رأس جيش كبير وفيلة كثيرة، وتصدي لبغراخان فى كاشغر (١٦) وكان من أسرة السامانيين، ودخل بلخ (١٧)، وأعاد أمير بخارى إلى العرش، وتمت فى عهده أعمال (ص٩) كبيرة، واقتلع جذور الباطنية (١٨) من خرا سان، وولوا الأمير محمود إمارة خراسان فى شوال سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، ولُقّب الأمير (١٩)

(منصور بن نوح) بسيف الدولة، ولقب الأمير سبكتكين بناصر الدين، وتصدي لأبي الحسن سيمجور[٢٠]، وخلت خراسان من أعدائه، وكان الأمير سبكتكين رجلًا عاقلًا وعادلًا وشجاعًا ومتينًا وصادق العهد والقول، غير طامع فى أموال الناس، ومشفقًا على الرعية ومنصفًا، وقد أكرمه الله تعالى بكل ما ينبغي من الأوصاف الحميدة للولاة والأمراء والملوك، وكانت مدة حكمه عشرين سنة، وامتد عمره لست وخمسين سنة، وتوفى بالقرب من بلخ بقرية برمل مدورى سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، والله أعلم بالصواب).

وقد خصص محمد بن على بن محمد شبانكاره أيضًا فى مجمع الأنساب الذى ألفه سنة ٧٣٥ هـ، فصلًا فى تاريخ سبكتكين وأسلافه ويقول إنه اقتبسه من تاريخ ناصرى، ولكن لأن تلك المعلومات لم ترد بذلك التفصيل فى أى كتاب آخر، فمن الواضح إنه اقتبسها من مؤلف كان قريبًا من عهد سبكتكين ومن المحتمل جدًا أن يكون قد أخذها من تاريخ ناصرى نفسه وهي كالتالى:

« الطائفة الثالثة ، ويسمون بملوك الغزنوية رحمهم الله تعالى »:

أصلهم جميعًا من الأتراك، اسمه البتكين، وقد كان غلام إسماعيل بن أحمد، وعندما توفى أحمد بن إسماعيل[٢١]، قلت كان له ابن يبلغ من العمر ثمانى سنوات، وقد أجلسه الوزراء علي كرسى الحكم، وكان الأمير البتكين كبير الحجاب فى دولته، وكان يتولى النيابة العامة لأحمد بن إسماعيل، وقد استشير فى تولي ابنه الأمير، ولكنه رأى أن يتولى الحكم شقيق أحمد فظهر الاختلاف، واتفق الأمراء والوزراء على معارضة البتكين. وحيث أن البتكين كان شيخًا وذا وعى وخبرة فى مجال الإدارة فلم يشأ أن يشهر السيف فى وجه ابن الملك وأركان دولته، فقرر أن يغادر بخارى، ويسخر نفسه فى نشر الإسلام ومحاربة الكفار عسى أن يقتل، ويستشهد فى سبيل الله، واستقر رأيه على غزو

الهند، وكان عنده سبعمائة مملوك وخزائن كثيرة، وخيل وحشم لا حصر لها فأقبل من بخارى إلى غزنه وحط الرحال فى منزل، وأحصى ممتلكاته فبلغت ما يقرب من عشرة آلاف رجل سوى الغلمان والخواص، وكانوا كلهم من الأكابر والأعيان، ونزل البتكين فى الصحراء، (ص١٠) واستدعى الأعيان، وقال: يا علية القوم لقد كنت غلامًا لملك رباني، وقد من الله عليّ فى دولته بكل ما ينبغى، فأعتقني، وعندما توفى تولى أمر الدولة رجال لم يقدروا مصالحها، فلم يتحمل الشيوخ تلك الحال، فحاولوا أن يعرضوا حياتى للخطر، فلم أر من الصلاح تمرد الشيوخ على أبناء الأسياد، كما لم أر من الصلاح أن أسلم نفسي رخيصة لهؤلاء كى يقتلونى، وأنا أرى أننى رجل عجوز، وأن الله قد أنعم على ومنحنى غلمانًا أقوياء وأكفاء كلهم أعزاء كأبنائي، فلم أجد وجهة إلا محاربة الكفار فإما أن أقتل فأحظى بالشهادة، أو أن أقتل الكفار إذا استطعت والانتصار عليهم حتى أنال سعادة النصر، فماذا تقولون؟ فقال الجميع: نعم الرأى ما أشرت، ونحن معك ما دام فينا رمق من الحياة، فقال البتكين: لقد تكرمتم علي، وأديتم الوفاء لى، ولكل منكم بيت وعيال فى بخارى فارجعوا، فإن قدر الله أن نلتقى فهو خير، وإلا فالوداع، وهؤلاء الغلمان الذين معى لا بد أن يرافقونى وذلك للضرورة، فقالت الجماعة: نحن معك، فأعاد البتكين جماعة، واصطحب معه حوالى ثلاثة آلاف رجل كان يثق بهم، ثم قال: اعلموا يا قوم أن أمير بخارى سوف يرسل فى أثرنا على أية حال جيشًا، وعليكم الآن أن تتجلدوا فنحن نجاهد فى سبيل الحق، ونصد عن أنفسنا الباطل، أما أعداؤنا فهم غير محقين فى سعيهم، ولينصرنا الله تعالى.

وفى اليوم التالي التحق به عشرة آلاف فارس، وكان البتكين يقظًا فجيش جيشًا تعجب منه جميع جيش بخارى، وكان قد خاض الكثير من الحروب، وقهر الكثير من الجيوش، ثم نظم قلب الجيش وجناحيه ومقدمته ومؤخرته وخاطب الجيش قائلًا: تجلدوا، وجاهدوا فإن وليتم الأدبار فسوف لا

تستطيعون الرجوع إلى بخارى، فأمامكم الصحراء، وخلفكم السيف فلا مناص من الموت بعزة ورجولة، ثم تقدم أمام الجيش وقال: لا تبدؤوهم حتى يبدؤوكم.

ثم دارت رحى الحرب، وهزم البتكين جيش العدو بهجمة واحدة، وهزمهم كلهم، فقتل البعض، وعاد البعض إلى بخارى، وأسر أمير الجيش(٢٢). وفى اليوم التالي أكرمه البتكين، وأنعم عليه، وخلع عليه الخلع، وسلمه رسالة إلى أمير بخارى وقال: (ص١١) « يعلم الله أنني لو طلبت مخالفتك لكان بإمكاني أن أجيب تلك الجماعة التي معك، وقد ابتعدت عن عاصمة الملك لأنني كنت بمثابة شوكة فى بستان الديوان، وعند سيدي غلمان كثيرون أمثالى، وأنا خارج لمحاربة الكفار، ومن الواجب على جميع أهل العالم أن يقدموا لي العون: فعلى سيدى أن لا يشغل باله لخروجى، فأنا سوف لا أرى بأية حال وجوه أهل بخارى، والسلام» وعندما وصلت هذه الرسالة إلى بخارى، فرح الوزراء والأمراء بذلك وقالوا له: دعه يذهب إلى أى جحيم يريد أن يذهب إليه، فماذا تتوقع من عجوز يهذى، فذهب البتكين على عجل ليصل إلى ولايته وهي ولاية بالقرب من بلخ يقال لها باميان، وهي اليوم مهجورة، قد نام فيها جيش فاتح العالم جنكيزخان، وفيها ملك، وعندما رأى ذلك الفوج ظن أن اللصوص خرجوا مع الجيش، فعزز البتكين الأمير سبكتكين بخمسمائة فارس، وأرسلهم أمامه، وكانوا فى واد ضيق، فبعث سبكتكين حوالى مائة رجل إلى بطن الوادى أولًا، وقال عندما ترونهم ولوهم ظهوركم ولوذوا بالفرار وكان قد أمر أربعمائة رجل بأن يكمنوا، وعندما رأوا أولئك الرجال المائة وقد هزموا، خرجوا جميعهم من الوادى يطاردونهم، وهجم عليهم سبكتكين بأربعمائة رجل من رجاله، وأسر الجميع أو قتلهم، وهرب الباقى، وأسروا ملكهم وكان كافرًا، فعرض البتكين الإسلام عليهم، فأسلموا، ووقعت تلك الولاية بيد

البتكين، وأعاد الملك إلى ذلك الملك، وكان ذلك أول فتح لالبتكين، ثم رحل من هناك، وسار نحو كابل التى كانت قريبة من غزنه، وكان ملك غزنه رجلاً كافرًا، وكان اسمه لويل(٢٣)، فبلغه الخبر، وبعث ابنه مع ثلاثة آلاف رجل إلى أرض كابل، وعندما وصل البتكين إلى كابل، اجتمع حوله حوالى عشرة آلاف رجل من الذين كانوا قد نووا غزو الكافرين برغبتهم، فهزموا ذلك الجيش خلال لحظة واحدة وأسروا ابن ملك غزنه، وشرفوه بأن بعثوه إلى الأب كى يبلغه أنهم لم يأتوا لقتاله، بل جاءوا لغزو بلاد الهند، فليطمئن بالك منا، ولكن ذلك الكافر رفض، فجيش جيشًا، وصمم على الحرب، واضطر البتكين إلى الحرب، فنزل فى غزنه، وكان معسكره عامرًا، وبلغ من عدله فيه أن أحدًا لم يكن ليستطيع أن يظلم أحدًا ولو بماعز أو بقرة أو دجاجة، وكانوا يشترون بالذهب كل ما يحتاجون إليه، حتى روى أن تركيًا أخذ ذات يوم (ص١٢) من قرية منين من التبن والدجاج، فعلقوه على باب تلك القرية وشنقوه(٢٤)، وقد أطبقت هذه الشهرة الآفاق، وتوجه جميع التجار إلى معسكر البتكين، وأصبح معسكر مصر جامعًا لغزارة النعمة، واستمرت الحرب شهرين حتى ابتليت المدينة، ودخل ذلك الملعون القلعة، ومكث البتكين أربعة أشهر أخرى فى المدينة، كى يأخذ القلعة أيضًا، وأسر كلًا من لويل وابنه، وأنقذهما البتكين لأنهما أسلما، ولكن نواياهما لم تكن سليمة، وعندما سيطر البتكين على غزنه، اتسع الملك، وجعلها كلها دار الملك، وهرب لويل وابنه إلى الهند، وأتوا بجيش عظيم، وأرسل البتكين سبكتكين لمواجهتهم وذهب، وهزم ذلك الجيش، ونهب وهرب الملك، وغنم ثلاثين فيلًا سريعًا وغنائم أخرى لا يعلم عددها إلا الله، وعندما علم ملك بخارى بذلك، بعث جيشًا مرة أخرى، وذهب من بخارى إلى غزنه فى ثلاثة أشهر.

وأوقع البتكين بذلك الجيش أفدح هزيمة حتى تقهقر إلى بخارى، ولم يأت من بخارى بعد ذلك أى جيش آخر، واستولى البتكين على ولاية كابل وبست

[٢٥] وباميان وغزنه [٢٦]، وانتشر الإسلام، وكان له ابن يدعى إسحاق، فدعا الجيش، وأوصي، وأعطي الغلمان نعمًا كثيرة، واعتقهم، وأوكل الابن إليهم، وقال: حافظوا على هذا الصبى فإنه أميركم، وتوفى هو نفسه فى شعبان سنة اثنين وثلاثمائة [٢٧].

الأمير إسحاق بن البتكين :

وكان إسحاق أميرًا ونفذ وصايا أبيه، وحافظ على البلاد، وبسط القسط والعدل، وأطاعه الناس، ولكنه أخذ يشرب الخمر، ولم يكن قد شربها قبل ذلك، وقد حرضه الأتراك على ذلك، فشرب الخمر، وكان رجلًا سخيًا، فمد يده إلى خزانة أبيه، وبعثر المال الذى كان قد جمع فى بخارى خلال سنوات طويلة، وما تم الحصول عليه على إثر الحروب، وكان الأتراك منشغلين فى الشراب، ولكنه ندم، وكف عن معاقرة الخمر، ولكن الأتراك لم يمتنعوا عن شربها رغم أنه حاول معهم كثيرًا، فانتهكت حرمته، فضاق إسحاق ذرعًا بذلك، فقدم إلى بخارى، فأكرمه أميرها، وخدمه سنة، واستأذنه فى أن (ص١٣) يذهب إلى غزنه فندم أمراء البتكين، ولم يكن لهم أمير، فرشحوا إسحاق، فولاه أمير بخارى على غزنه، فقدم إلى غزنه، وبلغ جيشه ألفًا، ولكنهم لم يكونوا سوى غلمانًا، ولم يكن بينهم الأمير سبكتكين، فظهر الاختلاف بينهم، ثم إن إسحاق عندما جاء كان ابن ملك غزنه قد جيش جيشًا قوامه ثمانية آلاف، وهجم إسحاق على هذا الجيش متوكلًا على الله، ولكن سبكتكين صمد وثبت حتى هزمهم كلهم، وعادت غزنه عاصمة الملك، وازدهرت، وفى خلال تلك الفترة خرجت على إسحاق جماعة التراكمة الخلجيين[٢٨]، فأرسل إسحاق سبكتكين وتمكن من قمعهم، فتعزز أمر إسحاق، وعاد ملك أبيه تدريجيًا، وتوفى سنة خمسٍ وخمسين وثلاثمائة وكانت فترة حكمة أربع سنوات، والله أعلم.

الأمير بلكاتكين :

وعندما توفى بلكاتكين(٢٩)، لم يكن سبكتكين حاضرًا، فولي الأتراك من بعده شيخًا عجوزًا إذ لم يكن هناك أكبر منه، ولكنه كان يعاقر الخمر، ويحب الشراب، فأهمل أمور المملكة، وأخذ سبكتكين ينصحه لكنه لم يصغ إلى نصائحه، حتى أحاط ملك الهند علمًا بذلك، فطمع فى ملك غزنه وجيش جيشًا قوامه أربعون ألف رجل، فداخل الأتراك الخوف، فجمعهم سبكتكين، وصعد على مرتفع، وقال: يا قوم: اعلموا أننا جئنا من بخارى للغزو، فإما أن يقتلونا ونكون شهداء، أو أن يمن الله علينا بالظفر بسبب نيتنا الحسنة، فيسلب من الكفار ملكًا كملك غزنه ويعطيه لنا، والآن فإن جيش الكفار قصدنا، وأنتم تمتلكون نية صافية، فلا تخشوا واعقدوا العزم على الشهادة، وتأهبوا للغزو فاجمعوا أهل غزنه وأهل مملكتكم، ولنتوجه إليهم متوكلين على الله حتى يقضي الله، فاتفق الأتراك، وأمدهم أهل غزنه وكابل وكرديز(٣٠) وبست ويامبان(٣١) بالمساعدة، وقاتلوا ذلك الجيش المكون من أربعين ألفًا، ونصرهم الله تعالى، وقتلوا الكثير من الهنود، وغنموا الكثير من الغنائم ببركة نية سبكتكين الحسنة، ولكن الشيخ عاد إلى شرب الخمر، (ص١٤) وأتلف جميع ما فى الخزانة من أموال حتى بلغ به الأمر أن رهن حزامه الذهبى من أجل الشراب، فخلعه الأتراك، وولوا سبكتكين الإمارة والله أعلم.

الأمير العادل سبكتكين رحمه الله :

وعندما خلعوا بيرى عن الإمارة، التف الأتراك حول سبكتكين وقالوا له إن أحدًا لا يستطيع القيام بذلك غيرك، وكان سبكتكين رجلًا حكيمًا، فقال: أيها الأمراء: إن إمارتى تناسبكم وأنا فى مرحلة الكهولة من عمري، وحينما يكون الأمر لي، فسيكون من لون آخر، ونحن جميعًا أصدقاء فى هذه الفترة، عسى أن تبدو أمور، وينزعج منى كل شخص لسبب من الأسباب، فلم يقبلوا قوله،

فقال سبكتكين: على طبعًا أن أقوم بهذا العمل، فأنا أتمتع بالاستعداد للإمارة، ولكن سأشترط عليكم، ويجب أن آخذ منكم عهدًا، فإن لم تعملوا بالشرط، خرجت من العهد، فقالوا: نعم، فكتب سبكتكين العهد بخطه، وبايعوه كلهم على تلك الشروط، وتولى سبكتكين الإمارة سنة ثلاث وستين وثلاثمائة(٣٢).

وقد كان أول عمل قام به أن فتش الخزانة فلم يجد فيها شيئًا، ولم يكن قد تبقى من جميع النعم التى كان سبكتكين قد جمعها سوى ثلاثمائة حمل من الأسلحة وخمسمائة لباس والله أعلم وأحكم، فدعا الجيش، وأطلعهم على الخزانة وقال: إن الملك إنما يقوم على الجيش، وقوام الجيش بالمال، والإعمار، والعدل، فمدوا أيديكم إلى، ولنعمر الخزانة فتبرع كل فرد من الناس بمبلغ من النقود حتى جمعوا مائتي ألف دينار جعلها أساس الخزانة، ثم قال: أرى لكل تركى ضيعة وسلطانًا، وإذا ما زاول الجند الزراعة، تقاعسوا عن الحرب والمرابطة، فعليكم أن تتخلوا عن جميع الضياع للديوان كى أقوم أنا بنفسي بالإعمار، فإن احتجتم إلى شئ فخذوه من الخزانة، كى يكون التوفير للعمارة، ففعلوا ذلك، وأصبحت الضياع تحت تصرف الديوان، ولما لم تكن هناك أبقار وبذور وغلمان أنفق عليه من الديوان، فتجمع من ذلك من الغلة الديوانية ما زودها بكميات كبيرة من الذهب، وتعزز أمر الجيش أيضًا، وأصبح بمقدور الأمير سبكتكين أن يفتح البلدان، وكانت ولاية باميان أول فتح له، حيث استسلم أهل البلاد بإرادتهم، وفى تلك السنة خرج جيبال ملك الهند بجيش جرار، وبعث كتابًا إلى الأمير سبكتكين قال فيه: أنت (ص١٥) لا تستحق الملك بأى وجه من الوجوه، وقد هجمت الآن هجوم الذئب إذ كنت غافلًا عنك فى هاتين السنتين، فسيطرت على عدد من القلاع فى ممالكى، والآن عليك أن تعرف قدر نفسك، فقد عفوت عنك، فأعد القلاع، فأجابه سبكتكين: أيها الكافر الجاهل، لقد غرك هذا الجيش الجرار، وظننت أنني لا أملك سوى القليل

من الجند، إلا أنك فى ضلال، فجميع الناس جيوش اعتبارًا من عاصمة ملكى وحتى فارس وكرمان والعراق والشام والمغرب بحكم الدين، فالإسلام دينى والمسلمون جميعًا إخوة متعاونون، وعدوهم أنت، ومن الواجب عليهم سفك دم أبنائك، وجندك، وحلال عليهم أموالك بحكم الإسلام، وإذا ما قتلناكم فموضعنا الجنة، وموضعكم النار، وإن قتلتمونا أنتم فالأمر كذلك، واعلم أنني قد جئت من التركستان للقيام بهذا الأمر احتسابًا لأجر الله كى تقتلنى وأصل بذلك إلى السعادة الدائمة أو أن أهلك وأدخل الجنة، ثم قال للرسل: انظروا الآن إلى جندى الذين يقفون ورائي، فعاد الرسل ونقلوا هذه الرسالة المعقولة، فسيطر الخوف على الملك جيبال، وندم على خروجه، فأرسل الرسل، كى يقروا الصلح، وبعث خمسة فيلة ضخمة والكثير من الذهب والخلع والتحف من الهند، وعاد، وأصبحت غزنه المقر الجامع، وكانت ولاية بست الولاية الأولى التى ضمها سبكتكين إلى غزنه، وكان يتولى أمر هذه الولاية أمير كبير يدعي طغان، وكان يظلم الرعية، فسلم أهالي تلك الولاية أنفسهم إلى الأمير سبكتكين من تلقاء أنفسهم، وجلبوا آنذاك عهدًا ولواءًا من ملك بخارى، وولى الامير محمود ولاية العهد وهو فى سن الثالثة عشرة[٣٣]، وكان أبوه يؤثره على سائر أبنائه وكان يتفرس فيه الاستعداد للإمارة وعلوّ الهمّة، وكان له أربعة أبناء: ابنه الأكبر نصر، والثاني محمود، والثالث إسماعيل والرابع يوسف[٣٤]، وعندما خرج محمود من الكتّاب، وأوكل إليه الأمير سبكتكين مدينة غزنه وقلعتها، واستقر هو نفسه فى مدينة بست، وولي الأمير أبا الفتح البستى الذى كان من فضلاء العصر النوزارة، واعتبر الأمير محمود أمير غزنه، وقال له سبكتكين: لقد جعلت بست عاصمة ملكى (ص١٦) لأنها قريبة من سجستان والتركستان كى أشرف على هذه الممالك الثلاثة كلها، وكان سبكتكين يحقق فتحًا جديدًا كل يوم ويسيطر على ولاية أو مدينة أخرى، وسيطر على سجستان، وكانت غور وغرجه بيد الكفار فترة، واستطاع أن يستولى عليهما

بلطائف الحيل، ولم تكد تمر سنة حتى كان يسيطر على أجزاء من الهند وعلى عدد من مدنها، وخرج ملك الهند عدة مرات للحرب ولكنه عاد منهزمًا، حتى آل الأمر إلى أن يتوجه الأمير سبكتكين بجيش كثيف إلى الهند، ويسيطر على الكثير من المدن، فولى عماله، وأخذ الأموال، وخصص لهم أموال الصدقات والزكاة وأموال الأضاحي، وأسس المساجد والمنابر، وجاء بالكثير من العبيد، وغنم الكثير من الأصنام الذهبية والفضية، وأعطاها للتجار، فحملوها إلى التركستان والشام والعراق كي يبيعوها، وانتشرت عظمته وشوكته في أرجاء العالم، وخشي ملوك العالم سطوته، وكانوا يفدون إليه كل سنة من دار الخلافة، ولقبوه ناصر الدين، وقد أشرنا إلى مملكة خراسان عند ذكرنا للسامانيين وكيف بدأت حتى وليها بعده الأمير محمود، وكان رجلًا حسن العقيدة وقد أقلع في نهاية عمره عن الشراب، فلم يرتشفها إلى أن مات، كما أنه كان مؤمنا فلم يكن قد زني أو غدر قط، وقد بعث للأمير محمود برسالة في الموعظة، وذكر فيها أحواله بشكل مفصل، وعلى الملوك مطالعتها، وهذا شرحها: لقد أملي الأمير سبكتكين هذه التوصيات على أبى الفتح البستى[٣٥] الذى كتبها بخط يده، وبعد وفاة سبكتكين غلف الأمير محمود هذه التوصيات، وكان يطلع عليها يوميًا إلى أن وصل إلى السلطنة، وجاء في بداية هذه التوصية: يا بني اعلم أننى أرغب أن أقصّ أحوالى عليك، كي تدرك أن الله سبحانه وتعالى قد وضع لكل ذات خاصية وأن هذه الخاصية تتجلى في الإنسان، واعلم أن نسلي ينحدر من قبيلة تركستانية وهذه القبيلة تسمى برسخان[٣٦] وأطلق هذا الاسم على هذه القبيلة في العصر القديم لأن أحد ملوك إيران جاء إلى أراضى التركستان[٣٧] ولقبه ملك التركستان بارس خان ولكثرة تداول العامة هذا الاسم أصبح برسخان، وكان أبى يسمي جوق (بجكم) ثم أصبح لقبه معروفًا بجكم برسخان وكلمة بجكم تعني عند الأتراك القوى، وكان (ص١٧) والدى قويًا بالفعل حتى أنه كان يكسر عظام ساق

الحصان بيده، كما أنه اشتهر بالمصارعة وركوب الخيل والرماية وغيرها، ومن أعماله الإغارة على الأعداء ليلًا وسلب الأموال والقتل والأسر التى كانت عادة من عادات الأتراك، وكان أبى كثير الأولاد وكنت أنا ثالثهم، وكان يحب ضيافة الناس حتى أن بيته لا يخلو من الضيوف بشكل يومى، وفى أحد الأيام كان أحد الكهان المعمرين من بين ضيوفه، وكنت أنا وبقية الأطفال نجلس فى إحدى زوايا البيت وعندما رآنى ذلك العجوز طلبنى إليه ثم نظر فى كفى وقرأ طالعى وقال: كم من الصعاب ستحل بهذا الطفل كى يصبح أميرًا ثم تصبح ذريته جميعًا من الملوك وقد كتمت هذا الكلام فى قلبى وكل ما يحدث لى اليوم يذكرنى بنبوءة ذلك العجوز.

وشاءت الأقدار أن يهجم علينا فى ذلك الأسبوع قوم من الأتراك يقال لهم التخسيين(٣٨)، وكان أبونا قد خرج للصيد، فأغاروا على ديارنا بشكل سريع، واسترقونى، وكانت بيننا وبين أرض التخسيين مسافة بعيدة، ولم يستطع أبى أن يخرج لطلبى، فأخذونى إلى قبيلة التخسيين، وكانوا يعبدون الأوثان، وكانوا قد نحتوا فى الصحراء حجرًا على شكل إنسان، وكانوا يسمونه (خود رسته): كلمة فارسية تعني: النّاجى بنفسه، وكانوا يديمون السجود لذلك الحجر وكان مزارهم، واستعملونى فى رعي الأغنام وكنت أسوقها إلى الصحراء، وكنت أمر كل يوم على هذا الصنم، فألقى الله فى قلبى أن هؤلاء التخسيين قوم تعساء لأنهم يسجدون كل يوم لحجر، فحدثت نفسى أن أتحدث مع هذا الوثن لأرى هل يعاقبنى، فرأيت النجاسات والقذارات والأضحية التى كانوا قد قدموها إلى الوثن وقد سقطت جانبًا فغمست فيها عصًا، ومسحت بها على وجه الوثن وهيكله ولم يسبب لى أى أذى حتى اليوم التالى، وماذا يمكن أن يسبب حجر لى؟! فكنت أفعل ذلك كل يوم، فزاد ذلك من يقيني فى معرفة الله، وعشت بين القوم أربع سنوات، (ص١٨) ثم جاءوا بى مع عدد من الغلمان الآخرين إلى مدن ما وراء النهر وباعوني، واشتراني سيد من مدينة جاج يدعي نصر

جاجي[٣٩]، وذهب نصر بى مع عدة غلمان أخرى إلى مدينة نخشب[٤٠]، وقد تعذبت كثيرًا فيها، وأوكل امرأة عجوز بي وتركنى عندها مع شئ من الطعام، و قال لها أنفقي عليه حتى تتحسن حالته، وقد بقيت أعاني من هذا العذاب لثلاث سنوات، وكان نصر يأتي كل سنة، ويشترى الرقيق وأنا على حالى من العناد، وتركنى، ولم تتكفل تلك المرأة بمداواتي، فضعفت، ولم تنفع توسلاتى لهم بأن يعطونى الخبز واللحم، وفى يوم كنت نائمًا فرأيت من بعيد ورقة ملفوفة، فالتقطتها وقرأتها، وكانت مليئة بالفضة المتكسرة، فمكثت حتى خرجت المرأة من الدار، وكان لها ابن شاب حسن السيرة، كان رفيقًا بى، فأعطيته الفضة وقلت: آت لى بمقدار من اللحم واللبن[٤١]، فذهب وأتى لى بهما، فوضعتهما فى القدر حتى نضجا، وتناولتهما، ونمت ليلتى تلك نومًا هنيئًا، فكان ذلك الشاب يأتى لي بالخبز واللبن ثلاثة أيام فى الخفاء حتى تعافيت، فشرحت حالى للمرأة، وكانت هي أيضًا تعطينى من نفس الطعام، وبعد ما يقرب من شهر عدت إلى حالتى الأولى، فاشتقت إلى حمل السلاح وركوب الخيل، وكان ذلك الشاب أستاذًا فى استعمال السلاح، وكان جميع أهالى نخشب يأتون بأبنائهم إليه، فعلمنى استعمال السلاح وآداب الجيش، واعتبرني أخًا له، وعلمنى فن الرماية، وركوب الخيل، واستعمال الرمح والسيف، وعاد نصر فى تلك السنة فأخذنى، وجاء إلى بخارى، وجعلنى أميرًا على جميع الغلمان، وكان يثق بي كل الثقة، وشرح حالى لدى الأمير البتكين الذى كان بطل السامانيين الأوحد، فطلبنى من نصر، فلم يسع نصرًا إلا أن باعنى مع عشرة غلمان فأمرني الأمير البتكين على هؤلاء الغلمان العشرة، حتى بلغ بي الحال إلى ما ترانى عليه اليوم، فأنعم الله تعالى علىّ بالإمارة، وجعلنى حاكمًا على عباده، وهذه هي أحوالى، فاعلم الآن أن الله قد رزقك الإمارة كما رزقني، واعلم أن الحكم على عباد الله ليس بالأمر اليسير، فالملك أمر خطير فى الدنيا على النفس، وفى الآخرة على الدين، فعليك أن تخشى الله، فإن خشيت

الله خشيك عباده، وعليك أن تكون ورعًا، فلا حرمة للملك الفاجر، وأول عمل عليك أن تفعله أن تعمر الخزانة وبيت المال، فالملك إنما يصان بالمال، (ص١٩) وإن لم تكن تملك الذهب والمال فلن يطيعك أحد، والمال لا يأتي إلا بالعمران والتدبير والعقل، والعمران لا يتم إلا بالعدالة والاستقامة، فاجتهد كى تجعل جميع الناس يرأفون بك، واعلم أنك إنما تمتلك قلوبهم بالإحسان وبذل المال، ولا يطيع الناس إلا بعد إعطائهم ما يفتقدونه وعليك أن تكون عالى الهمة، فالهمة فى الإنسان كالنار تطلب العلا، أما اللهو واللعب واللذة والشهوة فمزاج ترابى وجميعها تميل إلى الضعة، ويجب أن يكون جمع المال من وجه جميل، وأنا لا أنصحك أن تأخذ المال من الرعايا، فكل من يأخذ المال من الرعايا دون وجه حق، فإن هذا المال لا يلبث أن يكون وبالًا عليه فالرعايا كنز الملك، فإن كان الكنز فارغًا فما فائدته، كما لا أقول لك أن تلين إلى الحد الذى لا تأخذ معه المال من الرعايا بالحق، فعليك أن لا تضيع حق الله لدي أى مخلوق، ومن كان عليه حق واجب فخذه منه بالتلطف، وأنفقه فيما أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وعليك أن تصون السياسة والحدود التى عينها الله تعالى، وأن لا تأمر بالجلد فى الموضع الذى يجب أن تستعمل فيه السوط، ولا تغفل عن الأشخاص الذين كانوا ولاة لك لسنوات عديدة، وأن لا ينفق نوابك والمقربون إليك الأموال التى وفروها بعد سنوات طويلة، كى ترسلهم مرة أخرى لأداء مهامهم، فعليك إذن أن تحيط علمًا بحال العامل الذى يتواجد فى موضع أو مدينة أو قرية لسنتين أو ثلاث سنين، وأن تحاسبه، فإن ثبت لك أنه أخذ شيئًا من أحد بغير حق، فاسترد ذلك المال منه، وأدبه ثم استعمله فى عمله مرة أخرى، فإن كان عاقلًا، فسوف ينتبه فى هذه المرة، ولا يخون بعد ذلك، وإن خان مرة أخرى فاعزله، والأهم من ذلك أن تحيط علمًا بجندهم وجراياتهم وأرزاقهم، ويجب أن تكون أموالهم معلومة لك إلى الحد الذى تقرؤها كما تقرأ سورة الإخلاص كل يوم، وعليك أن تجعلهم مستعدين

ومطيعين بحيث إذا جد أمر، فإن أمرت به في الصباح كانوا على أهبة الاستعداد عند المساء بكل أسلحتهم وعدتهم، وأحسن إلى الناس المستعدين، وأما الأشخاص المتقاعسون والذي لا يمتلكون همة العمل، فلا تقل إن فلانًا ابن فلان، فلا تضيع مال الله من أجل الأبوة، وأعطي الحق للمستحق، وعلى سبيل المثال فإن كان لشخص إقطاعًا ثم مات وخلف إبنا سيء السيرة، أو أن يكون له مال من عنده، أو كان بحاجة إلى إقطاع السلطان، فإن أعطيته ضيعت مال الله، وأعطى المال لمن يعمل من أجل ملكك دائمًا، ووفر الأمن للطرق (ص ٢٠)، وانشغل بذلك دومًا، فإن سرقت بضاعة تجارية والعياذ بالله في الطريق، فاعتبر كأنها مسروقة من مالك وخزائنك، واسع من أجل أن تقبض على اللص، وتسترجع المال، وأنزل حد الله عليه، وأعط ذلك المال من خاصتك إلى صاحب البضاعة، وإلا فإن الله تعالى سوف يخيفك في يوم الحساب، وعليك أن تكون كريمًا ورحيمًا، وأن يكون عفوك أكثر من غضبك، كي يرغب فيك الناس، وأما اللص المذنب فلا تعف عنه أبدًا، فأحدها يشترك في أمور المملكة، والآخر يمد يده إلى أموال المسلمين، فلا تبقهما أحياء، وأما المذنبون الآخرون فأدبهم أو اعف عنهم حسب ذنوبهم، وكن سخيًا ولا تكن مسرفًا ومتلفًا، ولا تسمح للأناس المتشدقين والكاذبين أن يتقربوا منك، واحذر من أن تعير أهمية إلى كلامهم، فإن أكثر أسرار الملوك إنما تتسرب عن طريق هؤلاء الأشخاص، فيقف بذلك الأعداء على أسرار الملك، فتنشأ منها فتن عظيمة، واستعمل كل شخص في ما يحسنه فإن الله أودع في ذات كل إنسان صفات وخصوصيات، فاعرف هذه المرتبة جيدًا، لأن أمر الوزارة لا يليق براعي البغال حتى وإن ملك الآلة والعدد، ولا تقصر في ذلك أبدًا، ولا تكلف شخصًا بعمل شخص آخر، فإن غاب الفرّاش عشرة أيام فلا تكلف الساقي بأن يقوم بعمله، ولا تكلف أحدًا من أهل البيت بذلك، فالسهو هو خلل الممالك ومصدره الطبع، ويجب أن تميز صديقك من عدوك وهذه هي الكياسة التامة

والعلم الكامل كي تحيط علمًا بطبائع الناس وهذا ما يتيسر من خلال المنجمين كما تحيط علمًا بحال كل شخص في قصر الوزراء، واعلم أن العدو الأكبر للملوك هو الاستبداد بالرأي، أن تشاور في كل أمر الأناس الرحماء الذين جربت اخلاصهم وأن تتصرف بعقلك فيه، وأن تتخذ سبيل اللطف والمداراة مع الأعداء المتساوين معك في المرتبة، فإن تجاوز الأمر ذلك فلا مناص من السيف، وعليك أن تتمهل في الحروب والمعارك فالحرب كالتجارة وعليك أن تفكر أولًا في الصلح ذلك لأن الملك إن سلب منهم فلن تزول الأحقاد من قلوبهم حتى وإن لم تكن أنت السبب في نكبتهم.. فإن كان الملك بيدك حسدوك، ويجب أن تكون متأهبًا ويقظًا معهم، ويجب أن لا تضيق عليهم دومًا، وأن تتلطف مع هذه الطائفة، واعلم أنه سيحل وقت يتحول فيه الصديق إلى عدو ولكن لا يمكن أن يتحول العدو إلى صديق، وعليك أن تضمن محبة الأقرباء وأن تشفق عليهم، وتحفظ حرمة الكبار اللهم إلا من طمع في ملكك فلا تحابه، وعليك أن تستعمل الجواسيس كي يأتوا لك بأحوال الممالك وأخبار جيوش الأعداء (ص٢١) من المدن البعيدة، وعليك أن تعين في مدينتك ومملكتك أصحاب بريد أمناء كي يطلعوك على أمر الرعية، وإنصاف العمال، وعليك عندما تريد أن تخلد إلى النوم في كل يوم أن تعلم مجموع أحوال ممالكك كي يزدهر أمرك، وعليك أن تحيط علمًا بنفقات وإيراد البلاد، وأن لا تغفل عن الكتاب والوزراء فقد يأتي وقت يصبح الكتاب خائنين، ويتواطؤون في ذلك مع العامل فيأخذون أموالك، وتتابعهم بين حين وآخر، وعليك أن تتذكر هذا الحديث الذي قلته لك، وتحفره وتنقشه في قلبك، كي تكون من السعداء وهذه هي نصيحتي ووصيتي إليك، وقد برئت ذمتي منها والله أعلم».

ومنذ ذلك اليوم كان سبكتكين يزداد عظمة، وتتسع مملكته، فأرسل التجار إلى كل صوب إلى مدن التركستان ليطلبوا أمه، وذات سنة، جاء تاجر بإثنين من إخوته أحدهما يدعي قدرجق والآخر بغراجق، وفي سنة أخرى عثر على أمه

وأتي بها، وعندما بلغوا مدينة بخارى عثروا على أخته وقد منح الأكبر، وهو الأمير بغري الإمارة، أما الأخ الأصغر فكان فى مقدمة الجيش عند كل حرب، وتوفيت أمه قبل أن تصل إليه، وكان أبوه قد مات قبل ذلك، وخاض سبكتكين فى آخر عمره حربًا كبيرة مرة أخرى مع ملك الهند، وانتزع منه الكثير من الولايات الأخرى، ولذلك ضاق الأمر على ملك بخارى فاستعان به، فتوجه إلى بخارى مع عشرين ألف رجل، وذهب من بخارى إلى خراسان، واستقر الأمر فى تلك المملكة للأمير محمود، وولي الأمير محمود علي بلخ، وتوجه هو نفسه إلى غزنه، ولكنه مرض فى الطريق، فدعا ابنه الأكبر إسماعيل وأوصاه وولاه إمارة غزنه، وقال: لقد وليت الأمير محمود على مملكة خرا سان فأطِعه، فإن أوكل إليك غزنه فاغتنم الفرصة، وإن خالفك فاحذر أن تخالفه وتنازعه، وأنت لا تبلغ درجته، وأنا نفسى أعلم أن ملك السامانين سيؤول إلى الأمير محمود، وقد توفى سبكتكين فى الطريق فى شهر شعبان سنة سبع وثمانين وثلاثمائة وكانت مدة إمارته أربعًا وعشرين سنة(٤٢) والله أعلم».

(ص٢٢) إن القسم الأكبر مما جاء فى مجمع الأنساب، جاء أيضًا مع قليل من الاختلاف فى سياست نامه لنظام الملك(٤٣)، ولكن تفصيل عهد إمارة إسحاق بن البتكين وبلكاتكين سقط من ذلك الكتاب، حتى أنه صرح بعد موت البتكين أن أمراءه قالوا « ليس لابلكتين ابن يستخلفه»، ولذلك فقد ولوا سبكتكين الإمارة، وهذا يتعارض بالطبع مع أقوال جميع المؤرخين، كما أن نظام الملك لا يصرح فى سياست نامه بالمصدر الذى استقي منه هذه المعلومات فيما يتعلق بالبتكين وبدأية أمر سبكتكين، ولكن كما قلت قبل ذلك لم يكن هناك كتاب آخر سوى تاريخ ناصرى لأبى الفضل البيهقى كان بإمكانه أن يشتمل على هذه المعلومات وطالما أن عبارة هذا القسم من سياست نامه هى نفس عبارات مجمع الأنساب فليس هناك شك فى أنهما استقيا تلك المعلومات

من مصدر واحد، وأغلب الظن أن نظام الملك أعاد كتابة هذه المعلومات في سياست نامه، وأنه تصرف فيما اقتبسه من البيهقى وكتبه بإنشائه.

٢- تاريخ يميني

قلت فيما سبق، إن هناك قرائن كثيرة تدل على أن القسم الثاني من تاريخ آل سبكتكين لأبى الفضل البيهقى والذى يتضمن تفصيل حكم يمين الدولة محمود، كان يسمى تاريخ يمينى، وكان يمتد إلى نهاية المجلد الرابع، وأما القسم المنشور والموجود بين أيدينا وهو تاريخ مسعودى فيبدأ من بداية المجلد الخامس، وقد بقيت من تاريخ يمينى هذا بضعة أجزاء متناثرة فى الكتب، ومنها جزء بالغ الأهمية، أورده مؤلف مجمع الأنساب، ورغم أنه لا يصرح بأنه اقتبسه من تاريخ يميني، لنفس الأسباب التى أشرت إليها فى باب تاريخ ناصرى غالب الظن أنه أخذه من البيهقى، ولأن هذا القسم من مجمع الأنساب يشتمل على فوائد تاريخية جمة، ولم ينشر حتى الآن، فمن المناسب أن ننقله بحذافيره:

السلطان معز الدولة محمود بن سبكتكين: عندما توفى سبكتكين، حمله ابنه إسماعيل إلى غزنه، ودفنه فيها وولى نفسه الحكم بعد أبيه، واستولي على خزائن دولته التى لم يكن يمتلكها أى ملك من قبل، ووسوس إليه الناس بأن لا يطيع محمودًا، قائلين له إن الجيش والملك والمال تحت تصرفك، فى حين أن جيوش الأعداء تحيط به، ولأن إسماعيل (ص٢٣) شاب غر لا يمتلك التجربة، فقد انخدع بحديث المفسدين، وعندما علم الأمير محمود بموت أبيه، أقام الحداد فى مدينة بلخ سبعة أيام، ومزق الثياب، ونثر التراب على رأسه، ونثر معه جميع ملوك خراسان التراب على رؤوسهم، وعندما فرغ الأمير محمود من ذلك كتب رسالة إلى أخيه عزّاه فيها بموت الأب، ثم هنأه بفتح غزنه وقال:

أنت أخي، وأنت تعلم أنني ولى عهد أبينا، وأن مكانه يعود إلى، وأنني لا أبخل عليك بشيء، وكل سعي أقوم به إنما هو من أجل شرف هذه الأسرة، وعليك أن تحافظ على غزنه، وتضرب النقود، وتقرأ الخطبة باسمى، وعليك أن تبعث لى على وجه السرعة الأموال من إرث أبينا، فأنا سأكون فى بلخ لأرى أين سيصل أمر الملوك السامانيين، وعندما قرأ إسماعيل هذه الرسالة أجاب بأنه الأخ الأكبر، وأن له الولاية على جميع الأسرة، ولكن أمر الملك شئ آخر، وقد ولاك الأب على خرا سان، وأعطانى الجاه والملك، وجميع أركان الدولة يشهدون على ذلك، فإن خالفتنى فسينتهي الأمر بيننا إلى العنف، ويكفيك أن تحافظ على مملكتك، والله أعلم، ثم جمع جيشًا، وعسكر فى سهل شابهار[٤٤] قاصدًا محاربة الأمير محمود.

وعندما أحاط الأمير محمود علمًا بذلك، كتب أولًا رسالة إلى ملك بخارى واستأذنه، وقال: لقد توفى أبى، وقد خدعت جماعة من الأشقياء أخى الصغير، ولذلك سأذهب إلى غزنه ليومين أو ثلاثة أيام كى أنصحه، فأذن له أمير بخارى، وخلع عليه الخلع، فبعث الأمير محمود أميرًا أو جيشًا إلى كل مدينة من ممالك بلخ وخراسان، وكان يرافقه عماه وأخوه الأكبر نصر بن ناصر الدين، فتشاور معهم، وتوجه إلى غزنه مع عشرين ألف فارس، وتقابل الجيشان، وفى خلال لحظة هزم إسماعيل، وهرب إلى قلعة غزنه، فتبعه السلطان محمود إلى القلعة، وبعث عبد الله الكاتب برسالة وقال: امض، وقل لهذا الشاب المتهور إنك لم تصغ إليه، واتبعت جماعة مفسدة يحملون أحقادًا قديمة منذ عهد الغ تكين[٤٥] على أبينا، وأنت تعلم الآن أن من السهل على السيطرة على القلعة، فاهبط منها، فهبط إسماعيل منها، واعتذر، وقبل يد أخيه ورجله وقال: لقد انخدعت بكلام المغرضين، وفعلت السوء، (ص٢٤) فاعف عنى، فقال الأمير محمود: أنت أخي ونور عيني، وبسبب هذا الجهل

الذى بدر منك، أطلب منك أن تمكث في البيت بضعة أيام حدادًا على أبينا كى تخرس ألسنة الحساد، وسأخرجك بعدئذ، ثم أمر بأن يحمل إلى البيت، وهيأ له أسباب اللهو والندماء، ووضعوا على رجليه حبلًا ذهبيًا، ثم عامل الجيش معاملة حسنة، وقال: لا تثريب عليكم، فخدمه الجميع، ودعا لهم، ثم أدار العنان، ودخل مدينة غزنه، وزار أولًا قبر أبيه، وأمر بأن تعطي صدقة قدرها عشرة آلاف دينار، ودخل بعد ذلك بهو البلاط وصلي ركعتين فيه، وأمر بأن تكتب على طاق البهو الأية التالية: ﴿ هذا من فضل ربى ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غني كريم ﴾ [٤٦] ثم التفت إلى الأركان والأعيان وقال: لا تحزنوا، فأنتم اليوم كنفسي، وخاطرنا فى إقامة العدل والرفاهية بينكم، وأنا واحد منكم، فانصحوني، فإن بدر مني ما يحتمل الخطأ والصواب فأرشدوني، وأيقظونى، وأنا لا أبخل عليكم بشيء، فأبى هو الذى حصل على هذه المملكة وهي ليست بالملك الصغير، فكونوا يا إخوتي مذدًا كى لا يقصدنا العدو، فأنتم كلكم إخوتى، فسجد جميع الأركان والأعيان ودعوا له وأثنوا عليه، ثم أمر بأن توزع الخلع، ومنحوا كل شخص وشرفوه بالخلعة التى تناسبه حتى أنه أكرم سواس الخيول والخدم وحراس الكلاب، ثم ولى أبا العباس الاسفرانييني [٤٧] الوزارة وكان رجلًا فاضلًا، ظل يشغل منصب نائب الأمير طوال فترة بقاء محمود فى خرا سان، وفى اليوم التالى قال: إن بلاطنا اليوم واسع، فليتقدم كل من كانت له حاجة، فإن ظلم أحد من قبل شخص آخر ثم لم يأتِ فقد برئت ذمتى منه، فتوجه الناس إلى الأمير محمود، وقدم جميع ملوك الممالك، وقدموا التعازي بموت الملك السابق، والتهاني بمقدم ملك جديد، وجاء كل شخص بتحف معه من عقود الجواهر واللآلئ، وكان الأمير محمود يضعها كلها فى الخزانة، وضبط الممالك بما ارتضاه العقلاء، وانشغل بضبط الممالك ما يقرب من سنة، وتوارى أخوه إسماعيل، وعندما استقامت غزنه للأمير محمود، توجه إلى بلخ، وبعث أمير بخارى رسالة

عهد له فيها بولاية خرا سان (ص٢٥) وسجستان[٤٨] وكابل وزابل[٤٩] دون حكومة نيسابور التى قلت أنهم كانوا قد أرسلوا إليها بكتوزون[٥٠] وبقى الأمير محمود سنة أخرى فى خرا سان حتى ضبطها، وحدث ما ذكرناه وإذا به يذهب إلى نيسابور ويخطف بكتوزون (٢٣)، وجاء أمير بخارى مع جيش، فهزم الأمير محمود ذلك الجيش، وذهب إلى بخارى، وما لبث أن جاء أيلك، وانتهى ملك السامانيين، وكان فتح سجستان هو الفتح الأول الذى حققه السلطان، والله أعلم.

استخلاص سجستان :

كان والى سجستان خلف بن أحمد، وكان من أبناء عمرو بن ليث وكان مكارًا محتالًا، وقد أقام جدارًا بينه وبين ملك سبكتكين، وكان يحارب ملك الترك، وقد كان الأمير محمود قد فهم ذلك المعني، فجهز عمه بغراجق بجيش، فهزمه خلف، وجاء بغراجق إلى هراة[٥١]، وغادر الأمير محمود نيسابور، وجاء إلى هراة، وأرسل الجيش إلى بوابة قلعة سجستان، وهزم خلفًا حتى وصل به الأمر إلى التضرع، ولم يرض عنه الأمير حتى قدم مالًا كثيرًا، ونشر الشرطة فى سجستان، ومنح خلفًا الحكم، وأخذ منه الأموال، وعاد هو إلى نيسابور، والله أعلم.

صفة الحرب بين جيبال الهند والأمير محمود :

وعندما توفى سبكتكين طمع جيبال[٥٢] فى استرداد ما سلبه العجم، فأراد أن يسترد الملك الذى كان قد انتزعه منه، فجهز جيشًا بلغ عشرة آلاف رجل، وتوجه إلى مملكة الأمير محمود عند الموضع الذى يدعى برسور، وقد كان الأمير محمود أكثر عزمًا من أبيه، فأقام دعائم مملكته على القادة والرجال الأشداء، وتوجه هو نفسه لمحاربة الكفار بثلاثين ألف رجل مقاتل، ومزق صفوفهم فى

أول حملة، وقد حارب بنفسه فى كل موضع، ودخل المضايق والمخارق، وقتل فى ذلك اليوم ستة آلاف كافر فى آن واحد، وهزم الباقين، وأسر ملكهم مع أحد أبنائه ووزيره، وانتزعت عقود الجواهر من رقابهم وقد بلغت قيمتها مائتا ألف من الذهب الأحمر، وغنم المسلمون غنائم كثيرة لا يعلمها إلا الله، وأصيب جيبال بالذل والخزى، وسيطر عليه الخوف، فبعث رجلًا إلى الأمير محمود يطلب منه أن يعفو عنه، فقال الأمير: قولوا له أن يشترى نفسه، وكان الأمير يهدف (ص٢٦) من وراء ذلك هدفين: الأول أن يأتى بذهب كثير إلى الخزانة، والثاني أن هذا الأسير عندما يذهب إلى الهند فسيخاف الملوك الأكبر منه، فلا يتعرضون له بعد ذلك، ففدى نفسه بمائتين وخمسين ألفًا من الذهب الأحمر، وخمسين فيلًا وصبيًا كرهينة، ثم رحل هو نفسه، وبعث الذهب والفيلة، وقد كان من عادة ملوك الهند أن يخلعوا الملك الذى يعود مقهورًا من الحرب وعندما عاد جيبال إلى الهند حلق لحيته حسب عادتهم غير المعقولة، وحرق نفسه، وحل ابنه محله، واستلم زمام الملك، وكان اسمه انندبال(٥٣) والله أعلم.

صفة محاربة الأمير محمود مع ملك الأتراك :

وفى تلك الفترة توافق أيلك خان والأمير محمود فى الرأى، وتبادلا الرسل، وقسما البلاد، ومنحت ما وراء النهر وجميع تركستان ما عدا أطراف جيحون أيلك خان، ومنحت أيران كلها وبخارى إلى الأمير محمود، وسقط السامانيون، وعندما خرج الأمير محمود بعد بضع سنوات لغزو الهند، وكان غزوه بعيدًا بحيث سار ستة أشهر فتحين أيلك خان فرصة، وعبر جيحون، وسيطر على خرا سان، وتجمع رعايا الأمير محمود كلهم فى غزنه وأطرافها، وأبلغوا الأمير بهذا الخبر فى جمازه، وكان الأمير قد عاد من الهند فاتحًا مظفرًا، ووصل مدينة ملتان، ثم جهز عشرين ألف فارس، ووصل بلخ من مدينة ملتان

خلال عشرين يومًا، وجهز الجيش بحيث أحاط بالأتراك من جميع الأنحاء، ففروا كلهم، واستعاد خرا سان، وأصلح الخلل، وقتل الكثير من الأتراك، وبعث أعضاءهم إلى البلاد، فأضمر أيلك خان الحقد، وبعث رجلًا إلى ملك كاشغر ويلاغوسان، وأرسل الرماح والسهام كما هو عرف الأتراك وجمعوا تقريبًا ٨٠٠٠ من الأتراك وعادوا إلى خرا سان، ونزلوا فى الصحراء التى يقال لها سهل كترال، ونوي الأمير محمود على الحرب متوكلًا على الله وقال إن هذه الحرب هي من أجل العرش وأمر بتعبئة الجيش، وأوصاهم قائلًا: ابحثوا عنى بين القتلى، وكان عنده خمسمائة فيل من فيلة الحرب، فنزل عند الفيلة، وكان بين الفيلة فيلان مباركان مظفران، يقال لأحدهما نوشين والأخر سنككا، فقال: أرسلوا هذين الفيلين خلفى أينما أذهب، وكان هناك كومة من الحصى، فاعتلاها الأمير (ص٢٧) وصلى ركعتين ورفع رأسه باكيًا وقال: اللهم إن كان الحق مع ملك الترك فانصره، وإن كان معى فأنا عبدك أنصر الإسلام، ثم رفع رأسه، جاء وارتدى سلاح الحرب، وكان له حصان معروف يقال له (خنك مبارك)، فركبه وكبر، وتوجه نحو الأتراك وارتفع نداء الحرب إلى السماء، وقامت القيامة، وخشيت الأتراك من أول هجوم له، وأخذ الفيل نوشين الراية[٥٤]، وعلقوا على خرطوم الفيل أكثر من عشرة آلاف سهم، فجاء الفيل، ورفع خرطومه، والتقط حامل الراية من خلف السرج، وجاء إلى جيشه، وطرحه أرضًا، وقتله وعندما رأى الأتراك ذلك هربوا، وسلكوا طريق جيحون، وبعث الأمير محمود أخاه الأمير نصرًا نصرًا خلف الجيش، وقال: انطلق، ولا تدع أحدًا منهم يعبر جيحون، وعندما ذهب نصر طلب، الأمير محمود عبد الله وابنه وقال: اذهبا، وقولا للأمير نصر، أن لا يعجل فى الالتحاق بالجيش، فإنك إن أعملت السيف فيهم، واضطروا إلى العودة من جيحون، فلا بد من السعي، ويجب الصبر فى غالبية الحروب إلى نهايتها، كالمريض الذى تكون حالته أخطر عندما ينتكس فعليك أن تتمهل فى تتبعهم حتى يعبروا جيحون،

وفعل نصر ذلك، وعبر أيلك خان نهر جيحون بعجلة، وكانت هذه الحرب سنة سبع وتسعين وثلاثمائة، وهزم الأمير محمود جيش التركستان، وحسم له حكم أرض ايران، وجاءوا له من دار الخلافة من أمير المؤمنين القادر بالله، بالخلعة، والعهد بحكم جميع أرجاء بلاد ايران، ولقب بالسلطان يمين الدولة، وأمين الملة نظام الدين كهف الإسلام الأمير محمود بن ناصر الدين سبكتكين، وعظم أمر السلطان وسيطر على كل ما حول خراسان وسجستان وكابل وزابل، واتجه بعد ذلك إلى غزو الهند، ولم تكن تمر سنة إلا وغزا غزوة كبيرة، وسيطر على الكثير من الممالك، والله أعلم.

ذكر استخلاص قلعة بهتيه [٥٥]، والأموال التى غنمت منها :

وفى تلك السنة عزم السلطان على غزو الهند، وعسكر فى سهل كابل، وتجمع حوله جيش كثير، فتوجه نحو أرض الهند [٥٦]، وكان فيها ملك وقلعة، وكان اسم الملك برهمن، وقيل إن تلك القلعة (ص٢٨) كانت تضم خزائن جميع التركستان والهند، وكان الكفار يجمعون فى تلك القلعة كل ما كانوا ينذرونه للأوثان، فسيطر على تلك القلعة، وهرب ملكها، ثم دخل كشمير [٥٧]، وفتح أبواب تلك الخزائن، وبلغ ما فيها من الذهب سبعين ألف مثقال، وبلغت الفضة سبعين ألف من بعد وزنها، ومن الثياب والحلل التى قيل لم يكن لأى منها مثيل فى خزانة أى ملك آخر، وقد بلغت عشرة آلاف قطعة، ووجدوا فى كل بيت أربع صفات (مقصورات) وكان أصلها كلها من الذهب الصامت [٥٨]، وقد طليت جدرانها بالذهب ووجدوا أعمدتها كلها من المصمت [٥٩] وأربع صناديق امتلأ كل منها بالياقوت الأحمر والدر والزبرجد والماس وأشياء أخرى يطول تفصيلها، وأمر بأن تحمل إلى الخزانة، ووكل أمرها إلى (بكتولان) [٦٠] وعاد هو نفسه، والله أعلم بالصواب.

فتوح أرض قنوج [٦١] :

وعندما حقق السلطان محمود كل تلك الفتوح، حيث كان يحقق في كل سنة فتحين، الأول فتح الهند، الثاني خرا سان وسجستان وبلاد العجم وقد قيل له إن مدينة قنوج[٦٢] هي أصل الهند وبطنها، وأن ملك الهند هو الذى يتواجد في مدينة قنوج، وأما ملوك الهند الآخرون فقد كانوا يخدمونه، وكانوا يطلقون لقب جيبال على كل ملك فيها، وكان كل ملك له طريق إلى بلاطه، وكانت تفصل مدينة نندنه[٦٣] عن قنوج مسيرة ستة أشهر، ولم يحدث أن هرب ملك قنوج من أى ملك آخر، وسيطرت على السلطان فكرة أن يستحوذ على ذلك الملك، فنوي وزين الجيش، وبعث المراسيم (الأوامر) إلى الممالك، وقال: استعدوا وتيقظوا، كي لا يكون هناك خلل في رعيتي، فإن قدم جيش من جهة الترك، فتخلوا له عن خرا سان، وتجمعوا كلكم في غزنه وهراة وسجستان حتى يقضي الله (ص٢٩)، وولي ولديه محمد ومسعود زمام الأمور[٦٤]، حيث عين أحدهما على هراة وسجستان، وعين الآخر على بلخ ونيسابور، وولي الأمير الكبير شحنة غزنة، وأمر الجميع أن يطيعوا أمر ابنيه، وكان برفقته حيثما حل رجل وغلام اختبرهما في الحرب، وامتد الجيش من غزنه إلى كابل وكأنه جبل من الحديد، ووصل غزاة ما وراء النهر في الموسم، فقد كان من المعتاد أن يأتي سنويًا ثلاثون ألف رجل من ما وراء النهر، يخرجون للغزو في ظل السلطان محمود، ثم وصلوا، وتوجهوا مع السلطان إلى ديار قنوج، وعندما خرج من ممالكه وعبر نهر جيحون لزم الحذر الكامل، وحمل معه الآلاف من الآلات للسيطرة على القلعة من سلالم وآلات حفر وفأس ومناشير، وعرادات (دبابات) وغيرها علمًا أن الأمير محمود لم يكن له نظير في هذه الأعمال، لأنه كان منشغلًا بها ليل نهار، وكان يدخل الحرب في أى مدينة أو ولاية كان يصل إليها، وكان يقتل الكفار، ويسترق نساءهم وأولادهم، ويغنم أموالهم، وقد حقق فتحًا كبيرًا في هذا السبيل، وهو السيطرة على أرض مهرة التي هي من بلاد العرب ولكن ملكها ينسب إلى الهند، وكانت ولاية واسعة ذات نعم لا

حصر لها وأموال كثيرة ....، وقيل إن أموال العالم قسمت إلى أربعة أقسام ثلاثة أرباعها فى أرض مهرة، وربع فى باقي أرجاء العالم، وقد سيطر السلطان على تلك الولاية، وقتل ملكها، وكان فى تلك المدينة ألف معبد للأصنام منها معبد كبير، وشوهد فى ذلك المعبد خمسة أصنام، يبلغ ارتفاع كل منها خمسة أذرع، وقد صنعت كلها من الذهب الأحمر، ورصعت كل عين بقطعة من الياقوت، يبلغ وزنها مائة وخمسة مثاقيل، وقد وزنوا أحد تلك الأصنام وكان يزيد مائة وتسعين وثمانية آلاف مثقال، وأما الأصنام الفضية التى كانت فى تلك المعابد فقد ربت على خمسمائة سنة، ويبلغ وزن كل منها مائتي من، وحملوا معهم سبعين ألف غلام، ثم اجتاز مهرة، وطار صيت عظمته وهيبته فى الهند، وسمع ملك قنوج بتلك العظمة والاقتدار فهرب من ممالكه، وترك مدينة قنوج، وعندما وصل السلطان رأى مدينةً فارغه تبلغ مساحتها فرسخين فى فرسخين ونصف، وكانت تقع على جانب نهر كنك، وقد كان أولئك الجهلة يقولون إن هذا النهر ينبع من الجنة، فكانوا يفتدون هذا الصنم بأنفسهم، ويقفزون فى ذلك النهر حتى يغرقوا، وأمر السلطان بأن يحيط ذلك الجيش بالمدينة، فانهالوا عليها بالمناجيق والعرادات والصخور، وسيطر على المدينة خلال اثني عشر يومًا، وكانت إلى جانبها قلعة يقال لها قلعة الصعاليك وكانت موضعًا للصوص، فحمل عليها وسيطر عليها فى ثلاثة أيام، والله أعلم.

(ص ٣٠) محاربة السلطان محمود لجيبال الهند

وروي أن هناك طريقًا مسيرته ستة أشهر من الجانب الآخر من نهر الهند، وأنه متصل ببلاد الصين، وفيه ملك يدعي نند[٦٥]، وكان جميع ملوك الهند يمتثلون لأوامره، ويقدمون الخراج له من جميع مناطق الهند البالغ عددها اثنتا عشرة ألفًا، ويلقب فى الهند بالخليفة، ويدعي جميع العالم بأنه لا يستطع أن يتحول من مكانه بسبب كثرة الجيوش التى يمتلكها، وقد ذهب إليه ملك قنوج

الذى هرب، فقتله، وقال إنه جلب العار لملوك الهند لأنه هرب من أمام الجيش، ولم يمكث السلطان طويلًا، فجاء إلى غزنه، وجهز فى السنة التالية الجيش، وانطلق نحو مملكة نندا، وكان يضرم النار فى كل موضع يصل إليه خلال مسيرة ستة أشهر، وعندما وصل إلى حدود تلك الأرض بعث الرسل مع المترجمين وكتب رسالة قال فيها: كى لا تظن بأنني أخشاك، فسوف أنطلق من هنا إلى ولايتك، وقد أبلغتك الآن واعلم أنني سوف لا أعود من الهند حتى أجعل الجميع مسلمين، أو أن أسترق النساء والأطفال، وأقتل رجالهم، وقد خلقني الله تعالى لذلك، فأجاب نندا: إنك لا تقوى على جيشي، فأنا امتلك جيشًا يبلغ عدده النجوم، والحصى فى البر، وقد قطعت عنق جيبال الذى كان قد انهزم أمامك، وقد جهزت نفسي الآن للحرب، ثم إن الأمير ذهب إلى المدينة يقال لها هزاركون، وقد كان الهنود يقيمون سوقًا فى ذلك اليوم، فهجم الأمير على هذا السوق وقتل الجميع، وأخذ الأموال، وفى ذلك اليوم أيضًا وصلت طلائع نندا وكانت خمسين ألف رجل، فحمل السلطان عليهم، وقتل ملكهم، وهزمهم وكان نندا قد ذهب من مدينته إلى أطرافها، وتخلوا عن المدن، وعندما وصل السلطان لم ير أحدًا فى المدينة، فتبعهم، وكان نندا قد عسكر فى موضع يقع بين نهرين، وكانت الخيم والخيل لكثرتها امتدت لما يقرب من فرسخين، وكان عرضه يبلغ سدسي الفرسخ، ولم تكن نهايته محدودة، وعندما وجد الطريق صعبًا أنزل السلطان قواته على جانب ذلك النهر، وكان مع نندا فى تلك المضايق خمسمائة ألف راكب، وثمانين ألف راجل، وكان السلطان يردد قائلًا إنه لم ير قبل ذلك اليوم جيشًا بهذا العدد، وأمر السلطان بأن يأتي كل راكب وراجل من الجيش طيلة ثلاثة أيام بحزمة من العيدان، ليرموها فى البحر، وفى اليوم الرابع امتلأ طرف من البحر حتى صلاة الصبح، وبدأ الجيش بالعبور، وأعملوا السيوف فى أولئك الكفرة، وقامت الحرب بين الطرفين، واستمر القتال سبعة أيام بلياليها حتى لم ينم أحد، وفى اليوم الثامن أنعم الله بالنصر،

وخرج نندا من طريق الصين (ص٣١) وولي هاربًا، وهرب الكثير من الكفار، وغرق الباقي فى البحر، وغنم المسلمون من الغنائم ما لا يعلم عدده إلا الله، ودخلوا المدينة، وفتحوا خزائن نندا، واستولوا على النعم التى لم يكن لها حصر، وتوجهوا إلى مدينة غزنه، وسيطروا على قلعتين فى الطريق، وفى تلك السنة بعث ببشاير الفتح إلى جميع أطراف الدولة، وأرسل ملوك العالم التهاني إلى السلطان محمود لما حققه للمسلمين من الانتصارات فى بلاد الهند، كما حمل الرسل إلى دار الخلافة التحف وألفًا من الأصنام الذهبية، وخمسة أصنام فضية، ومائة سيف هندى، ومائة ألف مثقال من الذهب، وخمسمائة شارة هندية (٦٦)، والعود والمسك والصندل والعنبر، وما إلى ذلك كهدية من السلطان إلى أمير المؤمنين القادر بالله، وجاء جواب الرسالة بالتشريف والحمد والعهد واللواء والعمامة التى كان الخليفة قد عقدها بيده، واثنتين من حمائل السيف، وفوض إليه حكم ايران، والهند والصين وبلاد الأتراك، والله أعلم.

فتح ولاية كالنجر [٦٧] :

وعندما هرب نندا، ودخل ولاية كالنجر، وكانت تفصل مدينة نندا مسيرة ستة أشهر عن كالنجر، وقد اتصلت بأرض الصين، وحدود التركستان، والمشرق، وفى السنة التالية جهز الأمير محمود خمسين ألف راكب وراجل كانوا قد تجمعوا من كل المدن، ووصلوا على بعد خمسة وتسعين منزلًا عن غزنه، وكان فى الجانب الآخر من أرض نندا موضع يقال له فتراط، وقد بايع أهله الأمير، وأسلموا، وأكرمهم السلطان، ثم غادر، وألفوا فى الجانب الآخر من هذه المدينة مدينة حولها خمسة آلاف قرية وقلعة تناطح السماء، وقد بنيت ثلاثة أحواض فى نهاية تلك القلعة، وكان يتوارى فى كل حوض خمسون ألف رجل دون أن يرى أى منهم الرجل الآخر، ورأوا فوق ذلك الحوض صخرة كتب عليها بالخط الهندي أن الغفريت الفلاني هو الذى بني ذلك، وقد أنفق

عليها عشرة ملايين دينار، وقد استولي السلطان على تلك المدينة خلال فترة قصيرة، وأعمل القتل فيها، وسلب الأموال، وكان وراء تلك المدينة جبل يبلغ طوله وعرضه ثلاثة فراسخ، لا توجد به أية فواصل فلا تستطيع نملة أن تتسلقه، وكان له طريق واحد، وكانت تنبع من هذا الجبل ستة عشرة عينًا، وكان ننـدا جالسًا فى ذلك الجبل مع سبعين ألف راكب، وأربعمائة راجل، وقد بعث إلى السلطان رسالة قائلًا: إلى متى ستستطيع البقاء هنا؟، انهض، واذهب، كي أكرمك، وأهديك التحف الملكية، فأجاب (ص٣٢): لا أعود حتى أجعلك تستسلم، فعقدوا العزم على الحرب، واستمرت أربعين يومًا، وأصبح الجو حارًا، وازداد الذباب، وتكبد جيش الإسلام العناء، فبعث ننـدا الرسل مرة أخرى، وجلس السلطان بهيبته، وأقام خيمة كبيرة تستوعب عشرة آلاف رجل، ووضع العرش، وارتدى قباء مرصعًا، وجلس ووضع كرسيين ذهبيين، أحدهما على الجانب الأيمن فأجلس عليه أخاه يوسف بن سبكتكين، وأجلس على الآخر أحمد(٦٨) بن الحسن الميمندي(٦٩) الذى كان يلي الوزارة، وجمعوا خمسين ألف غلام تركى بثيابهم المرصعة وخوذهم الذهبية، وسيوفهم وأجلسوهم حول العرش، ووقف فى الدهليز ألفا حاجب ارتدى جميعهم الخوذ الذهبية، والأحزمة المرصعة، وكان واقفًا خارج الخيمة فى تلك الصحراء خمسون ألف فارس كلهم مدججون بالدروع، ومستعدون، وعندما وصل الرسل، رأوا القيامة بأعينهم، فعرضوا الصلح، ووافق السلطان على أن يأخذ ألف ألف دينار، وثلاثمائة رأس فيل، وبضعة آلاف حِمل من المتاع الهندي من العود والعنبر والزعفران والطرائف، ثم عاد وفى سنة أربع عشرة وأربعمائة(٧٠) توجه مرة أخرى إلى غزنه، والله أعلم.

ذهاب السلطان إلى ما وراء النهر وأخذ بيعة الملك:

واستتب الأمر للأمير محمود، ولكنه لم يكن يأمن جانب ملك الترك الذى كان يشن حملاته بين آونة وأخرى، فبعث فى تلك السنة الرسل إلى الملك التركى قدرخان، فطلب الصلح، وبعث الرسل، وتواعدا على أن يأتي قدرخان من بلاساغون[٧١] إلى سمرقند[٧٢]، وأن يذهب السلطان إلى بلخ، ويلتقيا فى سمرقند، ويتعاهدا ويتبايعا، ويقسما على أن لا يهجم أحدهما على مملكة الآخر من الآن فصاعدًا، فتوجه السلطان إلى ما وراء النهر بهيبته وعدته التى أثارت الآخرين وقد رافق مسيرته جيش وعدد من الفيلة ومظلات وأسلحة وغلمان وعرش وتاج وحزام، وعبر جيحون خلال أحد عشر يومًا، واجتاز طريق جيحون كله شاغلًا نفسه بالصيد والشراب، إلى أن قدم قدر خان من بلاد بلاساغون، ولكنه عندما سمع بعظمة السلطان ودولته، استولي عليه الخوف، وسلك سبيل العودة لمنزلين، فبعث السلطان الرسل (ص٣٣)، واستماله، وطيّب خاطره، وفى ذلك اليوم الذى كان يوم اللقاء، استضافه السلطان بأن أعد مائدة لم يسبقه بها أى ملك، وأعد من جملة ذلك سماطًا[٧٣]، وضعوا عليه عشرة آلاف خوان، ووضعوا على كل خوان حملين مشويين، ومائتي جمل، ومائتي بقرة، ومائتي حصان مشوي، وصبغوا كل واحد بلون، ووضعوا عشرة مصطبات بين الأسماط ووضعوا فوقها الحلوى[٧٤]، وهذه الحلوى عبارة عن أعواد من الخشب طليت بحلوي ملونة (متعددة الألوان)، بحيث لا يجول بخاطرك أن بداخلها أعوادًا من الخشب. وعندئذ وقفت عند كل مصطبة مجموعة من المطربين قد انشغلوا بالغناء، ووضع على السماط الأطباق الملأى بالفاكهة لمسافة تقرب من نصف فرسخ حتى أنه وضع ستة وأربعين نوعًا من الفاكهة، وأعد الورود ذات الرائحة الشذية حتى أن عطرها كان يصل إلى مسافة شهرين، وغرق الجيش بعد ذلك بالفضة والذهب، ورصعت الأقبية كلها، ثم أقاموا خيمة للسلطان من الأطلس الأخضر، وخاطوا الجميع وزينوه

بالذهب، وجلس الأمير العادل الفاضل الكامل سقي الله ثراه وجعل الجنة مثواه على العرش، ووضع تحت العرش الكراسي الذهبية، وجلس جميع الوزراء، وجاء قدرخان أيضًا بدولته وشوكته وعظمته التى لا ترقي إلى عظمة السلطان، وجلسوا وتناولوا الطعام، ثم اختلوا بعد ذلك بحيث كان قدرخان والأمير والوزير حاضرين، وأخذوا البيعة، وكتبوا الأسماء والشروط، وعاد قدرخان، وظل السلطان ما يقرب من شهر فى سمرقند وبخارى فى هناء وسرور، وكان يجب على ملك الأتراك آنذاك أن يكتب الرواية لأنهم كانوا مقدمة آل سلجوق واستمع كيف كان، والسلام.

سيطرة السلطان على ملك التراكمه :

وتفصيل ذلك أن حاكم التركستان كان يستشعر الخوف[٧٥] من جانب هؤلاء الأتراك، فقد كانوا يفوقون الحصر، ولم يكن بمقدور أحد دفعهم، وفى اليوم الذى التقى فيه قدرخان مع السلطان، أدلى ببعض الأحاديث إلى السلطان بعد العهد والبيعة، كان أحدها رواية على تكين[٧٦] وكان ابن أخي قدرخان، وكان متحدًا مع التراكمة، ولم يكن يطيع قدرخان، وقال إن أول عمل يجب اتخاذه هو خلع على تكين هذا، ويولى على بخارى شخصًا آخر، ووعد السلطان بأن يبعث جيشًا كي يجلب الأخ إلى حظيرة الطاعة (ص٣٤)، وكان مما قاله أيضًا: انظر إلى هؤلاء التركمان الذين اغتروا، لقد ضبط سلطان مثلك هذه الديار، ولم يأت، ولم يقبل الركاب، وإذا ما ظفرت به فسوف يعود عليك بالنفع الكثير، فأجاب السلطان: نعم، لقد كنت أفكر فى ذلك، لقد أبلغونا من طرفه كلامًا مؤذيًا، ولسوف يلاقي ما يستحقه، وعندما ذهب قدرخان بقي السلطان فى سمرقند بضعة أيام وأنشغل باللّهْو والسرور وأرسل رسولًا إلى أمير آل سلجوق التركماني، وقال: من المستغرب من أمير كبير مثلك أن لا يهيئ لقاء بيننا رغم مرور عدة سنوات على نزولنا فى سمرقند، ورغم أنك تدّعى

الإسلام، فها نحن مسلمون ولكنك لم تعرنا أية أهمية، فإن كنت كافرًا حملناك على الطاعة وهذا سهل علينا، ولأنك تدعّي الإسلام فإن طاعة سلطان الزمان هي شرط الإسلام، وعندما وصل الأمير سلجوق هذه الرسالة العنيفة والغليظة، داخله خوف كبير، فبعث الجواب، واعتذر، وقال: لقد كنت قد نويت من قبل أن أقبل تراب جانبك، وقد جئت الآن، وفى اليوم التالى أبلغ السلطان أن سلجوق قادم مع جيش وأناس لا حصر لهم، وقد فكر السلطان فى أمره وخشي أن يغدر به فبعث له رسالة قال فيها: إن الهدف من مجيئك هو لقاؤنا فلماذا كل هذا الجيش والمشاة، وإذا كان الهدف من هذه الجيوش هو الحرب فسوف أعلم بذلك، فإن أردت المجيء، فأقدم مع ابنك، وكان لسلجوق أربعة أبناء أكبرهم ميكائيل وكان وليًا للعهد ويصحبه فى كل المهام، وقد أرسله إلى السلطان مع ألف فارس حاملًا معه الهدايا والتحف، وميكائيل هذا كان شجاعًا بطلًا، ويدعي بيغو[٧٧] بالتركمانية، وقد وصف الأمير محمود بيغو لمرات عديدة فى مجلس على تكين، وقيل إنه حقق إنجازات فى الهند، وإن كانت كل تلك الآلات والكنوز بيدي لاستطعت أن أسيطر على العالم، وقالت جماعة إنه يمتلك تسعمائة ألف فيل حربي، فقال بيغو: وما جدوي الفيل، إن كان يمتلك الفيل فأنا امتلك الرماح، وكان هذا الكلام قد بلغ مسامع السلطان فأضمرها فى قلبه، وكان السلطان قد سمع أن لبيغو حصانًا غاية فى القبح، ولكنه يسابق الريح، فأسرج السلطان حصانًا جميلًا وقال لرعاة الخيل: إذا جاء بيغو، فخذوا الحصان منه بتواضع، وعندما جاء بيغو، بادر السلطان وتقدم إليه بفرسه، وقبل بيغو الأرض سبع مرات تأدبًا، وأمر السلطان بأن يأخذ الغلمان بيده، فجاؤوا به إلى السلطان، وكان الأمير رجلًا ساحرًا فى كلامه (ص٣٥)، فسأله جيدًا، ثم أشار بأن يسحبوا حصان الأمير وأن يضعوا عليه سرجًا ذهبيًا فاضطر بيغو إلى أن يركب الحصان، ووقف على جانب الميدان، ولكنه علم أنه ليس تصرفًا مناسبًا ودخل السلطان الميدان ليلعب الكرة والصولجان، وأمر أحد الغلمان بأن يأتي

بصولجانين، ثم تقدم نحو بيغو وقال: إن السلطان يبلغك السلام ويطلب أن تتقدم إن شئت للعب الكرة والصولجان، فترجل بيغو، وطأطأ رأسه إلى الأرض وقال: أبلغه تحياتي وقل له إننا قوم متوحشون لا نحسن ذلك، ثم قبل الصولجان، ووضعه على رأسه وعينيه، وأعادهما، وعندما سمع السلطان علم أن قوله حق، وكان بيغو واقفًا، فجال السلطان في الميدان، وأدار العنان، ومر على بيغو، واصطحبه معه، ولم ينطق إلا بكلمات قليلة طيلة الطريق إلى المعسكر، وكان يتحدث مع نوابه، ومعه فدهش الناس من تواضعه، وعندما نزلوا قيل لبيغو أن يجلس لفترة، فرأى خيمة كبيرة، وأنزلوا بيغو فيها، وكان فيها ألف تاجيكي(٧٨) وأربعة آلاف تركي، فأمر بأن يحيطوا بتلك الخيمة، وكان يبعث الرسائل، ويحصي الذنوب التي كان قد ارتكبها، ويذكر الأحاديث والأقاويل التي كان بيغو قد تفوه بها، ثم قال: أنا عبد وخادم، وأنا مستعد لأن أتدارك ما بدر مني من تقصير، وبينما هم في ذلك إذا بهم يأتون ببغل(٧٩)، فأجلسوه عليه، وأوثقوا جميع خدامه، وأركبوا كل واحد منهم حمارًا، وأحاط ببيغو أربعة آلاف راكب وراجل، واجتازوا جيحون خلال يومين، وفي اليوم الثالث أبلغ السلطان بأن أمير التركمان اجتاز جيحون، وبعث قدرخان رسالة قال فيها: إنك حصلت على صيد كبير، ويجب أن لا يرى أبدًا وجهًا مضيئاً من الأرض، فما دام في الوثاق، فسوف يطيعك التركمان، ثم جاء السلطان إلى غزنه، فبعث إليه رسالة قال فيها: أنت آمن على نفسك، فالكبار لهم منزلة عالية، والآن أرسل في طلب أهل دارك وأولادك وكل شخص يقرب منك، فعلم بيغو أن لا خلاص له، فوافق على أن يأتوا بنسائه وأولاده، وسكت السلاجقه، وبعد شهر أرسله السلطان إلى الهند، وحبسه في قلعة، وعين لنسائه وأولاده نفقات تليق بالكبار، وقال: احملوا إليه كل من يريد، ولكن يجب أن يكون محبوسًا، وبقي في السجن سبع سنوات، وكان يبعث مع كل من يجده الرسائل إلى أبنائه الذين كانوا قد بقوا هناك قائلًا: إنني أعلم أن لا

خلاص لي من هذا السجن، ولكن عليكم أن (ص٣٦) لا تكفوا أيديكم عن مملكة السلطان محمود، فهذا الملك سوف يدرككم على أى حال، فالسلطان محمود، قبض عليه دون ذنب، ولم يدرك عاقبة ذلك، وعندما انقضت سنة على بيغو وهو فى سجنه، استطاع غلام (٨٠) من مواليه مع جماعة من التركمان أن يتسللوا إلى القلعة بالحيلة مصطحبين معهم ثلاثة خيول، فخطفوه من القلعة، وهربوا وعندما انطلقوا ضلوا الطريق حتى بلغوا واديًا لا طريق فيه، ولم يجدوا الماء والخبز لثلاثة أيام، وسقطوا من شدة العطش والجوع، إلى أن عثر الناس عليهم، وأمسكوا بهم، وقتلوهم، وأما بيغو فقد هلك هو وابنه، وخرج بعد السلطان أبناؤه الآخرون على أولاد السلطان والله أعلم، وسوف نذكر قصة السلطان سلجوق بعد ذلك إن شاء الله تعالى.

فتح سومنات (٨٢) :

وفى سنة ست عشر وأربعمائة عزم السلطان محمود على الذهاب إلى سومنات، وكانت سومنات فى الهند بمثابة الكعبة فى ديار الإسلام، فقد كان الناس فى الهند والسند وجميع الكفار يتوجهون إليها فهي مقصد حج الكفار فيخضعون لطقوس معينة حيث يقدمون النذور والقرابين، وقد نوي السلطان أن يهدم ذلك المعبد الكبير، فانطلق بكل عدته حتى وصل مولتان(٨٢) وأقام فيها شهرًا حتى تهيأت له الأمور، فبعث مناديًا ينادي بالرجوع لكل من لا ينوى الذهاب، ثم توجه السلطان نحو سومنات، واستولي على الكثير من الولايات وهو فى طريقه إليها، وكان يتفرع من مولتان طريقان: الأول، إلى مدينة نهر واله(٨٣)، وهو عامر ومسكون، والثاني، طريق مدينة هوروزه(٨٤)، ويتجه نحو الجانب الآخر من أرض العرب، وقد ذهب الأمير محمود إلى مدينة نهر واله، وجاء إلى هوروزه، وسيطر علي هاتين المدينتين الكبيرتين، وعندما وصل إلى

سومنات وجدها ولاية كبيرة وواسعة ملأى بالنعم والمعابد الكثيرة، ففر ملك سومنات، وقاتل أهاليها لبضعة أيام، واستبسل السلطان حتى سيطر عليها واعمل فيها القتل، وهدم حوإلى ستة آلاف معبد، وكان فيها معبد أساسه من النحاس، فيما بنيت جدرانه وأعمدته كلها من الذهب، وقد بني بحيث يكون مظلمًا وكان هناك صنم صنعوه من حجر وغطوه بسبع ستائر (ص٣٧) ووضعوا هذا الصنم المرصع والستائر المرصعة والشموع والمشاعل والعود والعنبر، والمسك والزعفران، وكان يسجد له كل ملك يقبل إليه، وكانت هناك عين ماء كبيرة حول هذا البيت يقال إنها تنبع من الجنة، ومن العجيب أن المصابين بالشلل، كانوا يتعافون عندما يجلسون فيها فقد أودع الله تعالى هذه الخاصية فيها، ففتن بها المغترون، فكان يجلس حول ذلك البيت المطلي[٨٥] حوإلى ستين ألفًا وكانت كل فضة يقدمونها لطلائه كانت تقدم فى سبيل ذلك الصنم، وقد أمر السلطان بهدم هذا البيت، وحمل كل ما كان فيه من الذهب إلى الخزانة؛ وأمر بتحطيم ذلك الصنم، ورموا بتلك الصخرة إلى الخارج، ... وركب الذين كانوا يقيمون فى ذلك البيت، ومايقرب من عشرة آلاف شخص، وألقى السلطان فى ذلك اليوم سجادة بدلًا من ذلك الصنم وصلي، وشكر الله تعالى، وأمر ببناء مسجد مكان موضع حج الكفار؛ وأسلم أهالى تلك المدينة، وعاد الأمير إلى غزنه ودخلها، ولكنه ضل الطريق لعشرين يومًا فى واد، وقتل ما يقرب من ثلاثين ألف رجل حتى وصلوا إلى غزنه، وكان فى ذلك الطريق ثعبان بطول ٣٥ ذراعًا، وقد قتله السلطان، وانتزع جلده، وحمله إلى غزنه، وبقي هذا الجلد معلقًا أعلى القصر خمسين سنة، والله أعلم بالصواب.

حديث عزل[٨٦] الوزراء وغيرهم :

كان أبو العباس الاسفرائينى[٨٧] وزير الأمير محمود منذ أن ولي الأمير محمود إمارة بلخ، وقد كان من الوزراء القدماء، وكان يعمل فى ديوان آل سامان،

وقد ربّاه السلطان، وكان وزيره لما يقرب من ثلاث عشرة سنة، وقد كان السلطان رجلًا دقيقًا فلم يكن يفرط فى مصالح الملك قيد أنملة، وكان يبعث فيهم العيون والجواسيس دائمًا من الرعية، والعاملين فى البلاط، وناقلي الأخبار، وكان يحصى على الناس أنفاسهم، وكان يحاط علمًا بأحوال جميع الناس، وقد عظم أمر أبى العباس ولم يكن السلطان بقادر على تحمله، وفى ذات يوم غضب السلطان بسبب الغلام التركى الذى كان الوزير قد اشتراه، وكان قد جيء بذلك الغلام إلى السلطان، ذلك أن الوزير كان قد اشتراه فغضب السلطان ولكنه لم يكن يظهر ذلك، وكان الوزير يدرك غضب الملك، فينزعج من ذلك، حتى تحدث معه ذات يوم فى البلاط، وجاء الوزير إلى البيت (ص٣٨) وجلس محزونًا، ولم يذهب إلى الديوان فى اليوم التالى، وعندما سأل السلطان عنه قيل إنه فى البيت، وفى اليوم التالى قال السلطان إن وزيره قد عزل نفسه بنفسه فى حين أننا لم نأمر بذلك، ولكنه يجب أن يحبس فى البيت لسنة لأنه قعد، وأمر بمصادرة جميع أمواله، وبعث به إلى القلعة، ومكث فيها إلى أن توفى، وولي الوزارة أحمد بن حسن الميمندي[٨٨] وكان والد أحمد نائبًا للأمير سبكتكين، وكان رجلًا يتسم بالكفاءة، وتولى الوزارة لمدة طويلة حتى توفى، وقد كان ابنه أحمد أوحد عصره، ويتمتع بجميع الفضائل، وكان عالمًا وسخيًا وفاضلًا وقد تعلم مع السلطان محمود فى الكتّاب الكتابة والقراءة، وعندما أسندت إليه الوزارة عمل بكل إخلاص وتفان، وكانت له اليد البيضاء فيها لعشر سنوات، وقد تطاول صديقه عليه فغضب السلطان منه لأنه كان يعترض على قراراته، وكانت أول تعلاته أنه عندما ذهب إلى سمرقند قرر ألا يشتري أى غلام، وقد كان الوزير قد اشتري غلامًا من سمرقند دون علم السلطان بمبلغ ألفى دينار، وحمله معه خفية إلى غزنه، وأخفاه فى الحرم، وحيث أن السلطان قد اعتاد المراقبة، فبعث رجلًا، ورأى الغلام، وهيئ الغلام على يد ذلك الرجل، وفى ذات يوم قال للوزير: آت بذلك الغلام الذى اشتريته من سمرقند، فأنكر

الوزير، فقال السلطان: أقسم بأنك لا تمتلك هذا الغلام الذى اسمه أرامش والذى اشتريته بألفى دينار فى اليوم الفلاني من السيد الفلاني فى سمرقند، فأقسم، فبعث شخصًا من مجلس السلطان، وأخرج الغلام من البيت، فاختفى الوزير واعتذر، واعترف بأنه أساء، واستضاف السلطان فى ذلك الأسبوع، وأنفق ما يقرب من مائة ألف دينار، فعفا عنه السلطان، ولكنه أضمرها فى نفسه، فكان يأتي فى كل يوم بعذر (ص٣٩)، وكانت حجته الكبرى أن السلطان أمر أبا نصر مشكان[٨٩]، وكان أبو نصر رجلًا عالمًا فاضلًا، وكاتبًا سديدًا أمينًا من سجستان، وكان قد قرأ الحديث كثيرًا، وكان يتولى ديوان الإنشاء وله إنشاء جيد، وكان السلطان يثق به فى جميع الأمور، ولم يكن يخفى عليه أى سِرٍّ من أسرار السلطان، وكان أشهر وزراء السلطان، ويضطلع بجميع الأعمال، وقد أدى للسلطان من الخدمات بحيث أنه لم يستطع أن ينتقده قط، فقد أرسل أبا نصر هذا رسولًا إلى الوزير أحمد، وإلى التركى الذى كان غلامًا قديمًا للسلطان وكان يتولي الحجابة الكبرى وكان اسمه التونتاش[٩٠]، وتركى آخرَ كان واليًا على بعض المدن وكان أسمه أرسلان جاذب، وتركى آخر كان قائدًا يدعى بولتاتكين[٩١]، وكان هؤلاء الأمراء الثلاثة، من كبار رجالات الدولة، وكانوا كلهم يتولون النيابة عن السلطان فى مواقعهم، فقال لهم قولوا إن الرسالة معهم، وعندما وضعوها فى موضع، بعث السلطان الرسالة وقال: قولوا إن السلطان يقول: إنني قبضت على أمير التركمان هذا بناء على مصلحة، وهؤلاء التركمان لا حصر لهم، وهم جنود يعملون بدون مرتب شهري، وأنا أنوي أن أنقل الأسر التركمانية البالغ عددها خمسة آلاف من ما وراء النهر إلى خراسان وأسكن كل مجموعة منهم فى مدينة لكى أستعين بهم فى الجيش، ولا أقطع لهم الراتب والاقطاعات، وأن يكونوا فى المدن لخدمة الشراء والبيع فى قطيع من الأغنام، ومنتجاتها من السمن وغيره، والأمر يرجع إليكم، وعندما نقل أبو نصر هذه الرسالة قال التونتاش بكل وضوح أنا رجل

تركي، وأتكلم التركية، ولا أبلغ المستوى الذى يؤهلني لأن أبدي رأيي للسلطان و أعينه على ما يفعله وما لا يفعله، وقال كل وزير من الوزراء: أنا أعلم أنه لا يؤخذ برأيي فى هذا الوقت ولكن واجبي أن أؤدي بكل الإخلاص أعماله، وليس من مصلحة السلطان أن يأتي بهؤلاء التركمان إلى خراسان فهم بمثابة خلية كبيرة من الزنابير فى هذا الإقليم (ص٤٠). ومن المعروف أن جيش التركمان ضخم إلى درجة أن جميع العالم لا يقوي على مواجهته، فإن جاء هؤلاء إلى هذا الإقليم، وعاشوا مع أهل خراسان لسنتين أو ثلاث بحيث يتعلموا بعض الآراء، وتظهر لهم بعض الأحوال، ويقفوا على أسرار الملك، ويتطلبون جيشًا كبيرًا، وبسببهم تفقد خراسان، لقد قلت الصدق، والرأى رأى السلطان، فقال أرسلان جاذب: وأنا أيضًا باللهجة التركية أقول، وما يتبادر إلى ذهني أن على السلطان أن يأمر بأن يعروا هؤلاء القوم الذين سوف يأتون إلى خراسان عندما يصلون إلى حافة جيحون، ثم يملأون سراويلهم بالحصى، ويقذفون بهم فى نهر جيحون، فهم قوم لا يؤمن جانبهم أبدًا، خاصة وأن أميرهم مات محبوسًا، وقال بلكاتكين: أنا مع التونتاش، وعندما رد أبو نصر على السلطان، غضب وقال إن التونتاش وبلكاتكين يقولان الحق، فهما لا يفهمان فى إدارة الملك ورعايتة، ولكن الوزير بصورة قطعية لا يريد أن يكون لنا جنود غير نظاميين لكى يساعدونا كجيش رادع فى وقت الأزمات، ويجب علينا كحكام وضع حد لهذه التفاهات من قبل أشخاص لا يقدرون المسؤولية فى مواقعها وليعرفوا أننا أيضًا لا نسمح للمتسللين من أفراد التركمان الدخول فى إقليم خراسان الذى يعتبر جزءًا من مملكتنا، ولا تكافئ الذين يروجون هذه الأقوال على غير حقيقتها، فغضب السلطان على الوزير حتى صادر أمواله، وحبسه فى قلعة من قلاع الهند أحد عشر عامًا وعندما توفى (السلطان محمود) استدعي السلطان مسعود - (أحمد حسن الميمندي) من تلك القلعة، وولاه الوزارة مرة أخرى، وظل وزيرًا له حتى آخر عمره، وكان أبناؤه كلهم وزراء آل

السلطان محمود، ثم استوزر السلطان شخصًا اسمه حسن وكان ابن سيد شريف وهو من نيسابور، وكان قد نشأ مع أولاد السلطان محمود ومع مسعود ومحمد وكان معهم في المملكة، وكان السلطان يتولي تربيته، وقد تطبع بأخلاق السلطان فولّاه أمورًا مهمة، وبعثه في تلك السنة للحج، وبعث معه رسائل إلى الخليفة، وقد دخل مكة، وعاد عن طريق مصر والشام، وكان السلطان قد أوصاه بأن يتفقد أحوال مصر والشام، وعندما عاد وأخبر السلطان بأحوالهما حرض السلطان على أن يضم مصر والشام إلى ملكه، وذهب السلطان في أواخر أيام عمره إلى العراق، وسوف يأتي ذكر ذلك، ثم ولاّه الوزارة، ورغم أنه ندم على وزارته فقد كان شابًا، ولم يكن يستطع حمل أمر الوزارة، ولكنه ظل فيها حتى نهاية عمره، والله أعلم بالصواب.

ذكر خروج السلطان محمود إلى العراق :

وعندما قوي أمر السلطان (ص٤١) واستتب أمّن أكثر الممالك، وبلغ ملكه من السعة بحيث كان مشرقه الصين وماجين وبلاد الترك، ومغربه بلاد فارس والعراق وكرمان، وجانبه الشمالي خوارزم، وجنوبه جميع الهند والسند وكشمير وكابل بحيث يتصل نهر كنك وجنوبه بحدود الصين وماجين. إذا ما استثنينا بغداد وعراق العرب والشام ومصر وبلاد الروم فإن جميع البلاد الأخرى كانت بيد السلطان فلم يكن يري أى شخص أعلى منه على وجه الأرض.

ثم إنه جمع الوزراء والندماء والأعيان والأركان وابنيه مسعود ومحمد والفقهاء والقضاة وأئمة الدين، ورتب لهم مجلسًا عامًا، وجلس على العرش، واتجه إلى الأركان والفقهاء من القضاة وأئمة الدين، وقال: لقد أنعم البارى سبحانه وتعالى على بكل ما يتمناه القلب وغاية همة الإنسان: فالأول هو العز

والشرف، والثاني هو الثبات على أمر الإسلام وحب الدين، وشرعه، والثالث هو الملك فهو انتظام أمور عباد الله، والرابع هو الإقدام على العدل والصدق والقسط حتى نأخذ من الظالم للمظلوم ما يجعلنى أظن أن لا يوجد مظلوم فى الممالك والخامس هم الأبناء الصالحون القائمون الذين يخلد بهم اسمي من بعدي والسادس هو المال والنعمة والخزانة التى لم يجمع مثلها أحد من الملوك منذ عهد آدم، والسابع هو المواظبة على الفرائض وأداء الزكاة والصدقات، وإرضاء الإمام الأعظم الذى هو خليفة رسول الله، وأنا أطلب من الله تعالى أن ينعم على بهذين الشيئين حتى إذا رحلت عن هذه الدنيا، تحققت لي تلك الأمنيات، عند رجوع جميع المخلوقات إلى رب العالمين، وآمل أن يكرمني أيضًا بسعادة الآخرة، كما منحني السلطة فى هذه الدنيا، وهي الشهادة، وأداء فريضة الحق، وعلى هذه النية قطعت جميع الأعناق التى كانت تتنازع على ملك ايران وتتخاصم عليه، فاليوم يوم إدارة شؤون المملكة ونصرة الحق، ومثل الملك كمثل بستان مزين بأنواع الثمار والفواكه، وقد بلغ عمري ما بين الستين والسبعين، ولي ابنان، كلاهما مؤهل للعرش، وسوف أولي أحدهما أمر الممالك ليعمل تحت إشرافه الأمراء والشرطة والوزراء والعمال، ويحافظوا على البلاد واصطحب معي الابن الآخر، وأبدأ أولًا بالعراق ومملكة الري[٩٢] والجبال[٩٣] التى فقدناها منذ ٣٠ عامًا، فالعراقيون يعانون المشقة، والديالمة[٩٤] يعانون الظلم والتعدي، وأنا أريد أن أنقذهم، ثم أتوجه إلى بغداد، لأرى وجه القادر بالله وأزوره، وأعيد للخلافة جاهها الذى فقدته بسبب تغلب هذه العصابة (ص٤٢) من الديالمة، ثم أتوجه بعد إذنه حيث أنه الإمام الأعظم إلى الكعبة، وأؤدي هذه الفريضة، ثم أقصد أرض المغرب والشام حيث غلب هناك أصحاب البدع والفلاسفة والزنادقة والملاحدة والقرامطة الذين اتخذوا من الشام ومصر دارًا للخلافة، وأوصدوا سوق التعاون الديني، ورفعوا لواء الكفر والضلالة، كما طهرت مملكتي من هؤلاء الملاعين، ولقد رأيتم كيف أنني كنت

أشنق كل يوم من هذه الطوائف فطهرت ديار الإسلام من شر هذه الجماعة، فلأطهرها من ذلك الجانب، ولأطح بخلفاء الملاحدة، وأضع الشام ومصر اللتين انتزعتا لفترة طويلة من يد الخلفاء العباسيين تحت تصرفهم، وكل ذلك واجب علي، فإن ألبسني الله لباس الشهادة، فسأكون قد وصلت إلى كلا المرادين، وإن عفا عني، فسوف أنشغل بطاعة الله فى السنوات القليلة التى بقيت من عمري حتى يقدر الله أمرًا كان مفعولًا، فما المصلحة التى ترونها فى هذا العزم الذى عزمته؟ فقام الجميع، وقبلوا أرض العبودية، ورفعوا أيديهم بالدعاء والثناء، وقالوا إن ما ينويه السلطان هو عين مصلحة العالم والعالمين، ولكن ما يتبادر إلى أذهاننا نحن العبيد أن خروج سيدنا من هذه الديار ليس من مصلحتنا نحن العبيد، فنحن لا نريد أن يبتعد عن رؤوسنا ظل السلطان الأعظم، وإذا ما رأى أن من المصلحة أن يسيطر على تلك الديار فليبعث العبيد الأكفاء والأمراء والنواب كى يستخلص للدولة المواضع القليلة التى بقيت، ويضمن السلطان الأمان فى المدن، والسكن. وينشغل بنشر العدل والقسط كما هي عادته كى ينال رضا الحق فى ذلك. وعندما سمع السلطان ذلك أعجبه وقال: أنتم تتكلمون من باب الإشفاق، أمّا أنا فمن الضرورى أن أقوم بذلك، وسيسألني الله، فأعينوني بهمتكم ودعائكم، ثم غادر البلاط، ونهض جميع الناس، وانشغل الناس منذ ذلك اليوم بالعمل والتدبير، وقرر أن يصطحب معه مسعودًا، ويستخلف على عرش الملك محمدًا، وقد كانت هذه المصلحة هى المراد العام من هذه النهضة لأن السلطان محمود كان قد اختار ابنه الأفضل مسعودًا[٩٥] وليًا للعهد فى أوائل حكمه، وكان مسعود رجلًا حاذقًا[٩٦] وسعيدًا ومظفرًا وفصيحًا ومتكلمًا وبطلًا وجلدًا، ولكن السلطان قد ولاه مملكة هراة وسجستان حتى حدود المشرق، وكان قد اتخذ من هراة مقرًا فقد استطاع بلطائف الحيل وحسن (ص٤٣) التدبير أن يحمل مجموع أعيان وأركان والده على موافقته مؤملًا كل واحد منهم بوعد حتى تعاطف معه الجميع، واتفقوا

على أن توكل المملكة إلى مسعود بعد محمود، وكان السلطان قد فهم هذا المعني، فقدم عليه محمدًا، وندم على توليته ولاية عهده، كما كان الحساد يوسوسون دومًا للسلطان بأن مسعودًا يريد أن يطيح به، وأن جميع الأمراء معه، وبذلك استبعد السلطان مسعودًا فحبسه ذات مرة، وبقي رهين السجن لفترة، وكان يريد أن ينتزع منه ولاية العهد، فلم ير حجة أفضل من السيطرة على العراق، فعقد فى البدء اجتماعًا دعا إليه الأمراء والأعيان والأركان، وأخذ البيعة منهم من جديد، وقسم المملكة بين ابنيه، فرشح محمدًا لبلاد الهند والسند وغزنه وكابل وزابل، وولي مسعودًا خراسان والعراق حتى حدود المغرب، وكتب فى ذلك عهدًا بخط جميع الأركان والأعيان والفقهاء والأمراء والوزراء أكد ذلك لجملة الرعايا الحاضرين، كما جاء فى هذا المجلس بابنيه، وأقسما بأغلظ الأيمان على أن لا ينكثأ، وأن لا يضر أى منهما مملكته بسوء، وأن يتوافقا، ثم ختم ذلك المحضر، وألبس الاثنين الخلع، والتشريف والقباء والخوذة الذهبية، وبارك الجميع لهما، وهيأ جميع الأمور، وأوكل كل مملكة إلى شحنة، وأسدي النصائح للجميع، وكتب ما ينبغي أن يكتب، وكتب أسماء الأشخاص الذين كان يجب أن يأخذهم معه، وأبقي الوزير حسن فى خراسان، واصطحب معه جيشًا لم ير الزمان مثله أبدًا، ورافقه اثنا عشر ألفا بعير حاملين الذهب، وثلاثمائة فيل عليها الهودج والمهود للأطفال وكذلك يرافقه حاملو المظلات وكل من يتعلق بتجميل السلطان من الملابس وكذلك اثنا عشر ألف من الكلاب العربية، ببردعة حريرية، واثنا عشر ألف حصان بسروج وبرادع مصنوعة من خيوط الذهب، وسبعمائة ألف بغل تحمل صناديق الذهب❖، وسبعة آلاف ومائتين وستين غلامًا مملوكًا كانوا يرافقونه فى هذا السفر، وكان لكل واحد من هؤلاء الغلمان حكم ونفوذ وكان لهم آلاف من الغلمان المماليك، واصطحب معه سبعين ألف جندي منهم عشرون ألف رجل هندي كانوا يخدمون السلطان، ولم يكن هناك من أحد أكثر إخلاصًا للسلطان من

الهنود، وتوجه في ذلك الصيف إلى بلخ خمسون ألف راكب وراجل من كل جنس وغيرهم، وتوقفوا فيها أربعين يومًا من أجل تسوية أمر التركمان، وقلنا إن السلطان عندما طلب المشورة من الوزير (ص٤٤) والأمراء بعث برجل إلى ما وراء النهر، واستجلب إلى جيحون أربعة آلاف أسرة من التركمان مع أربعة آلاف أمير كبير من التراكمة، وجاء بهم إلى خراسان واستغرق ذلك سبع سنوات. وبلغ الأمر حدًا بحيث ثارت خراسان كلها بسبب التراكمة، ولم يكن بمستطاع للسلطان دفعهم ومنعهم رغم أنه كان يبعث الكثير من الجيوش فكان كلما يخرجهم من مدينة يظهرون من مدينة أخرى، وتولي أرسلان جاذب ولاية خراسان ثلاث سنوات، وكان قد بعث أرسلان في أثر أولئك التراكمة، ولكنه لم يستطع دفعهم، وأقام السلطان في بلخ لأداء هذه المهمة وقال: إنني لأستحي من أن أخرج بنفسي بجيش جرار في طلب هؤلاء التركمان، فدعا أرسلان وقال: احسم أمرهم على وجه السرعة، ووضع أرسلان روحه على كفه في تلك الأيام، وبعث في ذلك اليوم سبعمائة رأس من القتلى إلى مدينة بلخ، حتى جاءوا برسالة الفتح، وفرغ السلطان، وذهب إلى طوس[٩٧]، وزار في هذه المدينة مزار الإمام علي بن موسى الرضا، وقال من لا يزوره فهو رافضي، وقد قال له ذلك فرقة الكرامية[٩٨]، وذكروها في طوس نامه عن أهل الري وجرجان[٩٩] والجبال ودامغان[١٠٠] أنهم ينتظرون السلطان الأعظم كي يظلنا بملوكيته، وينقذنا من ظلم الديالمة، ورغم أن علاقة السلطان كانت سيئة مع ابنه إلا أنه بعث بين يديه جيشًا مؤلفًا من ألفي راكب وقال: اضبط المدينة التي تصل إليها، ثم بعث مسعودًا وفي ذلك اليوم الذي كان يخرج فيه من طوس دعا محمدًا، وذهب إلى أعلى تل بحيث كان هو ومحمد يسيران معًا، وقال: بني، لقد كان كل فكري في مصلحتك، ومسعود رجل مجرب، وأنا أريد أن تحل محلي، وقد واجهته بك، وقد هبطت به كي تتفوق عليه، وقد فعلت الآن ما بوسع كل إنسان، وسوف أتركك وأصحبه معي كي يكون بعيدًا

عنك، فهو عندما يسيطر على بلدان كثيرة والعراق بلد مليء بالنعم فسوف ينشغل عنك، وعليك أن لا تتنازع معه أبدًا، فإن أدركني الموت، فتول أمر المملكة، ولا تعر أذنا صاغيةً للمفسدين، حتى لا يقع بينكما سوء ويزيدونها سوءًا أكثر، وهو لا يمكن أن يخرج في طلبك إلا إذا أراد منك البيعة ولم يشأ أن يوكل المملكة إليك، فلا تعترضه، فأنت لا تعادله فأوكل المملكة إليه، وانهض، واذهب إلى التركستان عند قدرخان، وقد أنفقت لتحقيق هذه المصلحة عدة آلاف من الدنانير، ووطدت الصداقة معه، كي يعينك، ويعقد الصلح بينكما، وأنا زوجتك ابنته (ص٤٥) لأنه ملك قوي، كي يكون عونًا لك في كل حال، وبكى كثيرًا، وضم رأس محمد، وبعثه، فاتخذ طريق خراسان، وذهب إلى مدينة جوزجانان، وتوجه السلطان من طوس إلى الري، وكان له حاجب يدعى علي قريب، وكان رجلًا كفوءًا، فأرسله بين يديه مع عشرة آلاف فارس، وكان حاكم الري قبل ذلك امرأة اسمها سيدة وكانت زوجة فخر الدولة الديلمي، وكانت وصية، وكانت تحكم الري والجبال بعد زوجها، وكانت امرأة قديرة، وكان السلطان محمود كلما قيل له إن هذه المملكة كبيرة تملكها امرأة فاقصدها، كان يجيب بأن انتزاع الملك من يد امرأة ليس فخرًا، ثم إن تلك المرأة توفيت في ذلك الوقت، وخلفها ابنها مجد الدولة بن فخر الدولة، فبعث السلطان عليًا الحاجب وأوصاه قائلًا: أمسك وتول أمر الري، ثم جاء علي، وتولي أمر مجد الدولة بحيث باغته، فتوجه مجد الدولة إلى علي مع خمسمائة فارس ومعه تحف ونزل وهدايا، فحمل علي عليه، وأسره مع رجاله الخمسمائة، وبعثه إلى السلطان، وسلم أهل الري القلعة بإرادتهم، ودخل السلطان الري بعد اثني عشر يومًا، وأخذ الأموال، وعين الضرائب، وبعث مجدًا إلى غزنه، ومكث هو نفسه في الري بضعة أيام، وكان متوعكًا وازداد توعكه، كان الأمير مسعود أمامه، وكان قد أمسك بزمام الأمور في طارم وجرجان ثم انطلق وسيطر على أصفهان أيضًا، وتوجه إلى بغداد، فخشيه

جميع ملوك العراق، وكان يرسل كل يوم رسالة فتح إلى الأب، فخشيه خليفة بغداد القادر بالله هو الآخر، وسيطر عليه الخوف الشديد من مجئ السلطان محمود، فبعث كتابًا ورسولًا، وقال: من الأفضل لك أن تبقى فى مملكتك، واكتف بأن تحافظ على أطرافها، فإقامة العدل أوجب من الحج، وإن كفك الظلم عن المظلوم أفضل لك من ألف حجة تحجها ماشيًا، أو أن تقتل ألف كافر، فالمصلحة أن تعود، وتذهب إلى غزنه فأنت متوعك فى صحتك، وليس من مصلحتك هذا التردد، فامتثل السلطان لأوامر الخليفة، وخلف السلطان محمد فى خراسان، وأوصى الجميع قائلًا: لقد كنت أنوى أن أفعل ذلك كله فلا تفعله، وانطلق إلى بغداد، وزر الخليفة، وسر أمام جواده، واحفظ حرمته كما تحفظ حرمة النبي، فهو خليفته، ثم اذهب بعد ذلك إن أذن لك، إلى بلاد المغرب والشام، (ص٤٦) وطهر العالم من رجسهم، فإذا حل بى قضاء الله، فلا تقصد أخاك بسوء أبدًا، وحافظ عليه بدلًا مني، كى يسيطر على المملكة التى وليته عليها، ويكفيك الملك الذى انعمت به عليك، فهذا الجانب من العراق أفضل من غزنه، ثم أفضى له ببعض الوصايا، وابعثه إلى أصفهان[١٠١]، وعاد السلطان، وجاء مرة أخرى إلى نيسابور، وكان مرضه يزداد وطأة عليه، فقد بلغ من العمر السبعين، وحكم خمسين سنة، وها هو ذا أجله قد حل، ففسد مزاجه، ولم يكن يستسيغ الماء والخبز (الطعام)، وأصبح قليل الاحتمال، وسئ الطبع، كثير الخصام مع الناس[١٠٢]، بحيث أن أيا من الملوك والسلاطين والأمراء لم يكن يستطع التحدث معه، ودائم التعلل والانتقاد فهو يذل الجميع حتى ولو كان بينهم سلاطين الصين فيئس الأمراء والوزراء والملوك منه وعانوا الأمرين، وكان هناك غلام تركى يدعي اياز كان يحبه، وكان مريضًا هو الأخر، وقيل إنه كان يتظاهر بالمرض متدللًا على السلطان الذى كان يتحمل غنجه ودلاله، وكان قد أمر بأن يحمل هودجه قبل هودج السلطان، وكان يأمر أنى ذهب بأن يحمل هودجه لمسافة فرسخين قبله، وكان يعانى من مشقة ذلك دائمًا

مائة كاتب، ومائتا عامل بريد بسبب الأبيات والقصائد والرسل التي كانت تقال ويرسلها أحدهم إلى الآخر، وقد كان ذلك بلاء عظيمًا، وفي حالة مرض إياز وحالة مرض السلطان. فذات يوم جلس السلطان وإذا بنديم اياز يأتي برسالة ويقول: لقد وصل إياز اليوم إلى القرية الفلانية وكان مرتاحًا، ولم يصب بالحمى، ودخل الحمام، واستحم، وتناول بأمر الطبيب بضع ملاعق من الحساء، وخسر دورًا من الشطرنج، ونام مبكرًا بتوصية من الطبيب، ثم التفت إلى الجدار، وتأوه، فقال السلطان اضربوا من كتب الرسالة ومن أملاها خمسمائة عصا، وقال: لماذا لم تكتب سبب تأوهه؟ وقد كان ذلك جانبًا من حسده[١٠٣] كي تعلم مدي ابتلاء الناس به، وعاد وهو على تلك الحالة إلى مدينة غزنه، واشتد مرضه، ويئس من نفسه، وأدلي ببعض الوصايا، وأمر ذات يوم بأن يجمع ما انتزعه من النفائس واللالئ والدر والياقوت والزبرجد من الملوك خلال خمسين سنة، ووضعوها في أربع مقصورات، وأمسك بعقود اللؤلؤ باهظة الأثمان، ولوح بها للناس وقال: ما جدوى (ص٤٧) هذا الذي جمعته؟ وسوف أتركه كله صفر اليدين، وقد كان قصده أن يرى الجيش والرعية تلك الخزانة كي يعلموا كم تحويه، ويتملكوه علهم لا يرتكبون خيانة بشأنها كي تبقي لأولاده، وكانت تحوي أموالًا لم يملكها أي ملك، وتم ضبط كل هذه الأموال، وختمها، وأرسلها إلى قلعة غزنه، وبعدها لم يستطع أن يقيم حفلًا، وما كان بوسع الناس أن يشاهدوه، وقد عمر السلطان محمود البلاد فأجرى الزكاة والصدقات وشيد الأربطة والمدارس التي تجاوز عددها ٣٠٠٠٠ مبنى في جميع المدن، ولم ينس أن يعد لنفسه كفنا على يد نساء فضليات وغسله بماء زمزم وتوفى في مدينة غزنه في الرابع والعشرين من ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وأربعمائة وانتقل إلى الرفيق الأعلى (رحمة الله عليه، والله أعلم بالصواب).

صفة السلطان محمود وسيرته :

ورغم أننا لم نذكر سيرة أي من الملوك، إلا سيد الكائنات عليه أفضل الصلاة والسلام، والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وأما هذا الملك فقد كتبنا خلاصة عنه، ذلك لأنه راسخ القدم في الدين، واجتمعت فيه الكثير من الفوائد الدينية كي يطالع الجميع أحواله حتى يعلموا سيرته، ويسيروا على منواله وهذا شرحها: اعلم أن هذا الملك كانت له همة عالية منذ عهد الطفولة، ولم يكن ينشغل باللعب كالأطفال الآخرين، وكان في الكتّاب، منشغلًا بتحصيل العلوم، ولا يرغب في السفسطة والجدل، وكان يحب البحث والمناظرة، ويطالع دومًا الأخبار والقصص والتواريخ، وبلغ في طيب المولد وطهارة الأصل حدًا أن جماعة من الحساد شوهوا صورته عند أبيه، لاتهامه بذنب لم يرتكبه، ولكنه لم يضجر أبدًا، ولم ينزعج من أبيه، وأوثق أبوه رجله بيده، وعندما سمع ملك الهند هذا الخبر وهو أن ملك العجم حبس ابنه، بعث إلى الابن برسالة في الخفاء وقال: الآن وقد حبسك أبوك فإنه غدر بك، فإن أذنت أرسلت شخصًا لكي يخلصك من القيد، وتأتي إلى مملكتي، وأزوجك ابنتي، ومملكتي أكبر، وأجهزك بأموال وجيش أكثر من جيش أبيك، فوصفه محمود في رده بأنه كلب كافر وقال: أبي هو مولاي وسيدي، وإن قتلني فهو الحاكم، وجوابي على الرسالة التي بعثتها إن الله تعالى هو الذي ينقذني من هذا الحبس، ولسوف أجيش الجيوش، وأتوجه إليك كي أقبض عليك، وأنتزع فروة رأسك، وقد بلغ اعتقاده بالإسلام حدًا بحيث أنه كان إذا سمع في أي مكان أو قرية (ص٤٨) أن شخصًا فيه نقص في دينه ولو بمقدار حبة خردل ولو كان من مقربي الخليفة، بادر إلى شنقه، حتى أنه كان قد أزال من هذه الدنيا لهذا السبب أكثر من مائة ألف شخص من الناقصين في الدين، ولا شك في أن الله منحه مقام الأولياء بسبب هذه النية الطاهرة، والاعتقاد الخالص، فكان مستجاب الدعوة، ففي ذات يوم سار إلى الهند غازيًا، وكان جالسًا في الخيمة عند الهجير يعاني من العطش، فقال للحاضرين: أتمنى أن

أشرب شرابًا باردًا كالذى يصنعونه فى غزنه من الثلج والبرد، وإذا بالغيوم تلوح، ويهطل البرد، وملأ الفراشون وسقاه الشراب من الأوانى بحيث كانوا يشربون منها لثلاثة أيام، فقام فى الحال، وصلى ركعتين، وشكر الخالق، وشرب منه شربة مرة أخرى، وكان من جملة فراسته وإلهاماته أنه كان قد نزل ذات يوم فى صحراء، ولم تكن هناك فى ذلك اليوم أية علامة على تغير الجو، فقام فجأة، ووقف فى المصلى، ودعا الفراشين وقال: أقيموا الخيم والاصطبلات، وأحكموا الحبال، وقال ذلك ثم وقف للصلاة، فهبت على حين غرة ريح، ورعد، وبرق، اقتلعت جميع الخيام، والناس، وظل الجو على هذه الحالة حتى اليوم التالى، وأما فى الورع فقد بلغ الغاية فى ذلك حتى أن ملك الترك كان قد بعث واحدًا من أبنائه لأداة مهمة، وقال الناس أن هذا الابن بلغ مبلغًا من الجمال بحيث أن الناس تحيروا فى جمال وجهه، ومكث هذا الصبي ثلاثة أشهر فى غزنه، وكان يفد على البلاط كل يوم، ويسلم، وكان السلطان يتناقش فى المهمة التى جاء من أجلها كل يوم، حتى كاد ليحقق مراده، وبعد مدة سأل أبا نصر ذات يوم: هل تعلم شيئًا عما يقال من أن جغري تكين ابن قدر خان هو شاب نقي؟ فقال أبو نصر: أو لم ير مولانا ذلك الصبي؟، فقال: أقسم بالله تبارك وتعالى أنني لم أنظر فى وجهه، لأن لي أولادًا صغارًا، ولو أنني نظرت إلى وجه ذلك الطفل لعوقبت، ولنظر الآخرون إلى وجه ابني، وهذا ما لا ينبغي، وأما فى القوة والرجولة فقد بلغ حدًا أنه دخل ذات مرة طاحونة وهو فى سن الشباب ولوي على يده قطعة من الكرباس وأمسك بالطاحونة وأوقفها بيده وكان له عمود يبلغ وزنه ستين منًا أداره حول رأسه ستين مرة، وكان يخوض الحروب بنفسه، ويقتحم المضائق المخيفة، وعندما بلغ آخر عمره وعرى جسده، وأراه لندمائه فرأوا فيه اثنين وسبعين أثرًا من آثار سهام الكفار وحرابهم وسيوفهم.

(ص٤٩) وكان يخرج الزكاة والصدقات في أول شهر رمضان المبارك، ويبعثها إلى المستحقين في كل مدينة دون أن ينقصها حبة شعير، وكان لا بد أن يضيف إلى الزكاة بضعة آلاف من الدنانير، وبذلك كان ينفق جميع أموال الخزانة لأنه أخذها من الكفار، وكان يعين الصدقات كل يوم، ويعطي كل يوم للفقراء والمستحقين ألفي درهم، وكان يعطي في كل يوم جمعة خمسين ألف دينار، وفي كل شهر رمضان مائة ألف دينار يوميًا، وكان يتصدق بعشرة آلاف دينار، وكلما خرج للزيارة كان يتصدق بعشرة آلاف دينار، وعندما جلس للإمارة في البدء، وحسب مال الزكاة فوجده يقدر بمئتي ألف دينار، وحسبوا مال الزكاة في آخر عمره فبلغت مليون وثلاثمائة ألف دينار من الذهب، وقد حدد أن يدفع كل سنة مبلغ من مال الزكاة الواجب أداؤها، وكان يعطي مقدارًا من المال على سبيل الصلة والعطاء لذرية سيد الكائنات عليه أفضل الصلوات صلي الله عليه وسلم، كما يبعث من الأموال إلى المدن وقد دونت أسماؤهم في الخزانة، وكان يوصل ذلك الذهب إليهم في كل سنة الابن للابن والورثة للورثة، وكان يقول إن الصدقات والزكاة ليست واجبة على أولاد النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يخصص لكل مقعد وضرير في مملكته نفقة من بيت المال، وقد حدث في خراسان خلال حكمه قحط مرتين، وأعطى في كل مرة مائتي ألف دينار للفقراء، ولا يمكننا تحديد ما كان يقدمه كل يوم من العطايا، وكان أكثر عطائه ألف ألف درهم ومتوسطه خمسمائة ألف وأقله مئه ألف وكان يعطى الفقير مليون درهم كلما كان يتناول الشراب، وعندما يفرغ منه يعطي ضعف ذلك، على أنه كان مقلًا في الشرب، وإذا لم تكن هناك مهمة أمامه، في فصل شتاء، ولم يستطع الخروج للغزو كان يتناول الشراب ثلاثة أشهر في كل سنة، وثلاثة أيام في كل شهر، ولم يكن يتناول الشراب من يد الساقي أبدًا إلا من يد اياز، فقد كان يحب اياز بقلب نقي، وقد أقسم هو نفسه آخر عمره قائلًا: أنا لم أنظر نظرة حرام إلى اياز أبدًا، وقد بلغ به مرتبة الإمارة، بحيث كان

يحكم اثني عشر ألف فرسخ من بلاد الهند، وقد بلغ عدله وسياسته حدًا بحيث أن أحدهم حكى قائلًا: إن والى الهند رافقنا يومًا محملًا إيانا الخزينة كي نحملها من الهند إلى غزنه، واستغرق ذلك ثلاثة أشهر، وكانت النقود فى أكياس وكان بعضها من الذهب والفضة، وكان كلما وصل قرية يلقي بتلك النقود فى الدهاليز والأزقة، ومكث ثلاثة أو أربعة أيام، ولم يجرؤ أى أحد (ص٥٠) على أن يقترب من تلك النقود، وكان يحب الشعر، ويعطى الشعراء صلات كثيرة، وكان يتناقش في الشعر كل يوم، وكان له ستمائة شاعر مجيد من أساتذة الشعر، وكان قد عين لهم كلهم إقطاعات وعطايا عدا الألف ألف دينار التى كان يعطيها مقابل كل قصيدة تنشد له، وكان عنصرى أمير الشعراء[١٠٤]، وكان ينادمه، وكان جميع الشعراء يتخرجون على يديه، ولكنهم انشدوا أشعارا رديئة، وبحيث لا يوجد شعر يستحق المطالعة فى هذه الأيام، ولا يعتد بها، ولكنها كانت تتحسن آنذاك، وقد نظم الفردوسي[١٠٥] الشاهنامه له ولكنها لم تعجب السلطان لسببين: الأول لأن عنصرى عرف فن شعره فأخفاه عن السلطان، وخشى أن يكسر سوق جميع الشعراء إن هو حظى بالقربى لدى السلطان والثاني إن الفردوسي كان شيعي المذهب، وترك السنة والجماعة، ولذلك لم يقربه من نفسه، ولم يحظ الفردوسي بقربه ليعلم أن سوء الاعتقاد هو هتك للحرمة فى الدنيا و الآخرة، رغم أننا نستطيع القول إنه كان يجمع جملة العلوم العقلية والنقلية، ولكن الله لم ينعم عليه بالشهرة بسبب ميله إلى سوء الاعتقاد، وكان من جملة شعراء السلطان الأخرين الشاعر العلوى الضرير، وكان يقول شعرًا حسنًا، وكان إلى جانبه شعراء آخرون، وقد أنشد للسلطان قصيدة، فمنحه السلطان حمل فيل من الذهب الأحمر، وكان السلطان يهتم بالمنجمين، ويعطي لهم العطايا والجرايات من الديوان، وكانوا يعدون له التقاويم، وكان لا يأخذ بها بطبيعة الحال، فلم يكن يؤمن بعلم النجوم، وكان يقول: الحكم حكم الله، وبلغ من الإنصاف والعدل حدًا بحيث يروى أن امرأة

عجوز جاءت ذات يوم واشتكت من حاكم خوارزم وقالت: لقد اغتصب منى قطعة أرض، فبعث رجلًا، وأتى حاكم خوارزم، واتضح بعد ذلك أنه كان قد قيم الأرض بأبخس الأثمان وليس برضا المرأة، فأمر بأن يضرب حاكم خوارزم خمسمائة عصا فى السوق، وبلغ فى صدق اللهجة حدًا بحيث كان هناك شاعر فى «مرو» يدعى عمارة، لم يكن قد خرج من مرو أبدًا ولكنه كان ينشد شعرًا جيدًا، فأنشد ذات يوم رباعيًا، وبعثه إلى الأمير محمود فى غزنه عند غلام من غلمان الأمير، وقال له: قدمه للسلطان عندما تكون معتدل المزاج، فتحين الغلام الفرصة حتى جلس فى مجلس شرابه، وكان النقاش يدور حول الرباعيات، فكان كل واحد ينشد رباعيًا، فأعطى الغلام ذلك الرباعي للسلطان، وهو كالتالى:

(ص٥١) وهبتنى البنفسجية حسنًا، بنفسجية الثوب / فتعطر المكان بأريج البنفسج.

فها هو البنفسج وها نحن نشرب الصهباء البنفسجية العطر / بذكرى همة السلطان محمود صاحب البلاط الملكى.

وقالوا: يوجد شاعر فى مرو يقال له عمارة، فأمر السلطان بكتابة حوالة إلى عامل مرو كى تدفع من خزانته للشاعر عشرة آلاف دينار، فإن توفى أعطيت لورثته، ونسى الوزير هذه الحكاية وإن لم ينس قال: نسي السلطان، فقال الغلام الذى كان قد أعطى الرباعي إن الوزير قد قال: لا أعطيك أياها حتى أسأل السلطان، وفى اليوم التالى تذكر السلطان، وأمر بإحضار الوزير، فسأله: هل أوصلت تلك الحوالة التى أعطيتها للشاعر؟، فقال: انتظرت لأنك كنت ثملًا البارحة، فأمر السلطان بأن يحملوا البغال عشرة آلاف دينار ذهب، وأرسلوا معه عددًا من الأشخاص، وسلموها إلى عمارة، وعاقب الوزير

بمصادرة خمسمائة دينار من الذهب فى تلك السنة، وقال: كى تعلم أن كلامي واحد سواء فى السكر أم فى اليقظة، وهكذا فإن فضائل هذا السلطان كثيرة، وقد كتبنا ذلك كى يعلم الجميع أن إدارة شؤون الدولة ليست لعبًا، وإن الله تعالى إنما يمنح الدولة لشخص ما لخصوصيته فى ذاته، والله أعلم بالصواب.

.... [١٠٦]: وعندما بلغ السلطان محمود النزع كان الحاجب على مستعدًا لذلك تمام الاستعداد، بحيث ألقيت مسؤولية جميع أعمال السلطان عليه، فلم يذهب إلى البيت ثلاثة أيام، وضبط أمور البلاط بشكل أعجب جميع الكبار، وكتم موت السلطان ليومين بحيث أنه ضبط جميع الجيش من أحرار وعبيد وأتراك وهنود لدرجة أنهم لم يستطيعوا حراكًا، وتولى تجهيز السلطان ودفنه، وفى تلك الليلة وقبل أن يدفن السلطان، أحضر جميع الأمراء والوزراء والأعيان الذين يتولون مسؤولية ما، وأخذ البيعة منهم على أن يحفظوا وصية السلطان هذه، وأقسم الجميع، وفى اليوم التالى دفنوا السلطان فى باغ بيروزى (بستان النصر) الذى كان السلطان يحبه، وأقاموا الحداد لثلاثة أيام حتى أهال جميع أهل غزنه التراب على رؤوسهم، وبعد ثلاثة أيام جمع كل الأركان وقال: يجب حفظ الوصية، فقد كان السلطان قد أوصى بأن يجلس على العرش من بعده محمد (ص٥٢)، وأن يكون لمسعود ملك خراسان والعراق، والسلطان مسعود بعيد عنا الآن، والسلطان محمد قريب، وقد كان السلطان محمد فى ولاية جوزجانان[١٠٧]، والمسافة من هناك إلى غزنه عشرة أيام، فيكتب علىّ الحاجب رسالة على لسان جميع أركان الدولة وأعيان السلطان بأن السلطان الأعظم أورث الملك لابنه، وأن وصيته بحق ذلك السيد الحق، وأنك اليوم وارث العرش، ونحن العبيد واقفون كى لا يحدث خلل، والمصلحة فى أنه إذا رأى رأيًا فليعجل فى النهضة، وليتمكن من العرش الموروث، وانطلقت الجمازة بهذا الأمر المهم، وذهب إلى جوزجانان ووصلوا إليها فى ستة أيام، وعندما سمع السلطان محمد بذلك اندهش وأحضر ندماءه وخواصه وتشاور معهم

وقال: يا أعواني لا تأتوا من أجلي، فأهالي غزنه يدعونني إلى أن أعجل في الجلوس على العرش مراعاة لمصلحة اليوم، وأخي رجل مظفر، وصاحب دولة، وقد عقد الجميع الآمال عليه، وهو الذي يتولى ولاية العهد، وهو الآن بعيد عن هذه المملكة، وهم يطالبونني بأن لا يُهمل الملك حتى يأتي أخي الأمير مسعود، وأنا أرى أن من المصلحة أن لا أذهب إلى غزنه وأكتب رسالة، فاحفظوا ملكي كي أبعث رسالة إلى أخي، وأبعث الرسل إليه، وأحفظ حرمته وأقول: رغم أن حكم الوصية هو في حقي، فقد أوكلت الملك إليك، وأنا الأصغر وعلى أن أقف عند عرشك، وإذا ما راعيت هذا الأدب فإن أخي رجل كريم، وسوف يحسن إليّ، وسوف لا يبخل عليّ بعرش غزنه، لينشغل هو بملك العراق، ويكون لي ملك غزنه، فلا يحدث فساد وفتنة. وكان رأيه صائبًا، وإلا أن الجماعة التي كانت قد طمعت في ملك الأمير محمود والجماعة التي كانت تخشي الأمير مسعود، وسوست إلى السلطان محمد بأن من العجز أن يتنازل عن ملك كملك زابل، وخزينة كخزينة الأمير محمود، وجيش بهذه العدة، ويحكم أمره ملك جبار مثل الأمير مسعود، فهو لن يعطيك هذا الملك، وإذا ما سنحت له الفرصة فسوف لا يدعك حيًا في هذا العالم، وبعد أن سمع السلطان محمد ذلك قال: استظهروا بأنني جئت الآن، ثم نهض بعد عشرة أيام بالجيش والعدة والعدد، وبعث جواب الرسالة، وجاء إلى غزنه، وكان أمراء وأركان (ص٥٣) الدولة واقفين، وجلس على العرش بكل نشاط، وكان حسن(١٠٨) الوزير يؤيده، واستعد وتأهب، وكان يخشى الأمير مسعود كثيرًا عندما كان عاملًا على نيسابور، وأنفق الأمير مسعود مالًا من مدينة نيسابور، فأبلغ حسن الوزير السلطان محمود الذي استنكر هذا الأمر واسترد حسن ذلك المال من نواب مسعود، وأدلى السلطان بحديث في حقه، فقال حسنك: عندما تصبح سلطانًا فأمر بأن يصلبوني على المشنقة فأسرّها السلطان في نفسه، ولم يكن حسنك يريد أن يطيع محمد مسعودًا، ووسوس جماعة للسلطان محمد

الذى لم يجهر بالشراب أبدًا حتى دفعوه إلى تناول الشراب فأدمن عليه، وكان رجلًا محبًا للمجون سكيرًا، وكانت همته عالية، فأنفق ما فى الخزائن فى أيام قلائل، ورغم أنه أحسن إلى الناس إلا أنهم اتفقوا مع مسعود وكانوا يكتبون الرسائل خفية وقالوا له إنك الأحق بخلافة أبيك، وكان الأمير مسعود رجلًا عاقلًا، فكان يبعث الرسل ويكتب الرسائل بخطه، وكان يكتب بخط جميل للغاية، وقال: أنت أخي وقرة عينى ولأنى لا أبخل عليك بشيء، وعليك أن تقرأ الخطبة وتضرب النقود باسمي، وتكون أنت على عرش غزنه، وقد أنعمت عليك بملك جميع البلاد، مثلما فعل السلطان الراحل رحمة الله عليه، فاحفظ المملكة، فأنا هنا منشغل بالأقاليم السبعة، ويتحقق على يدى فتح جديد كل يوم فى دولة الله تعالى، وعليك الآن أن تبعث من الميراث الحلال لخزانة الأب ثلاثمائة خروار (كل خروار يعادل ٣٠٠ من من الذهب)، وكن فارغ البال، فإن كان الأمر غير ذلك وسعى المغرضون والمفسدون لتحقيق نوايا أصحاب الأغراض فإنك تكون بذلك قد عرضت دمك وعرضك للفناء، والسلام، وعندما جاؤوا بالرسالة طلب السلطان محمد أركان الدولة، وعرض عليهم المشكلة، فمن كان عاقلًا منهم قال: ما يقوله مسعود هو عين العقل، ومن خاف منهم قال: أنت تمتلك جيشًا تستطيع به أن تضبط جميع العالم، فقم واستعد ولا تدع الأرض مستقرة، فاختلى حسن بالسلطان وقال لدينا عشرون ألف مقاتل مستعدون للحرب، فضعهم تحت تصرفى كى انطلق وآتيك به موثقًا، فإن وافقت فلدي الهمة لأن أفعل ذلك، فوثق السلطان كل الثقة بعلى الحاجب، وكان على يميل إلى الأمير مسعود، فجهز الأمير محمد عشرين ألف رجل، ونوى أن يخرج إلى خراسان ويقاتل أخاه (ص٥٤)، وكان الأمير يقظًا بحيث كان قد كتب رسالة إلى المسئولين الكبار، وكان أكثرهم يفرون ويذهبون إليه، وعندما سمع الأمير مسعود أن محمد سوف لا يطيعه خرج بالجيش من أصفهان إلى بلخ، وتوجه إليه جميع الأمراء والملوك، وبقي على الحاجب عند

محمد، وكان يملي جوابًا كل يوم ويرسله إلى مسعود، وكتب رسالة إلى الأمير مسعود قائلًا: إنني أخرجت الأمير محمدًا بجيش كثيف ومن المصلحة أن نهجم عليه ونوقفه عند حده كى يصل السلطان باليمن والبركة، فأجاب: احملوا على أخي واحبسوه فى موضع يكون فيه آمنًا، وأوثقوه بوثاق ذهبي، وهيئوا له أسباب اللهو والترف والطرب والغلمان والجوارى ولكن لا يتأتى منه أن يفعل شيئًا، ثم أقبلوا عليّ كلكم، وآتوا لي بالجيش والأسلحة من الخزانة، وسوف أجئ إلى بلخ فى هذا الصيف، فدبر على الحاجب الأمر، وباغت محمدًا، وكان محمد ثملًا، .وبكى كثيرًا، وعزم على أن يقتل نفسه، وأخرج خنجرًا كى يطعن به نفسه، فلم يدعوه، وأحضروا بغلًا، وأجلسوه عليه، وبعثوا معه خمسمائة رجل، وذهبوا به إلى البيت، وهيأوا جميع وسائل اللهو، وفى ذلك الأسبوع، توجه على الحاجب مع العسكر إلى بلخ، وكانت حياة الأمير محمد على هذا المنوال فى هذه المرة حتى حدثت تلك الوقائع الأخرى التى سيأتي ذكرها، والله أعلم بالصواب.

لقد كنت أنوي أن أكتفى بالنصوص التى نقلها محمد على شبانكاره أى فى مجمع الأنساب من المجلدات المفقودة من تاريخ البيهقى، بنهاية حكم محمود ومحمد ذلك لأن ما ذكره فى عهد حكم مسعود بن محمود نقله من القسم الذى وصل الينا اليوم من تاريخ البيهقى، ولكن بعضًا من الراغبين فى مثل هذا الحديث دفعوني إلى أن أنقل الفصل المخصص للغزنويين بأكمله من كتاب مجمع الأنساب كى ينشر ذلك الفصل من البداية حتى النهاية فى مكان ما ويكون فى متناول الباحثين، وسوف أنقل الآن تتمته من الآن فصاعدًا.

ذكر السلطان شهاب الدولة مسعود بن السلطان محمود:

عندما بلغ الخبر السلطان مسعود، بأنهم ألقوا القبض على محمد، أرسل واحدًا من غلمانه - كان يثق فيه - فأقبل، وتسلم السلطان محمدًا، وحمله إلى قلعة غزنه، وأبقوه مع الندماء والمطربين، وجلس السلطان مسعود على العرش فى خراسان لفترة، وأكرم جميع أعيان دولة الأب وخلع عليهم الخلع، وضبط جميع الأمور، وبعث الشحنة والعمال إلى كل الولايات، وثبت العراق بالناس والجيش، وبعث تاش فراش الذى كان من الأمراء الأتراك (ص٥٥) لحكم أصفهان، وضبط جميع مدن خراسان وبست وغزنه وهراة وسجستان، وأقبل جميع كبار رجال الدولة على بلاطه، وعندما استقرت الأمور، أخذ يتدبر أمر نواب أبيه، فكان يعتقلهم الواحد بعد الآخر، ويحبسهم أو يقتلهم، ويقول: الرأى الصواب أن نقضي على هذه الذئاب العجوزة كى لا تثار الاضطرابات والفتن، فأمر أولًا بأن يعدم حسنك الذى كان قد قبض عليه قبل السلطان محمد، وحبسه فى قلعة، وبعث إليه رسالة قائلًا: إنك أردت هذه الدولة من تلقاء نفسك، ثم سلب جميع أمواله وضياعه، وأمر ثانيًا بأن يقبض على الحاجب علي، ويبعثه إلى القلعة ويحبس فيها، فمات محبوسًا، وقبض ثالثًا على عمه الأمير يوسف وكان رجلًا بريئًا ومشفقًا ويؤيد الأمير محمدًا، ومات هو أيضًا فى الحبس، واعتقل رابعًا الحاجب غازي التركى وكان من الغلمان المخلصين للسلطان، وكان قد بعثه بدلًا من أرسلان جاذب وولاه جميع خراسان، وكان تركيا يعدل القائد رستم زال[١٠٩] فى البطولة، وكان مسعود يخشاه، فحبسه هو أيضًا، وتولى الأمور بعد هؤلاء الأمراء والإداريين فئة من الشباب الحاقدين، فكانوا يقطعون الطريق على كل شخص، وكان هناك كاتب اسمه (أبو سهل الزوزنى)، دخل ذات يوم على السلطان وهو يضمر الشر فى نفسه، ويعد التقارير لتنفيذها، وكان أبو نصر رجلًا عجوزًا، وقد عمل مع السلطان (محمود) خمسين سنة، وكان نائبه العام ولم يكن أحد قد عاب عليه شيئًا أبدًا لأمانته وورعه، وقد دعاه السلطان مسعود[١١٠] إلى الخلوة عدة مرات، وكان كثيرًا ما

يطلب منه المشورة، وقال: أن رأيك وتدبيرك مباركان، وأنت تذكار أبيك، وأنا أثق بك، فعليك أن لا تبخل علينا بالنصيحة، فقال أبو نصر: أيها الملك، لقد تربيت تحت يد أبيك، ولا يمكن أن يظهر شخص مثل أبيك إلا بعد مرور مائة قرن، لخبرته وعدالته، وقد أمضى فى الحكم ستين سنة، وهؤلاء العبيد المسنون الذين أذللتهم اليوم، عانوا الكثير حتى اعتبروا أركانًا للدولة، وكل منهم احتل منزلة تضاهي منزلة قيصر الروم أو سلطان الصين وعليك أن تحافظ عليهم، فهم زينة العرش، فاعتبرهم الأصل، واعتبر الشباب فرعًا، ورتبهم حتى يصلوا إلى الأصل، فقال السلطان: استمر فى نفس العمل الذى كنت مكلفًا به فى حياة أبى، وعليك الآن أن ترتب عمل الوزراء، فقال أبو نصر: ما عسانى أن أقول، وعلى الرغم من أننى التزم بشرط تقديم النصائح (ص٥٦)، فعندما أدير ظهرى لسيدى ومولاى، فإن الشباب غير المجربين يتقدمون ليفسدوا عملى؛ وقد عزل أبوك خواجه أحمد حسن، وكان يتشاور فى أمر الوزارة لسنة كاملة حتى وقع اختياره على حسنك، وندم أخيرًا لعزل خواجه أحمد وتعيين حسنك، وقد ذكرت عددًا من الأسماء الذين كان لهم دور بارز فى الدولة منهم: أبو القاسم كثير[١١١] الذى كان يتولى ديوان عرض الجند، وكان رجلًا كبيرًا ومهيبًا، وكان قد خدم ثلاثين سنة، ولم تكن مسؤولية العرض بأقل من الوزارة فأجاب بأن ديوان العرض لا بد أن يدوم، وهو أحق بهذا العمل من الوزارة، وقد ذكرت اسم أبى الحسن العقيلى[١١٢]، قال هو رجل فصيح بليغ ولا يرغب عنا وقد أوكلت إليه أمر رسائلى، وهو يعلم هذا الفن جيدًا، فإن أدليت له بحديث أعاده فى الجملة من أوله إلى أخره لفظًا بلفظ، وأدى جوابه دون زيادة أو نقصان، ويكفيه هذا العمل، وذكرت اسم أبى الحسن سيارى[١١٣]، فقال: هو رجل فاضل وكفء وخبير ولكنى لا أحب ما تحت حنكه[١١٤] وعمامته، وذكرت اسم شخص أخر، فقال: إنه مزين بكل آداب الوزارة، ولكن لحيته ليست طويلة، وعلى الوزير أن تكون لحيته طويلة، والآن اعلم إلى أى حد كان أبوك ينظر فى

الناس وفى كل أمر، ثم التفت السلطان إلى فجأة قائلًا: يا أبا نصر، إن هذا الأمر يليق بك، فأنت تتمتع بكل (آداب) الوزارة، وفى هذه اللحظة أحسست وكأن طستًا من النار نزل برأسي، فقمت، وسجدت، وقلت: يا أيها السلطان، اتق الله من أن تقول ذلك مرة أخرى، فضحك السلطان، ومازحنى، وقال: أنت تفيدنى، وسوف لا أقدم على شئ إلا بمشورتك، وفى ذات يوم خلع عليّ خلعة وألف دينار ذهب، وقال لى: يا أبا نصر أبرئ ذمتي، لقد أذنبت بشأنك(١١٥)، فقد تحدث الناس بالكثير من الأحاديث عنك لديّ، رغم أننى لم أوافقهم على كلامهم، وأجبتهم بفتور، فقال أبو نصر: أنا أعلم من هم؟، ولقد أبلغونى أن شخصًا كان قد قال إن من الممكن أخذ ثلاثمائة ألف دينار من أبى نصر (ص٥٧)، والآن فإننى عظيم الحظوة لدى السلطان ولكن ليس كما يقول الناس، ولو أنني كنت قد أخذت لنفسي الأموال فى عهد السلطان الراحل لكنت اليوم فى درجة قارون، ولأروِ هنا حكاية فى حضور مولاى كى يعلم سيرة أبيه الطيبة، وعبوديتى وطاعتى، كان لارسلان جاذب غلام يدعى اسفتكين(١١٦)، فتوفى وكان ارسلان رجلًا حازمًا ففكر فى أن لهذا التركى مالًا كثيرًا، وكله لى، وكلانا ملك للسلطان محمود، ومن المصلحة أن نستطلع رأى السلطان، فكتب رسالة لى وقال إن اسفتكين توفى، وقد ترك شيئًا من المال يقرب من ثلاثمائة ألف دينار نقدًا، وأقمشة وضياعًا بنفس المقدار، وغنمًا ومواشي بنفس المقدار أيضًا، وعشرين فتاة، وآمل أن تعرض هذه الصورة بشكل أجمل فى حضرة السلطان الأعظم، وكان قد بعث رسولًا بهذه المهمة، رجلًا سديدًا، وصرة من مائة ألف دينار من الذهب وأمر بمائتي خروف، وثلاثة رؤوس من الخيول والجياد الأصيلة، وكتب فى الرسالة أن اقبل ذلك، ولا تعتبرها رشوة، فبيني وبينك رباط الصداقة، واحمل ذلك على الضيافة، وعندما قرأت الرسالة سمعت حديث الغنم والذهب، فضحكت وقلت: لا يصدقن السلطان هذه الأقاويل وهي آننى أخذ الرشوة من أرسلان، فقد

وضعت بعد ذلك الذهب وذلك الحصان بيد الرسول، ومرت سبعة أيام دون أن يتاح لي المجال لأن أدلى بهذا الحديث، وفى اليوم الثامن دعانى السلطان فى وقت القيلوله، وتناولنا معًا الفاكهة، وعندما نهض الناس، أمرني بأن أجلس، ثم قال تحدث معي، فأنا آنس بحديثك، وحدثني بحكايات وأخبار الملوك الماضين وقصص الأنبياء عليهم السلام، والأشياء التى تناسب الملوك، فآنست بحديثه ثم قلت: لدى حكاية، فقال حدثنى، فحكيت له بعد ذلك قصة أرسلان، ثم طأطأ رأسه لمدة وقال: أرسلان رجل تركى وهذا المال الذى كتبه للحفاظ عليه، وما جدوي المال الذى أنتزعه من يتيم، وإلى أين آخذه؟، فاكتب بأن يشترى من ذلك المال غلامًا، وإن كان اسفتكين غلامًا كفوءً فلا يحتاج إلى شراء غلام آخر، وزوج تلك الجارية من ذلك الغلام، وذلك المال من حقك، وأمر ذلك الغلام بنفس عمل اسفتكين، فإنك بذلك تكون قد راعيت الأدب، وإعلامنا بهذا المعني يستوجب ثقتي بك، والسلام، فقمت، وأديت فروض (ص٥٨) الاحترام له، ثم خرجت، وفى اليوم التالى دعوت ذلك الرسول، وشرحت الأمر وجاء ذلك الرسول بالذهب، ووضعه أمامي، وقلت: لا يمكن أن آخذ هذا فنحن لم نتفق على الذهب بل على الحصان، بشرط أن يذهبوا بهذا الحصان إلى السوق، حتى أرسل شخصًا، واشتريه منك بكامل الثمن، وحينئذ تعطيني الذهب، ولم أوافق رغم محاولات ذلك الرجل، فأخذت حصانًا بذلك الراتب، وكانت رجل ذلك الحصان معوجه دون أن أنتبه لذلك، وما كنت أدرك أن هذا الحديث لا يعلمه إلا سوانا وأبا الفضل البيهقى الذى كان تلميذي، وعندما انتهى هذا الحديث، وأتممت ذلك الحكم، وبعثت الرسول، اختليت إلى نفسى ذات يوم، وكان السلطان سعيدًا، فقال لى: يا أبا نصر، لماذا اشتريت حصانًا أعوج الرجل رغم كل حذاقتك؟ وعندما سمعت هذا الكلام، انفعلت كثيرًا حتى لم استطع أن أنبس ببنت شفة، فضحك السلطان، وقال: يا أبا نصر أنا أعلم أنك تقصد رضاى فى جميع الأعمال، وإن لم تأخذ الذهب والأغنام،

فقد كان عليك أن تقبل الخيول الثلاثة ومن مالي الحلال، فدعوت له وأثنيت عليه وقلت: أطال الله عمر السلطان ليس لنا نحن العبيد عقلًا وقلبًا قويين إن لم نعرف ما يسر السلطان في قلبه لقد خشيت أن لا يروق ذلك للملك، ولكنني حينما أمرت، ندمت ولا بد من أخذ الذهب والشاه والحصان، فضحك السلطان كثيرًا وقال: اشفاقك في حقنا كثير، فأبرئ ذمتي، ولقد قلت ذلك كي يعلم مولاي كيف قضينا الحياة مع ذلك السلطان فقد كان يعلم ما بأنفسنا وضمائرنا، والآن أزعجك، وشرط المشورة في الوزارة أن أحمد حسن حي وهو محبوس في القلعة فأخرجه وولـه الوزارة فالوزارة قباء لا يليق إلا به، فأعجب السلطان مسعود بذلك، وقال: عليك يا أبا نصر أن تذكرني حينما يعينني الوالد أن أستوزره، والآن اذهب من فورك إلى الديوان، وابعث كتابًا إلى حارس القلعة، واختم بخاتمي هذا على الشمع، وهذا هو العلامة، وعليك أن تبعث رجلًا جلدًا مع سرية من الفرسان الشجعان للقيام بهذه المهمة كي يخرجوه، وسأكتب أنا أيضًا تأييدًا بخطي، كي يثق بخطي إن لم يؤيد التوقيع والخاتم، فانطلق أبو نصر وقام بتلك الإجراءات، ووجه أولئك الرجال، وكانت قلعته في الهند، وعندما (ص٥٩) ذهب الرسل رفض الكوتوال الرسالة ولم يطمئن إلى الشمع، وعندما رأى (خط) السلطان وضعه على عينيه، وأعلموا الخواجه، فنهض، وصلى، وشكر الله، وقد مضت عليه في السجن ثلاث عشرة سنة دون أن يجزع، وكان حاكم الهند تركيًا من الغلمان المخلصين للسلطان محمود، وكان يحكم جميع بلاد الهند، وكان يدعي أريارق، وكان حاكمًا لجميع الهند، وقد حكم جميع هذه البلاد لسبع سنين، وجمع مالًا كثيرًا، وكان يخشى السلطان محمود، فقال له الخواجه: انهض، وتعال معي كي نرى وجه السلطان، فسوف يستوزرني، وسوف ارفع من شأنك، وأرسلك إلى الهند بالتشريف والإكرام وقد أخذ ذلك التركي مالًا لا حصر له، وتحفًا لا حد لها ومرافقين لاحد لهم، وجاء الوزير إلى مدينة هراة، وأمر السلطان في اليوم

الأول الذى وصل فيه الخواجه أحمد[١١٧] بأن يستقبله جميع أمراء الدولة، وأبو نصر الذى كان من محبى الخواجه، وذهب جميع الكبار، وتواضع الخواجه للجميع، وعندما وصل أبو نصر ترجل عن الحصان، وسأله بحرارة، ومازحه، وقال: لقد نسيتنى يا أبا نصر، فقال أبو نصر: بحياتك ورأسك يا سيدى لم أفعل ذلك، فقال الخواجه: لقد أعدت لى بعد الله تعالى روحى، وقد بلغتنى البطولات التى قمت بها فى حقى، وما تصديت له من فتن أهل الفساد، وأنا أتوقع ذلك، فجاءوا إلى المدينة على ذلك التمكين، وقدموا الأضاحي فى كل مكان، حتى دخل البلاط، وأدى الاحترام، وقبل الأرض، وتقدم نحو العرش، ومد له السلطان يده ليقبلها، وأخرج الخواجه عقد لؤلؤ ساطع من كمه، ووضعه على ركن العرش، ومد رأسه بهدوء بين يدي السلطان، وقال بسكون: لقد جئتك بأريارق[١١٨] من الهند، ويجب أن لا يرى وجه الهند مرة أخرى، فتواضع له السلطان وقال: كيف كنت مع المشقة؟، فقال الخواجه: لقد كنت سعيدًا فى دولة السلطان الأعظم، واليوم فلتتجدد سعادة عمرى فى ظل السلطان حاكم العالم أيضًا ووضعوا كرسى الذهب، وجلس، وجاء أريارق أيضًا[١١٩]، وتشرف بتقبيل يده، ووضع هو أيضًا عقدًا من اللؤلؤ بثمن مضاعف، وقال السلطان للخواجه: اذهب إلى البيت، واسترح، وتعال فى الغد لنبدأ بالعمل (ص٦٠) فأمامنا أعمال مهمة، ثم قام، وعزم على الذهاب إلى البيت، وكانت معه كوكبة عظيمة. وفى ذلك اليوم حمل كل شخص سواء كان كبيرًا أو صغيرًا نثارًا وتحفة مالية إلى بيته حسب العادة حتى تجمع أربعمائة ألف درهم، وطلب أبو نصر، ليشربا فى تلك الليلة الشراب معًا، وقال: لم أتناول الشراب عندما كنت فى السجن ولا ينبغى لى ذلك، فطيب أبو نصر نفسه، وفى اليوم التالى جلس الخواجه، وجاء إلى البلاط بكل عزم، ورأى السلطان وعاد، وجاء إلى الديوان، وجلس، وصلى ركعتين، وجلس فى المصلى، وطلب ورقًا ودواةً وكتب هذه الرقعة: « ليصرف للفقراء والمساكين

شكر الله رب العالمين من الورق عشرة آلاف درهم ومن الخبز عشرة آلاف ومن اللحم خمسة آلاف ومن الكرباس عشرة آلاف ذراع[١٢٠]) وألقاها عند صاحب الدواة وقال: وزعه على المساكين والفقراء، ثم التفت بعد الصلاة والصدقة إلى الحاضرين وقال: ها هو ذا بلاطى وديوانى واسعان، ويجب أن اسمع من الغد جوابًا شافيًا على كل سؤال اطرحه على كل واحد من العمال والمتصرفين، وليحضر الأشخاص الذين خلطوا الأمور فى غيابنا وقد وصلتنى جميعها، وليكونوا حاضرين ويقظين إلى أن هذا هو ذاك السلطان الذى لا يحتمل أحدًا، فدعا له الجميع وقالوا: سوف نفعل ما فيه رضا الخواجه، وسيطر الخوف على القوم الذين كانوا قد أساؤوا إليه، وانشغل بعد ذلك بالعمل، وأقعد الأعداء كلًا فى مكانه، وامتدت وزارته حتى آخر عهد السلطان (ص ٦١) مسعود، واعتقل فى تلك الأيام القلائل منهم أريارق[١٢١]، وحبسه، وكان الأمير التونتاش[١٢٢] من الأعيان الذين ظلوا في الحكم من أمراء دولة السلطان محمود، وكان يدعى خوارزم شاه فقد كان السلطان قد ولاه خوارزم، وكان رجلًا عديم النظير، وتركيًا فاضلًا عادلًا وذا أدب وكان السلطان يعتبره أخًا له، وقد قال لأولاده عدة مرات: لكم عم مشفق للغاية وهو التونتاش[١٢٣]، ولم يتفوه السلطان فى وجهه بكلام يسئ إلى الأدب أبدًا، وكان السلطان مسعود والسلطان محمد ينهضان بين يديه ما دام أبوهما حيًا، ويجلسانه فى صدر المجلس، وعندما يكون حاضرًا فى البلاط لا يسمح لأى أحد أن يجلس فى الصدر، وكان يتشاور معه فى كل أمر مهم ومصلحة، وعندما كان فى خوارزم، كان السلطان يبعث إليه الكتب، ويعرض المصالح، وكان يعتمد عليه اعتمادًا كاملًا، فأكد أبو سهل الزورنى للسلطان أن لالتونتاش كنز قديم، وأنه ينهب خوارزم منذ ثلاثين سنة، ويجب القبض عليه، فهو الرقبة الوحيدة التى تبقت، ولكن السلطان رفض وقال: إن التونتاش قد حل محل أبى، ولم تظهر منه أية مخالفة ولم يستمع لكلامه، فبقي التونتاش شهرًا مكرهًا ورأى الأمور ليست على ما يرام فخاف

واستدعى أبا نصر مشكان وقال: يا أبا نصر لقد نشأت فى خدمة مثل ذلك الملك، وحكمت العالم، واليوم لا أرى أمور مملكة محمود تسير فى انتظام، فالتفت حفنة من الشباب حول هذا الشاب، ولا يمكننا أن نرى آيا من أتباع محمود، وأخشى أن أتعرض للفضيحة وأنا فى شيخوختى، وإذا أرادونى بسوء فلا مفر من أن أقدم الروح الحلوة، ويعيب علىّ الوجهاء ذلك، ويقولون: عندما رحل السلطان محمود لم يكن له أشخاص يحفظون مملكته، وهذا الشاب لا يطيع أمرًا، فدبر الأمر كى أعود إلى خوارزم فى أسرع وقت ممكن كى أحفظ ماء وجهي وأنا فى شيخوختى، فقال أبونصر: الأمر كما تقول يا أيها الأمير، وأولئك الشباب لا يمكن أن تكون نيتهم حسنة تجاه مؤيدى محمود، ولكنك إذا استأذنت فجأة فى الذهاب إلى خوارزم فمن الممكن أن لا يأذنوا لك وتحدث وحشة، فمن صالحك أن تبعث رسالة إلى السلطان مسعود وتقول: لقد أصبحت عجوزًا، وقد أنعم علىّ السلطان الراحل بكل ما ينبغى من السلطة والنعمة، وكل ذلك من دولتك، ولكن لم يبق من العمر إلا قليلًا، وحان وقت الاستغفار، ولى أبناء أكفاء، فإن رأى السلطان فليأذن لي فى أن أعتكف متهجدًا لله، وأصلى ركعتين، وانشغل فى الدعاء لك ولأولادك، فإن أذن مولاى فلينعم على أحد أبنائى بولاية خوارزم، فهم أبناء هذا العبد المخلص لك ولدولتك، وإلا فمر بأن أقدم الخدمة فى زمرة عبيده، حتى إذا أوصلت الرسالة يكون السلطان قد تشاور معي، فأتناقش معه، كى يبعثك بإلحاح إلى خوارزم مرة أخرى، فقال التونتاش: جزاك الله خيرًا، وفى اليوم التالى بعث التونتاش هذه الرسالة على يد رسول السلطان الخاص ويدعي عبدوس، فأدى عبدوس الرسالة فى الوقت المناسب، وتشاور السلطان مسعود مع أبى نصر حول التونتاش، فقال أبو نصر: من المصلحة أن يتوجه التونتاش إلى خوارزم مرة أخرى، وفى اليوم التالى استدعى السلطان التونتاش (ص٦٢)، وشرفه، وخلع عليه، وبعثه إلى خوارزم مبالغًا فى تكريمه، وبعد فترة اجتاز أبناء ميكائيل

سلجوق جيحون، ووصل جغري بيك[١٢٤] إلى مرو وطغرل بيك إلى طوس، وأبلغوا السلطان مسعود بأن أحد الأخوة استقر فى مرو، والآخر فى طوس، فأسرع السلطان فى الذهاب سالكًا طريق طوس، وقال يجب الذهاب قبل أن يلتحق كلًا الأخوين ببعضهما، وكان السلطان رجلًا ضخمًا، وقد وضع العرش على فيل، وجلس وكان يسير الليل كله، ونام على ظهر الفيل، وكان السلاجقة قد أقاموا دولة فى تلك الأطراف بعد احتلالها، ولم يكن الفيّال يجرؤ على أيقاظ السلطان وسار جغرى بيك فى تلك الليلة على عجل، والتقى أخاه طغرل بيك[١٢٥] بجيش طوس، وعندما طلع النهار، تجمع من جيش طوس فى رادكان[١٢٦] ما لا يعلم حسابه إلا الله، وكان مع السلطان عشرون ألف شخص، وعندما التقيا تقاتلا لسبعة أيام، وقد أبدى السلطان نفسه البطولات وقد حالفه الحظ، وكان العمر قد بلغ نهايته، فغادر، وتفرق الجيش كله، وتوجه إلى غزنه، وسار على أثره ثلاثة فرسان من التركمان، واقتربوا منه، وكان للسلطان هراوات تزن عشرين منًا، فأدركه فارس، ورماه بسهم، فلم يؤثر فى درع السلطان، فأخرج الهراوة، وهوى بها على رأسه ورقبته، وقتله، وسقط على عنق حصانه، وانكسرت رقبته، وهشم السلطان الجواد والفارس، ثم التفت إلى شخصين من التركمان وقال: إن مسعودًا يرغب فى هذا الشراب مرة أخرى، ففرا فى البدء عندما رأوا ذلك، ونزل مسعود هناك، وكان ذلك بالقرب من مزرعة فرأى نصيرًا له، كان قد رأى ذلك القتال والضرب بالهراوة، فجاء، وسلم على مسعود وقال: أيها الأمير لقد جرحت فى يدك مثل هذا الجرح، فلماذا تهرب من العدو؟ فقال مسعود: هذا هو الجرح ولاحظ لى، وذهب إلى غزنه، وكان السلطان محمد قد استقل بالأمر، وخرج من الحبس، وجلس على العرش وقبض عليه، وأرسله إلى القلعة، واعتقله فى ذلك الأسبوع كذلك وقتله، وانقضى عهده، وكانت هذه الأحداث فى سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة، وحكم مسعود عشر سنوات، وكان فاضلًا وعادلًا للغاية.

وقد بلغ شأوًا بعيدًا في السخاوة، وفي الشجاعة أيضًا، والله تعالى أعلم بالصواب.

(ص٦٣)السلطان جلال الدين محمد بن محمود:

وقد ذكرت أغلب أحواله في المقدمة، وعندما رجع السلطان محمود من حرب السلاجقة، اتفقت جماعة من أكابر غزنه، وأنقذوه، وأتوا به إلى أخيه، وحبسه، ويقال إنه قد وافق على قتله، ولكن خراسان وبلخ خرجتا من يد ملك غزنه، ولم يبق بيد السلطان محمد إلا بست وكابل وزابل وهي مملكة سبكتكين، وقد حكم السلطان محمد أربع سنوات، وكان مودود ابن مسعود بعيدًا عنه، والتحق بالمماليك، واتفق مع الجيش، وقصد السلطان محمد، وكانت الحرب قائمة لفترة بين هذين السلطانين، وتغلب في النهاية مودود على محمد، وقبض عليه، وقتله مع جميع أولاده وأتباعه، وانتهي عهد محمد، وحدث ذلك سنة ست وثلاثين وأربعمائة، والله أعلم.

السلطان أبو الفتح مودود بن مسعود:

وكان أكبر أبناء مسعود، وكان ملكًا كبيرًا، وقد فاق آباءه في استعداده وكياسته وأهليته، وحافظ على المملكة، وعاش مع السلاجقة بتعقل، وكانت تحدث الحرب بينهم بين الحين والآخر، وقد يسود الصلح بينهم، وكان رجلًا بالغ الغاية في الدهاء، وقيل أنه أقام ذات يوم مأدبة عامة، بينما كان ثملًا، وحانت صلاة العشاء، وما كان الوقت مناسبًا للدعوة، فخشي الأمراء والوزراء من أن تحدث فتنة، وطلب السلطان في ذلك الوقت مكتوبًا وأخذ يقرأه، وكان صاحب بريد غزنه قد كتب أن اثني عشر ألف بيت في مدينة غزنة كانوا قد طبخوا (سماق باج) وقد بلغ ذلك صاحب البريد، وكان يقول: لقد كتب صاحب البريد هذا العدد، فلماذا لم يحدد تلك البيوت، وإلا فما الفائدة من

هذه الكتابة ، وأمر بتأديب صاحب البريد ذاك ، ولم يحمل الناس هذا الحديث محمل الجد فى هذا الوقت لأن السلطان كان فى حالة سكر ، وكان المطربون منشغلين فى الغناء وضرب الدفوف ، وذات مرة التفت السلطان إلى عازف البربط وقال : اعدل بربطك ، فنظر العازف ولم ينتبه إلى اعوجاج البربط فاستمر فى العزف ، فقال السلطان مرة أخرى : اعدل عزفك ، فوضع المطرب رأسه على الأرض وقال : يا مولاى إن بربطي صحيح ، فقال السلطان : أنظر إلى الوتر الثامن عشر إنه معوج ، وعندما نظر ، أدرك أن السلطان محق ، وقد كان ذلك غاية كياسة الملك ، وقد كانت الأحداث التى تستحق الذكر فى عهده قليلة ، وحكم سبع سنوات ، وتوفى سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة من الهجرة ، والله أعلم.

السلطان محمود بن السلطان مودود :

وعندما توفى والده كان طفلًا (ص٦٤) ، وأجلسوه على العرش ، وكان الأمراء والوزراء يعملون ، واتفق أكابر غزنه أن يخلعوا ذلك الملك ، وحكم آل سلجوق فى أيامه ، والله أعلم وأحكم.

السلطان على بن مسعود :

وهو ابن مسعود ، وكان ملكًا حسن السيرة ، وحكم لفترة ، وخرج عليه ابن أخيه ، وكان محبوسًا فى قلعة ، وتخلص ، وثار ضد علي وانهزم أمامه ، وسيطر على الملك ، كان اسمه السلطان عبد الرشيد بن محمود ، والله أعلم بالصواب.

السلطان عبد الرشيد بن مسعود :

وحدثت الكثير من الفتن خلال ذلك الخروج ضد علي ، وقتل الكثير من أكابر غزنه ، وحدثت عدة غارات وحروب ، ونكب أبناء مسعود ، وحكم لسبع

سنوات، وخرج عليه غلام تركى وقتله، وجلس على العرش أربعة أيام، وخرج عليه غلمان مسعود، وقتلوه، وكان اسمه طغرل، وولوا ابن الأمير مسعود، والله أعلم بالصواب.

السلطان عبد الحميد إبراهيم بن مسعود :

ولم يكن لأى من أبناء الأمير مسعود دولته، وكان رجلًا مظفرًا، وحدثت فى أيامه الكثير من الوقائع، وكان من كياسته أنه أقام علاقات مع آل سلجوق، وكان فى مستوى السلطان محمود فى الإسلام والمعتقد، وقد قام بالكثير من الأعمال الخيرية، وبني الكثير من المساجد والمدارس والخانقاهات(١٢٧)، وانتصر فى كل حرب خاضها حتى قيل له محمود الثانى، وقد جلس على العرش لمدة اثنتين وأربعين سنة، وكان له أبناء موهوبون، وتوفى سنة ست وتسعين وأربعمائة، والله أعلم.

السلطان مسعود بن إبراهيم:

وكان أكبر أبناء إبراهيم، واتفق معه أكابر غزنه، وكان ملكًا مظفرًا، وسجل الكثير من البطولات فى فتوح بلاد الهند، وسار مسيرة أبيه، وأقام الغدل، وتصالح مع السلطان سنجر السلجوقى(١٢٨)، وتزوج من أخته، وكان السلطان بهرام شاه ابنا له، وحكم ست عشرة سنة، والله أعلم بالصواب.

السلطان أرسلان شاه بن مسعود :

وكان أكبر من بهرام شاه، وقد سيطر على الحكم، وقصد بهرام شاه كى يحبسه، فهرب بهرام شاه منه، والتجأ إلى السلطان سنجر، وكان خال بهرام شاه، وولاه السلطان ولاية مطلقة على الجيش حتى جاء وهزم أرسلان،

وجلس هو نفسه على العرش، وعندما عاد الجيش من خراسان، عاد أرسلان شاه، وهرب بهرام شاه، وذهب مرة أخرى إلى سنجر، فجاء السلطان سنجر نفسه مع جيش، وحاربه (ص٦٥)، وأسر أرسلان وحملوه إلى القلعة، وهلك في السجن، وحكم أربعة عشر عامًا، والله أعلم بالصواب.

السلطان أبو المظفر بهرام شاه بن محمود :

وقد جلس على العرش في سنة ست وعشرين وخمسمائة، وكان عهده مناسبًا، وكان يكرم أهل العلم والبلاغة، وقد صنفت في حقه الكثير من الكتب، ويعد كتاب كليلة ودمنة من آثاره، وقد جاء علاء الدين حسن الغورى[١٢٩] بجيش جرار إلى غزنه، فهرب بهرام منه، وأجلس علاء الدين أخاه سيف الدين على عرش الحكم، وعاد هو إلى هراة، وعندما سنحت لبهرام شاه الفرصة، رجع، وعاتب سيف الدين، وأجلسه على ثور، وطاف به مدينة غزنه، وقتله، وبلغ هذا الخبر علاء الدين حسن، فجاء بنفسه مع جيش كثيف، وتوفى قبل مجيئه، والله أعلم.

السلطان خسرو شاه بن بهرام شاه :

وحينما توفى بهرام شاه، جلس خسرو شاه على العرش، ووصل علاء الدين مع جيش، فهرب خسرو شاه وجلس فى غزنه علاء الدين حسن، والسلطان غياث الدين وشهاب الدين الذى كان ابن أخيه، وذهب هو نفسه، واستطاع أن يستدرج خسرو شاه بلطائف الحيل، وأعطوه الأمان، وقبضوا عليه وهو فى رحلة صيد، وحبسوه حتى توفى، وانتهى عهد سلاطين غزنه وآل محمود سبكتكين، والله أعلم.

وكما قلنا سابقًا فقد كان هناك قبل هذا المجلد من جامع التواريخ أو جامع فى تاريخ سبكتكين لأبى الفضل البيهقى والذى وصلنا اليوم باسم تاريخ

بيهقى، وسماه هو نفسه كما يبدو تاريخ مسعودي، وكان يشمل المجلد الخامس حتى العاشر من أصل الكتاب، كان هناك عشرون مجلدًا أخرى أوعشرون فصلًا كبيرًا وصغيرًا، وصلت بتأريخها حتى بداية حكم السلطان إبراهيم ويبدو أن هذه المجلدات العشرين الأخيرة من الكتاب فقدت، كما فقدت المجلدات الأربع الأولى التى كانت تؤرخ لسبكتكين ومحمود، ولم يتم العثور على خبر وأثر عنها لمدة طويلة.

والأثر الوحيد الذى يمكن الحصول عليه منه هو احتمال أنه كان تحت تصرف محمد عوفى، عند تأليفه كتاب جوامع الحكايات ولوامع الروايات فى بداية القرن السابع، وأن يكون قد نقل منه بعض النصوص وذكرها فى كتابه، وتدور أحداثه فترة حكم مسعود بن محمود وعبد الرشيد، وسأذكرها هنا بتسلسلها التاريخي:

١- فى الباب الثانى عشر من القسم الأول:

حكاية: قيل إن مجموعة من اللصوص تجمعت فى صحراء كرمان (ص٦٦)، وكانوا يفرون كلما أرسل السلطان جيشًا بالقرب منهم، وكان السلطان مسعود هو الملك فى ذلك الوقت، ويلغه ذلك الخبر وهو فى العراق، وعجز عن فعل شيء، ففكر فى حيلة، واستخرج مقدارًا من السم من الخزانة، وأمر بأن يؤتى له بتفاح كثير من أصفهان، وأمر المعتمد بأن يدخل السم فى التفاح برأس الإبرة، حتى دس السم فى (ثلاثمائة كيلو غرام) من التفاح، وكانت هناك قافلة متجهة إلى تلك الجهة، فأرسلوا التفاح معها، ووجه جماعة من معتمديه وقال: عندما تقتربون من اللصوص، فليتبع عدد منكم القافلة بحيث يسطو عليهم اللصوص، ويوثقونهم، ومن المؤكد أنهم سيأكلون من هذا التفاح ويموتون جميعهم، فتذهبوا أنتم، وتفكوا وثاقهم، ففعلوا ذلك ونجحت الحيلة،

وتحققت هذه الفكرة، وعندما سطوا على القافلة وأوثقوها، قسموا البضاعة، وعندما رأوا هذه الكمية من تفاح أصفهان، اعتبروها غنيمة، وأكلوها كلها، ولم ينهض كل من أكل، وهكذا هلك جميع اللصوص بهذه الحيلة، وجاء أعوان السلطان مسعود فى الأثر، وفكوا وثاق أصحاب القافلة، وأعادوا إليهم أموالهم بحيث لم يضع أى شيء، وقهر جميع اللصوص بهذه الحيلة اللطيفة دون أن يتحمل الجيش أية مشقة كى يعلم العقلاء أن ما يمكن أن يتحقق بالحيلة لا يمكن تحقيقه ولو بألف فارس.

٢- فى الباب الثانى عشر من القسم الثالث:

حكاية: جاء رجل إلى السلطان مسعود متظلمًا وقال: أيها الملك، كنت أسيرا فى طريق الغور، فقبض على أميرها، وأخذ منى ظلمًا المال والبضاعة التى كانت معى، فأمر السلطان مسعود بكتابة رسالة إلى أمير الغور بأن يعيد بضاعة هذا الرجل، فأخذ الرجل الرسالة إلى أمير الغور، فانزعج الأمير منه وأمر بأن يصفع ويجبر على ابتلاع هذه الرسالة، فعاد إلى غزنه، وحكى للسلطان استخفاف الغوريين به، ثم كتب رسالة أخرى وهدده فيها كثيرًا بأنهُ إن لم يرض هذا المظلوم فسوف يأتى، ويدمر مملكته، فقال الرجل: أيها الملك مر بكتابة رسالة أصغر، فإن علىّ أن آكلها هناك، ومن السهل علىّ أن آكلها إن كان ورقها صغيرًا، فتألم السلطان من هذا الكلام كثيرًا، وفى ذلك اليوم خرج مسرعًا (ص٦٧) من بلاطه، وعزم على الذهاب إلى الغور، واستخلص تلك المملكة وعاقب الأمير، وأعاد حق ذلك الفقير وزيادة، وأخذ أمير الغور بوبال ظلمه.

٣- فى الباب الرابع عشر من القسم الثالث :

حكاية : جاء فى تاريخ ناصرى أن السلطان علاء الدولة مسعود بن محمود عندما زين عرش غزنه بجماله تولت زمام الأمور جماعة من الأحداث[١٣٠]، وكانت تحظى بالقرب من الأمير مسعود فى أيام الإمارة، فكانت تتدخل فى أمور المملكة، وتسلطت على الخلق لصالحها، ومن جملة ذلك أنها قالت ذات مرة للسلطان إن أخاك السلطان محمد أعطى فى ذلك الوقت الذى كان قد استبد فيه ألف درهم لسبعين مرة من الخزانة للأتراك والتاجيك، وأركان الجيش، وهم إنما أخذوا هذه النقود ليحاربوك، وليس له حق فى هذه النقود لأنه ميراث الملك، ومن المؤسف أن تقضى عدة سنين مع حفنة من الأرذال، والصواب أن تطالبهم بهذا المال، ثم يمر بهم السلطان، وينعم عليهم، كى يمن عليهم بذلك، وزينوا ذلك فى قلب السلطان، وأكدوا هذا المعنى بقولهم : أن أركان دولة السلطان محمود سوف لا يستسيغون ذلك لأنهم ملوثون جميعًا، وقد أخذوا الهدايا والرشوة، وهم لا يقبلوا بذلك لاسترداد ما أخذوه، ولكن هؤلاء المغرضين أرادوا تغيير رأى السلطان لاسترجاع ما أخذوا من الأموال، فأمر السلطان صاحب الخزانة أن من الواجب تقديم النسخة المشروحة، كى يستردوا الأموال التى أعطاها الأمير محمد فى عهد حكمه من الرشاوى والهدايا على الخلائق فأعطى صاحب الخزانة النسخة، وتدخل السلطان فيها إلى حد ما، وقال أبو سهل الزوزني الذى كان يتولى ديوان العرض : يجب عرض هذه النسخة على الديوان كى يقسموا مال الجيش على بعضهم ويكتبوا الصكوك، كى يستخلص هذا المال، وتعطى منه جرايات السنة، فقال السلطان مسعود : انتظروا حتى أقول ذلك للوزير، وفى اليوم التالى اختلى بالوزير، وشرح له هذا المعنى، وكان الوزير أحمد حسن الذى كان السلطان محمود قد حبسه فى قلعة، وجاء به السلطان مسعود مرة أخرى.

فقال الخواجه: إن أمر مولانا صحيح، ولكن على الملك أن يفكر فى ذلك، ويأخذ بعين الاعتبار صلاح هذا الأمر وفساده (ص٦٨)، فقال: لقد فكرت فيه، وقررت ذلك، فقال الخواجه: فأمهلنى حتى أفكر فيه أنا أيضًا، ثم أعرض عليكم النتيجة، وكان الخواجه كلما فكر فى ذلك الأمر رآه ملتويًا بشدة، فكان يراه قريبًا من الخسة وبعيدًا عن المروءة، فلم يسمع لما قاله، وصار جمع غفير من الناس أعداء وفى اليوم التالى أرسل السلطان فى طلب الوزير وسأله عن نتيجة تفكيره، فقال الوزير: سوف أرسل رسالة وأعرضها على مولاى، فاختلى فى ركن ودعا أبا نصر مشكان وقال: هل سمعت بما أشارت به هذه الجماعة خسيسة الطبع دنيئة الهمة على الملك، والسخرية التى أثارتها؟!، ثم فصل هذا المعنى لأبى نصر مشكان وقال: تعلم أن لا فائدة من الماء المهدور ولن يترتب على استرداد الذهب الذى يعطي للمهرج أو الشاعر إلا سوء السمعة، وعليك الآن أن تذهب إلى حضرة السلطان، وتبلغه عنى بألا يوافق قط فتنفر منه الناس ويعادونه، ولم نطالع فى التاريخ أبدًا أن أحدًا من ملوك العرب والعجم قد فعل ذلك ولا فعلها أحد من خلفاء بنى أمية وبنى العباس، ولو لم نعرض اليوم عن هذا الأمر، لأخذنا به غدًا، ولقال السلطان: لماذا لم تنبهونى إلى خطأ هذا الأمر، فقال أبو نصر: على أى حال، فإن ما أعطاه الأمير محمد فى عهد توليه المسؤولية أعددته كله، ولم أتصرف به أبدًا والحق يعلم ويشهد أننى اليوم فكرت مليًا وسوف أعيده كله إلى الخزانة قبل أن يطلبه مني أحد، فيذهب ماء وجهي، وإن أمري لسهل، والتعيس ذلك الفارس الذى انفق ما كان قد أخذه، ولم يتبق منه شيء، فما عساه أن يعطى عندما يطالبونه بالعنف، ومن أين يأتى بت، وكيف يكون حاله؟ فذهب أبو نصر إلى السلطان، وبين له وخامة ذلك العمل وفساده، ولكن دون جدوى لأنهم كانوا قد ثبتوا ذلك المعنى فى ضمير السلطان، فأجاب قائلًا: لقد عرفت رأى الخواجه، فارجع، كى آمر بما فيه المصلحة، فذهب أبو نصر إلى البيت، ويعث

سرًا إلى الخزانة وقال: استنسخوا ما أعطانيه الأمير محمد فى عهد سلطنته من التشريفات والإنعامات وغير ذلك وأرسلوها إلى، فنسخوا تلك القوائم، وبعثوها إلى الخزانة، وأخذ الوصل من الخزنة، ومن السلطان مسعود عليه، وقال أبو سهل الزوزنى: إن الجميع سيفعلون ذلك، وسيحصل خلال فترة قصيرة، فأعطى السلطان نسخ (قوائم) الخزنة إلى (ص٦٩) أبى سهل، وذهب هو نفسه إلى الصيد، وأمرنى أن أعود وقد حصلت على جميع الأموال، وعندما ذهب السلطان، أرسل أبو سهل الحوالات، وانهالت حوالات المطالبة على رؤوس الخلق، وقد عانوا الكثير من المشقة، وكان الخواجه يقول لكل من يتوسل إليه: لا علاقة لى بالأمر، والعارض هو الذى يعلم، وهكذا كانت الأموال تزداد، وعادت الرعية تدعو على السلطان مسعود، ودعوا عليه، وانتشرت سمعة سيئة عنه فى أطراف العالم، وندم السلطان على ذلك ندمًا شديدًا، وساءت علاقته مع أبى سهل الزوزني، وعزله فى واقعة خوارزم شاه، وكان السلطان يردد دومًا حذار أن يكون هناك حول عرش الملك خدم خسيسو الطبع لؤماء، حتى لا يدفعنا ذلك لاتخاذ أى قرار ضدهم، وباع أبو سهل جميع أملاكه والقماش الذى كان يمتلكه ولم يبق له سوى بيت مهدم، وبلغ به الفقر والفاقة والعسر حدًا بحيث كان يعانى من الجوع لعدة أيام بلياليها دون أن يطعمه أحد، وتذكر وصية أبيه بأنهم طلبوا مالًا بالباطل، وندموا كثيرًا على فعلتهم الدنيئة دون جدوى.

٤- فى الباب الثالث من القسم الثالث :

حكاية: حكى أن السلطان مسعود كان له خازن يقال له سنبل خرد، وكان يمتلك أموالًا لا حد لها، وتوفى فى عهد السلطان بهرام شاه، وبقيت أمواله بيد الناس، وكان خادمه ريحان يحيط بها علمًا، وعندما طالب بتلك الأموال أعادها البعض، وهرب البعض الآخر من المدينة، وأنكر البعض الآخر، وتقبلوا

العقوبة والمطالبة، وكتبوا الرقع على المنابر وأرادوا أن يبتزوا المال بهذه الحيلة، وكان هناك رجل من جملة أمناء سنبل ومعتمديه يدعي محمد موي دوز، وكان عليه مال كثير، فطالبه به وأراد أن يأخذ تلك النقود بالتشنيع، فذهب إلى الشيخ أبي المؤيد كوي منكريان، والتمس قائلا: أنا رجل من مريديك، وكان هناك ابريقان من الذهب لسنبل بيدى على سبيل الأمانة، فسلمتهما، وهم يطلبون الآن منى ثمانية أخرى وليست عندى، وهم يؤذوننى، وسوف أعاقب بالقتل على ذلك، فأنا أريد من مولانا أن يشفع لى كى ينال ثوابًا عظيمًا، فقبل أبو المؤيد، وجلس فى الهودج ودخل قصر السلطان، وعندما أبلغوا السلطان احتفى بقدومه، واستقبله، (ص٧٠) وأجلسه فى موضعه، وجلس هو نفسه فى خدمته مطيعًا، وقد روى الخواجه الإمام حديثا يقول ولدت فى زمن الملك العادل، وشرح ذلك، ثم تحدث عن حال محمد موي دوز، فقال السلطان: لا شك فى أن المصطفى صلى الله عليه وسلم قال هذا الحديث فى آخر عهد أنو شيروان الذى كان قد أظهر السيرة العادلة، ولكن لم يكن هناك فى البدء ملك من ملوك العجم أكثر طغيانًا منه وكان سبب عدله أن رجلًا كان فى جواره من أهل الكتاب، وكان وافر النعمة وكان يتمتع بثروة غزيرة، وأسباب كثيرة، وأملاك معمورة، وكان بيته عامرًا بالضيوف دائمًا حتى أنه لم يكن يقرب الطعام إلا إذا كان هناك ضيوف، وكان أنوشيروان كلما ينظر إلى بيته من قصره كان يرى فيه أناسًا شتى، وعندما تحقق من أحواله كان الناس يذكرون مروءته، فأراد أنو شيروان أن يختبره، فلبس ذات صباح ملابس التجار، وتخفى، وجاء إلى ديوان ذلك الرجل وقال: هل تريد ضيفًا؟ فقال: أريد، فأدخله البيت، وأجلسه، وطيب خاطره، وجاءوا له بينما كان جالسًا بشعير محمص وسكر، وفتعاطاه وبعد ساعة أتوا له بأطعمة لذيذة للغاية دون أن يشير الرجل، وعندما فرغوا من تناول الطعام، ذهبوا إلى مقصورة ذات شبكة كبيرة، فوقع نظره على بستان تدلى من أشجاره عنب كثير، فأقاموا هناك مجلسًا، وجاءوا بالشراب فى

كؤوس لطيفة ونقية، وقدمت النساء الحسناوات الأقداح وتناول الجميع الصهباء، ورأى منه حتى آخر اليوم مظاهر كثيرة من المروءة دهشوا لها، فقال أنوشيروان: أنا رجل تاجر، وقد جئت اليوم إلى هذه الولاية، وقد أكرمتني كل الإكرام، والآن قل لى كيف أكافؤك؟ فقال الرجل: لقد تهيأت لى جميع الأسباب بيمن السيد، فإن مررت ببستان، فاشتر لى قدرًا من العنب وآت به لى، وسأكون ممتنًا لك، فتعجب أنو شيروان وقال: أنا الممتن، ولكنى رأيت منك أشياء عجيبة، وأردت أن تحل مشاكلي، فقال: وما هى؟ فقال أن شيروان: الشيء الأول الذى جئت به كان شعيرًا محمصًا، فما الحكمة فيه؟ فقال: الحكمة فيه أن الضيف عندما يصل فإن حرارة الطريق تكون قد أثرت فيه، ولذلك فإن الشعير المحمص يناسبه، فهو طعام وشراب أيضًا، ويسكن الحرارة، وهو جاهز دومًا، فلا يضطر الضيف لأن ينتظر (ص٧١) حتى يصل الطعام، فقال: الشيء الآخر أنك تكلفت كثيرًا، ولم تشر على سبيل الأمر أبدًا، ولم تسر إلى أحد، وجاءوا بأطعمة جاهزة، فقال: لأن هذا هو دأبى فى كل يوم، وأنا انتظر كل يوم حتى وقت الاستواء (الظهيرة)، فإن قدم ضيف تناولت الطعام معه، وإن لم يأت جمعت الخدم، وتناولت معهم الطعام، فتناول الإنسان للطعام وحده أمر بعيد عن المروءة، فقال أنو شيروان: الشيء الآخر أنك طلبت منى العنب، فى حين أننى رأيت فى بستانك هذا الكثير منه، فقال: إن أنوشيروان رجل ظالم وجبار، وهو ليس على ملتى ودينى، وفى كل سنة ينضج فيها العنب فى بستاني، يبدأ أولًا بأخذ الخراج من مكان آخر، ويؤخرنى أنا بحق الجوار، ولأن له الحق فى عنبي فإنني إن أكلت منه أكون قد ارتكبت خيانة، والخيانة فى ديني حرام، فعندما يصبح الحصرم جامضًا أمهره فى البستان، ولا أسمح لأى شخص بالدخول فيه حتى يحرز رجال الملك عنب بستانى، وأعطى العشر، وحينئذ أمد يدى لآكل من العنب، وعندما سمع أنو شيروان هذا الكلام بكى وقال: أنا ذلك الظالم الجبار، ولقد استيقظت الآن من نوم الغفلة بسبب

دياناتك، ولقد وهبتك الخراج، وتعاهدت مع نفسى أن لا آخذ من أحد بعد الآن أكثر من العشر، وأن لا أظلم أى مخلوق، فتاب، وبسط العدل فى الأرض، ولو أن المصطفى (صلى الله عليه وسلم) وكان قد ولد فى عهده لما قال هذا الحديث، وهكذا كان حال رعية أنوشيروان فى الأمانة رغم أنهم كانوا ضالين، وهناك فى عهدنا جماعة أستخدمهم أنا، وهم يسلبون أموال المسلمين، ويظلمونهم، وعندما يحل وقت المطالبة، يسببون لهم العناء حتى تشفعوا، فيأخذون المال بهذه الطريقة، فماذا يقول مولانا فى ذلك؟ وماذا يجب أن أفعل معهم؟ فقال الخواجه أبو المؤيد: لقد سببت لك العناء، ثم نهض وهو يقول: كلام الملوك ملوك الكلام، وعندما عاد إلى وثاقه، حظي بلقائه محمد موي دوز وسأله: أين بلغ أمر الشيخ مع السلطان؟ فقال الشيخ: لقد قصصت حكايتك أمس للسلطان، فأجلسني وقال كذا وكذا، وثبت لى أن الحق معه، وأنت رجل عجوز قد بلغت حافة القبر، وعليك أن تعيد مال سنبل، وأن لا تترك هذا الحق من أجل المرأة والأولاد، كى لا تخذل من الدنيا، ولا تؤخذ فى القيامة، وعندما يئس محمد موي دوز من هناك، رجع إلى البيت، وأعاد إلى خزانة السلطان الأباريق الثمانية المليئة بالنقود، ولم يشفع الشيخ أبو المؤيد بعد ذلك لأى شخص أبدًا.

٥- (ص٧٢) فى الباب التاسع عشر من القسم الثالث:

حكاية: جاء فى تاريخ ناصرى أن الأمير عبد الرشيد كان يمتلك غلامًا صغيرًا يدعي نومان وذلك عندما تولى حكم غزنه، وكان هذا الغلام متهورًا ومطيعًا، وكان الأمير عبد الرشيد يحسن معاملته، فاصطفاه، وأحله منزلة حسنة ورفيعة، وبدأ حكمه بالاستبداد والتسلط، ولأنه كان وضيعًا ودنيئًا فقد سعى من أجل أن يستأصل شافة الكبار، وأعان أبا سهل الزوزني حتى صار سيد الدولة، ووزيرًا لمملكة عبد الرزاق بن أحمد الميمندي، وساعد أخاه مبارك

إبراهيمي حتى ولاّه على ولاية برشاور، وكان يرعى الوشاة والغمازين، فاستفحل أمر الأشرار والنمامين فكانوا يختلقون الأكاذيب، فشاع الخراب في الولاية بذلك، وأقطع صاحب البريد القرى ولم يكن أحد قد فعل قبله ذلك الفعل، وكان من جملة الفتانين المعروفين بالغمز والسعاية شخص يقال له خطيب كوف، وقد أشرف على تربيته وجعله نائبًا له، وقد أحرق عالمًا بأكمله بغمزه وسعايته، ودمر الولاية، وربى الأمير عبد الرشيد الخواجه أبا طاهر حسين علي، وولاّه ديوان المملكة وكان الخواجه حسين يؤدي ذلك العمل بكفاءة وأمانة، وعندما مرت ثلاثة أشهر على تقلده لهذا العمل، أمره السلطان قائلًا: عليك أن تذهب إلى الهند، وأن تجبي أموالها، ثم تعود إليّ، فذهب الخواجه أبو طاهر إلى الهند، وكان كلما يصل إلى منطقة يرى عاملًا لتومان يكلف الخلق ما لا يطيقون، ويمسك بزمام الأمور، فظهر اضطراب عظيم في الأعمال والأشغال، وكتب الخواجه أبو طاهرًا تقريرًا بهذه الأوضاع، وكان يكتب إلى صاحب ديوان الرسائل، وكان صاحب ديوان الرسائل الشيخ أبو الفضل البيهقي، ولأنه عرض مكتوب الخواجه حسين عدة مرات، صرخ السلطان عبد الرشيد في وجه تومان، وأذاه، فساءت علاقته مع أبي الفضل البيهقي، فوشى به عند السلطان كثيرًا، فأمر السلطان باعتقاله دون أن يتثبت من كلام تومان وأن ينهب بيته، ويقيده، وعندما استبعد أبو الفضل، خلا الجو لتومان، وتجاوز الحد في التسلط والاستبداد، وخلع الخلع على خطيب كوف، وبعثه إلى برشاور فأجج نار الظلم (ص٧٣)، وقام بمصادرات كثيرة، وعندما وصل الخواجه إلى برشاور كي يتولى أمور ذلك الجانب، كان خطيب كوفي قد ارتكب قبله الكثير من المظالم فنصحه الخواجه دون جدوى، وأجاب الخواجه بأجوبة قبيحة، وتكلم بكلام بذئ في وجهه، ولم يستطع حسين أن يتحمله، لأنه أراد بذلك وهن أمره وسقوط حرمته، فضرخ فيه، وأمر بأن يقتادوه ويعتقلوه، وأعلموا تومان، وعرض تومان الرسالة على الأمير عبد الرشيد

وقال: إن خطيب كوفى كان يعلم أن حسين قد أخذ من الخلق أموالًا بناء على الواجب، ولأنه كان يحيط علمًا بحاله، فقد حبسه كى تبقي الأموال لديه، وسعى مثل هذا النوع من السعايات حتى أمره الأمير عبد الرشيد بأن يذهب ويأتى بصاحب الديوان إلى البلاط مقيدا، وتوجه تومان ليلًا إلى برشاور مع ثلاثمائة فارس، وقدم الفرمان الموقع إلى رئيس شرطة برشاور، وقيد الخواجه حسين، وأخرج خطيب، وهتك حرمة أولئك المسلمين، وانطلقوا فى النهار إلى الحضرة حاملين معهم الخواجه حسين وقد قيد بالأغلال وهو يساق بكل ذل وخنوع وكان مع الخواجه خدامه، ورافقه أناس من كل جنس من الهند، وعندما خرجوا من بوابة نوردي وصل الفرسان، وأخبروا بأن الأمير عبد الرشيد كان قد ذهب إلى القلعة باختياره بسبب تسلط واستبداد اللؤماء، واضطراب أمر الملك، وأن طغرل الطاغية جاء إلى غزنته، وقتل الأمير عبدالرشيد، وسيطر على الملك، وعندما بلغ الخبر تلك الجماعة، جاء الفرسان والمشاة إلى الخواجه حسين مخبرين إياه بأن الأحوال قد تغيرت، وأن الغالب أصبح مغلوبًا، وأن أمرك نافذ اليوم فبماذا تأمر؟ فقال الخواجه حسين: الأمر الأهم أن ترفعوا عنى هذه القيود وتضعوها فى رجل تومان، فأمسك الفرسان به، وأنزلوه بكل إذلال، وقيدوا رجليه، وأجلسوا الخواجه حسين على حصانه، وأجلسوه هو وخطيب كوف والخدام الأخرين مقيدين على الجمال، وحملوهم إلى غزنه، وعاقبه الله عز وجل بما يستحق.

٤- كتاب مقامات أبى نصر مشكان

لا شك فى أن أبا الفضل البيهقى كان له كتاب آخر غير جامع التواريخ أو الجامع فى تاريخ سبكتكين، ألا وهو كتاب «المقامات»، أو «مقامات محمودي»، وهو معروف بين المؤرخين الأخرين باسم «مقامات أبى نصر مشكان» وقد كانت المقامات تطلق آنذاك حسب الاصطلاح الأدبي على الكتب التى كان المؤلفون

يسجلون فيها ما (ص٧٤) سمعوه من شخص أو عدة أشخاص، والمقامات تعني فى هذه الحالة المشافهات أو المفاوضات أو المسموعات، وقد كان هذا الكتاب عبارة عن مجموعة ما كان قد سمعه البيهقى من أستاذه ورئيسه أبى نصر مشكان صاحب ديوان رسائل الغزنويين عن تاريخ محمود الغزنوي وآبائه، ولمّا كان موضع هذه المقامات يتعلق بتاريخ محمود فقد سماها مقامات محمودي، وهو نفسه يذكر ذلك فى موضعين من تاريخ محمودي، الموضع الأول (طبعة طهران ص ١٤٩) فى باب المواضعة التى أخذوها من أحمد بن حسن وجاء فيها: «قد جئت أولًا بقسم ومواضعة فى مقامات محمودي التى ألفتها» وقد جاءت نفس العبارة فى طبعة كلكته (ص ١٧٥- ١٧٦)، وبالطبع فمما لا شك فيه أن الأفضل: «وقد جئت أولًا بالقسم وتلك المواضعة فى مقامات محمودي التى سميتها كتاب المقامات»

وقد بقى هذا القسم بعينه فى آثار الوزراء لعقيلي، وسيأتى بعد ذلك، وجاء فى موضع آخر حول أبى نصر مشكان فى طبعة طهران (ص ٦٠٥): « وآثاره وأخباره وأحواله هي ما جاء فى مقامات محمودي وفى هذا التاريخ »، ونري هذه العبارة فى طبعة كلكته (ص ٧٤٩) كالتالى: « وآثاره وأخباره وأحواله هي ما جاء فى المقامات وفى هذا التاريخ »، وقد سمى المؤلفون الآخرون هذا الكتاب نفسه «مقامات أبي نصرمشكان» لأنه يحوى مجموعة من المواضيع سمعت بها من أبى نصر مشكان، وكانت تحت تصرف محمد عوفى عند تأليفه لكتاب جوامع الحكايات ولوامع الروايات، ونقل نصوصًا منها، ثم كانت مخطوطته موجودة قطعًا حتى القرن التاسع عندما ألف سيف الدين حاجي بن نظام عقيلي كتاب آثار الوزراء، لأنه أيضًا نقل نصوصًا من مقامات أبى نصر مشكان إلا إذا كان عقيلي قد نقل هذه الموضوعات من كتاب آخر، وفقدت فى عصره مخطوطته، ولكن ذلك ليس واضحًا لنا.

إن كتاب مقامات أو مقامات محمودي أو مقامات أبى نصر مشكان لأبى الفضل البيهقى كان كتابًا مهمًا ومفيدًا للغاية، وعلينا أن نأسف لضياعه فى ذلك الوقت، لما كان يحوي من معلومات قيّمة فى تاريخ السلطان محمود، وبالإضافة إلى أنه كان يتضمن موضوعات كثيرة، لم تكن موجودة فى أى كتاب آخر، فإنه يعد أفضل نموذج لأسلوب إنشاء النثر العادي والبسيط فى القرن الخامس فى ايران، وذلك لأن أبا الفضل البيهقى (ص٧٥) أبدى تكلفًا فى تاريخ مسعودي الذى وصلنا اليوم، وكتب بعض النصوص بلسان ملتو ومغلق كان شائعًا فى البلاط وكان كتاب البلاط يتظاهرون به، ولكنه استعمل فى مقامات أبى نصر مشكان اللغة البسيطة للحياة اليومية فى عصره، وتجنب التكلف والتعقيد والتفنن، ولعل محمد عوفى قد تصرف فى النصوص التى نقلها من هذا الكتاب فى جوامع الحكايات، وغيّر من إنشائها، ولكن من الواضح أن العقيلي لم يتصرف أبدًا فى النصوص التى أوردها فى آثار الوزراء، وأما النصوص التى ذكرت فى جوامع الحكايات عن مقامات أبى نصر مشكان فننقلها هنا بحذافيرها، وبنفس الترتيب الذى ضبطت به فى ذلك الكتاب.

١ - فى الباب الثانى عشر من القسم الأول :

حكاية: ذكروا أن علاقات جميع أركان الدولة وأعيانها قد ساءت مع الخواجه أحمد بن حسن رحمة الله عليه عندما كان وزير السلطان محمود، وشوهوا صورته لدى السلطان حتى تغير رأى السلطان بشأنه، وعزم على أن يعزله، يقول أبو نصر مشكان: إن أرسلان جاذب كتب لى رسالة فى تلك الأثناء، وذكر فيها: سمعت أن الملك تغير على الخواجه أحمد، ونحن العبيد لا نجرؤ على أن نعترض على رأى الملك، ولكن ما أعلمه وأدركه من الواجب أن أقوله بحكم الشفقة، ولا شك فى أن الخواجه أحمد هو من كفاة الزمان ودهاة العصر، وقد كان مباركًا علينا وقد كنا معًا فى الكتّاب، وقد جرب الحياة بحلوها

ومرها، وقد كان منصب الوزارة باسمه لفترة، واليوم يعجز كل من أتى بعده، وله أعداء كثيرون، وسبب عدائهم له أنه مخلص لسيده، ويطلب رضاه، وهو يبذل جهده فى المرافق الديوانية، ولذلك فقد عاداه الجميع، وعليك أن تعرض هذه الرسالة على حضرة الملك، وأنا أعلم أنهم غيروا رأى الملك بحيث لا تنفع معه هذه النصيحة، ولكن الصواب أن لا يعترض الملك علينا نحن العبيد، ونكون معذورين إذا ندم، وعندما قرأت هذه الرسالة، كنت أتحين الفرصة كى أعرضها، وكان الوزير يرسل إلى شخصًا دائمًا، ويطلب منى المدد والمساعدة، وكنت أقول له لا تعجل، فسوف أعرضها فى الوقت المناسب، وكان السلطان (ص٧٦) يعلم أنني اتحين الفرصة، وبالطبع فإنه لم يكن يتحدث معى بشىء عن هذا وتصادف أن خرج السلطان للصيد، ولم يكن من المعهود أن أفد عليه وهو فى الصيد، ولكنني ذهبت فى هذه المرة، فسألنى السلطان عن سبب مجيئي، فقلت: على العبيد أن يفدوا على الملك فى كل الأوقات، فقال: أعلم أنك جئت بسبب أحمد، فقلت: مثل هذه الأمور لا تخفى، وتفكير الملوك صحيح، فسكت، ولم يقل شيئًا، ومر ذلك اليوم، وتلك الليلة، وكان مشغولًا بنشوة الشراب، وفى ليلة أجلسنى، وتحدث معى بأنواع الحديث، ثم قال: أجبنى بصدق عما أسألك عن أحمد، ولا تدافع عنه، ولا تداهن، وقلت: سمعًا وطاعة يا مولاى، وقال: إن أحمد هذا رجل كفء، وقد نشأ معى منذ الطفولة، ولذلك فقد تطاول كثيرًا، وأخذ الأموال ظلمًا، فهو يعترض على كل أمر أصدره، وقد أبلغونا أن تحديات بدرت منه فيما يتعلق بالغلمان وأمثال ذلك، وقد أضمرت فى قلبي أن أعزله، وقد أشار عليّ بذلك كل من تشاورت معه، فماذا ترى؟ فقلت: الصواب ما يراه مولاى، ولا يمكن لأحد أن يعترض عليه، فقال: يجب أن نتشاور فى الأمر، فقلت: لقد بعث إلى أرسلان جاذب منذ أيام رسالة، وقد حملت الرسالة معي، وعرضتها، وقلت: إن أذن لى الملك قلت كلمة على قدر علمى، فقال: عليك أن تقول، فقلت: إن ما قيل عن

الخواجه أحمد إن كان قد اتضح وثبت للملك على وجه اليقين، فلا يجب الابقاء عليه طبعًا، ويجب تأديبه، فالملك لا يتحمل مثل هذه التجاوزات، وأما إذا مرت تلك المعاني على ذهن الملك على سبيل الشك والظن، فيتأمل الأمر، فإن مثل أحمد إن تم عزله، فسوف يجلس مكانه شخص آخر، فإن وجد هذا الشخص فعلي مولاى أن يبتّ في أمره، وإن لم يجد، فعليه أن يفكر في الأمر كثيرًا، فقال السلطان: عُد حتى أفكر، ولكنه عزله في نهاية المطاف، ثم ندم بعد فترة قصيرة، وحدث خلل كبير في مملكته..

٢- في الباب الخامس عشر من القسم الثاني :

حكاية: قيل إن السلطان يمين الدولة محمود سبكتكين أنار الله برهانه لما بعث التونتاش إلى خوارزم(١٣١)، خلع عليه لقب خوارزم شاه، فكانت إمارة خوارزم باسمه لمدة، (ص٧٧) وعندما كتب صاحب بريد خوارزم إلى السلطان محمود، وذكر أن التونتاش اشترى حتى الآن ألفًا وخمسمائة غلام، وأسماؤهم مدونه ومسجلة في السجلات، تأثر السلطان من ذلك، وقال في نفسه: الإهمال والغفلة في هذا الأمر يتنافيان مع الحزم، ويجب ألا يقوى نفوذه وسوف تفنيه غطرسته وسيشعل نار الفتنة، وسيعميه دخانها، فأمر أبا نصر مشكان بأن يكتب إليه كتابًا على سبيل التعريض لا التصريح، ويمنعه من شراء الغلام التركي. فكتب أبونصر كتابًا إليه يفيد بأن حاجب خوارزم شاه الجليل هو تذكار أبينا العزيز، ونحن نحله محل عمنا المشفق، ولم نر منه سوى الصدق والإخلاص وفرط الاختصاص، ونحن نثق تمام الثقة بمكانته، وما تزال الحجابة الكبرى باسمه، وما يقوم به على قريب إنما يقوم به بالنيابة عنه، ولربما يحدث أمر مهم يستدعي أن ندعوه إلينا تحقيقًا للمصلحة العامة، وقد بلغنا أنه يبالغ في شراء الغلمان وتجهيزهم بالأسلحة: فإن كان الأمر كذلك فعليه أن يأتي يومًا إلى غزنه وحاشيته من الغلمان كثيرة، فسوف يقع في المشقة هنا، فقد قيل إن غزنه عبء

آخر، فإن فكر فى هذا المعنى، وإن كان ذلك من عزة موكبنا، بحيث أن أحد عبيدنا يبلغ درجة بحيث يمتلك ألفًا أوعشرة آلاف غلام تركى، ولكنه يعلم حال نفقات غزنه، وإن قدم إلى هنا، فسوف لا يستطيع أن يبيع غلامًا فى أية حال، علي أن ذلك عيب ولأنهم كثيرون فإنهم سيكونون وبالًا على الناس، فالأفضل أن لا يقع إفراط فى هذا الأمر، وعندما وصلت الرسالة لالتونتاش، قرأها، وأحس بالخزى، وكف عن شراء الغلمان، وجهذ السلطان من أجل أن يأتى به إلى البلاط، ولّما كان كل ذلك من تنبؤاته، فقد فكر أنه إذا علت منزلته فلا يجب أن يطمع فى الدولة، وهكذا واصل سيره فأصبح الإقبال مركبه، والظفر عنان موكبه.

٣- فى الباب الحادى والعشرين من القسم الثاني :

حكاية: قيل إن السلطان يمين الدولة محمود سبكتكين أنار الله برهانه عشق لفترة أخت اياز، وكان خاطره المبارك يميل إليها، وكان يريد أن يدخلها فى عقده، ولكنه كان يخشى من أن يعيب عليه ذلك الملوك والسلاطين (ص٧٨) ويذمه خواصه بهذا الفعل، فكان مترددًا فيه لفترة، يقول أبو نصر مشكان: كنت ذات ليلة فى خدمة السلطان، وعندما خلا المجلس، مد السلطان رجليه، ثم أمرنى بأن أدلك رجله، فأيقنت أنه سيبلغنى سرًا فى لحظة ما، ثم قال: قال الحكماء أن السر يجب أن لا يخفى على ثلاثة: الأول الطبيب الأستاذ، والثاني على الناصح المشفق، والثالث على الخدم الصالحين العاقلين، فقال أبو نصر مشكان، وما الدرجة التى بلغتها كى يخصني الملك بهذه المرتبة؟ ولكن إذا استقر رأى مولاى على ذلك، فسوف أعرض صلاح وفساد كل ما يشير به، فقال: منذ مدة وأنا أريد أن أنكح أخت اياز، ولكننى أرى أن ليس من الصواب أن ينسبني الملوك من حولى إلى خفة العقل، وخطل الرأى وتذموننا أنتم الخدم والخواص لدى الأشراف، فما الصواب الذى ترونه؟، وهل قرأتم فى التاريخ

أن الملوك قد تزوجوا كثيرًا من عبيدهم ومواليهم أم لا؟، فقال أبو نصر: لقد خدمت وقلت: لقد حدث ذلك في العالم كثيرًا، ولقد تزوج ملوك آل ساسان من مواليهم كثيرًا ولن يحمل الناس هذا الأمر على شيء سوى عفة الملك وورعه، ولا يخفى على الملك أن قباد عندما كان متوجهًا إلى التركستان، خطب في مدينة اسفراين ابنة فلاح، وقد ولد منها أنوشيروان، وقد قرأت في تاريخ العجم أن بهرام جور تزوج ابنة غسال، فقال السلطان: فكيف كان ذلك؟. فقال: سمعت أن بهرام جور خرج ذات يوم للصيد، فنفر الحصان فجأة لمرور غزال، فابتعد عن الجيش، وعندما عطش رأى قرب قرية وعلى حافة بركة رجلًا غسالًا، وقد جلس مع امرأته ووضع مقدارًا من الثياب كي يغسلها، فوقف بهرام على رأسيهما وقال: أيها الغسّال، اسقني شربة من الماء، فنهض الغسّال وخدمه، وقال: أنهضي يا امرأة واسقي الملك ماءً، فأمسكت المرأة القدح بيدها، وغسلته بماء نظيف، ثم قالت لابنتها: بنيتي، أنا لست آنسة، وقد امتدت إلى يد رجل، أما أنت فما زلت درة مكنونة، فاسقي الملك الماء، فتناولت الفتاة قدح الماء، وقدمته لبهرام فنظر إليها، وإذا به يري فتاة لا نظير لها في الحسن والملاحة، ولا مثيل لها في اللطف، والشمائل، فقال للغسّال: هل تستضيفنا الليلة؟ فقال: إن قنع الملك بخبزنا اليابس، وعيوننا المبللة، (ص٧٩) فسوف لا نقصر بما في وسعنا.

ثم ألقى الثوب النظيف إلى جانب الماء، وجلس بهرام هناك، وأمسك الغسّال بحصانه، وربطه بشجرة، وأعطى الفتاة مئزرة نظيفة، وقال: ذبّي عن الملك الذباب، وذهب هو نفسه إلى القرية على عجل، وجاء بالطعام والشراب والنقل وما تيسر له ثم ناول الفتاة صراحًا وكأسًا وقال لها: اسقي الملك، فغسلت الفتاة الكأس جيدًا، ثم ملأته بالشراب، وقدمته للملك وعندما تناول الملك الكأس منها، قبلت يده، فقال بهرام: أيتها الفتاة موضع القبلة الشفة لا اليد، فما لم تحقق الشفاه مرادها من الشفاه فلا يهنأ الشراب:

بوس ازبي آن برلب جانان باشد زيرا كه بر آن رهگذر جان باشد
هربوسه كه بر دست صراحي بزني گر برلب من زني چه تاوان باشد

الترجمة :

« إن القبلة إنما تطبع على شفاه الحسان لأنها الممر إلى الروح »

« كل قبلة تطبعينها على عروة كأس ، إن طبعتها على شفتى فماذا عساني أستطيع »

فخدمته الفتاة وقالت : لم يحن الوقت بعد ، فتعجب الملك من ملاحة أسنانها ، ولطافة حديثها ، ومازالا فى ذلك وإذا بجيشه يصل فى أثره ، فقال بهرام للفتاة : غط وجهك عن هذه الجماعة ، فألقت الفتاة نقابها ، فتزوجها فى الحال ، وأجلسها فى هودج ، وأركبها الأب ، وحملها إلى البلاط ، وأصبحت أم ابنه ، وعندما سمع السلطان هذه الحكاية منه ، سُر كثيرًا ، وأثني على أبى نصر وقال : قد أنقذتنى من العذاب ، وتزوج بعد يومين من أخت اياز.

وقد نقل عقيلي أيضًا فى آثار الوزراء نصوصًا من كتاب مقامات أبى نصر مشكان فى شرح أحوال أحمد بن حسن الميمندي وأبى على حسن بن أحمد بن عباس بن ميكال المعروف بحسنك ، ويبدو أنه تصرف فى أصل إنشاء البيهقى وهذا ما ذكره من أحوال بن حسن :

الوزير الكامل الفاضل أكفى الكفاه أبو القاسم أحمد بن حسن الميمندي كان وزير السلطان محمود بن سبكتكين ، وأكثر عوام الناس بل العوام والخواص يتداولون القصص والحكايات عن حسن الميمندي ، وهي ليست حقيقية ، وقد جاء فى مقالات الخواجه أبى نصر مشكان أن أحمد بن حسن كان وزير السلطان

محمود، وقُرئ فى بعض التواريخ (ص٨٠) أن أباه حسن الميمندي كان عاملًا فى عهد الأمير سبكتكين، وقد كتب فى كتاب مقامات الخواجه أحمد كان لأرسلان جاذب الذى كان من كبار الأمراء منصب فى خراسان، يقول أبو نصر: فبعث إلى رسالة مضمونها: سمعت أن رأى جلالة الملك تغير بشأن الخواجه أحمد، وأراد أن يعزله، ورغم أننا نحن العبيد ليس من شأننا أن نعترض على رأى السلطان، ولكننا يجب أن نصرح بما نعلمه بحكم الشفقة، فكل شخص يعتمد عليه السلطان في هذا الأمر المهم، فإن كان هذا الشخص خامل الذكر أصبح ذا هيبة، ووقره جميع عبيد دولته، ولكنه بحاجة إلى دهر طويل كي يبلغ منزلة الخواجه أحمد، فهو وزير طيب الأصل، وقد بلغ فى الكفاءة مبلغًا لا يخفى، وقد كان سعدًا على مليكنا، وكان معه فى الكتّاب، وجرب كل حسن وسيء، وتولى أعمالًا خطيرة حتى بلغ الوزارة، وتدرج من النديم حتى رئاسة الديوان وحتى صاحب العرض، ومثل هذا الرجل لا يمكن الحصول عليه بسهولة، فالقلوب والعيون ممتلئة بهيبته وتعظيمه، وأنت يا أبا نصر تعلم أن الأمر كما أقول، وأنت مضطر إلى أن تصفه بأنه عبد عند خطابك له، وأنا أرسلان وأنت لا تكره ذلك، وإذا ما عزلوه، وولى مكانه شخص آخر فسوف لا تعود له تلك الهيبة والوجاهة ورغم أن من الواجب رعاية هذا الحد فى الخطاب، ولكن يجب الخطاب بذلك لأننا لا نكرهه، ولهذا للخواجه أعداء كثر، وكما لا يخفى عليك فلأنه وزير، وعليه أن يرعى مصلحة مولاه، ولا يخشى رضا أو سخط الاخرين، فسوف يعادونه، وقد رأيت أن من الواجب كتابة هذه المشورة عندما بلغنى الخبر وكان التغيير بشكل رسمي أو بشكل يقى نفسه ليصبح عمله مقبولًا ولا يعزل ثم يبذل فى سبيل ذلك الأموال ويصبر على ذلك، ولا يفشى سر هذا الحديث حتى لا يقع الضرر به، وإذا علم ارسلان بذلك فإنه رجل تركى ذو مزاج ويصل به إلى حد قتلى، فلماذا يقول هذا، وما هو غرضه من وراء ذلك؟، ونحن نواجه الصعاب مع هذا الأمير، وكما لا يخفى

عليك فإنه يريد أن تحدث مخالفة بين جميع خدّامه، فإن علمت أن الأمر جد، والغرض فضول، فإنه سوف لا ينفع ذلك العظيم الكبير، وسوف يعود الضرر عليّ (ص٨١)، نتصرف كما تراه صوابًا بحيث يكون استنادًا إلى المشاهدات، ويراها الحاضرون، ومع ذلك فإن سنحت الفرصة يجب اغتنامها، ويجب عرض ما هو أقل مما قلته، كي لا يقول عندما يعزل هذا الرجل غدًا، ويولي آخر مكانه، ويندم، ولا يحتج بأنه لم يكن هناك شخص ينبهني إلى خطأ هذا العمل، وعندما جاء بهذا الكتاب إلي، وأحطت علمًا بهذا الحال وقلت له: لقد ألقيت على عاتقي همًا كبيرًا ومسؤولية عظيمة، فقد غضب رجل مثل محمود على الوزير، وعقد العزم على عزله، وظهر أعداء كثيرون للوزير، وشهروا سيوفهم، فالحديث في ذلك خطير للغاية ولكني أخاطر لسببين: الأول أن هذا الوزير له الكثير من الحق علّي، والآخر أنني رجل كاتب، وما يعرض مما أكتبه لا يعود عيبه إلي، وأكون بذلك قد أديت حقك في الثقة بي، ولكن عليك أن تتعجل فأنا أرى لهذا الرجل خصومًا أقوياء من الخارج والداخل والخصم الأكبر هو حضرة السلطان والتغيير الكبير في مزاجه، علّي أجد خلوة أعرض فيها هذا الحال بعيدًا عن عيون الأعداء، وبعد ذلك كنت أتحين الفرصة، ولم أكن أجدها، فالسخط كان يقوى مع مرور الأيام، ويزداد الخصوم شدة أكثر سواء بالرسائل من الأطراف، أم بالمشافهة.

وفي أثناء ذلك كان التغيير يزداد بحيث كان اليأس يكثر، وأرسل الخواجه عماد خفية إلي، وكان عماد هذا من معتمديه الخواص، ولقد بعث لي برسالة قال فيها: يا أبا نصر، أعلم أن هذا السلطان -كلما- تغير علّي، كنت أتدارك ذلك بمال عظيم، وفي هذه المرة أرى خلاف ذلك، فقد بلغ الأمر حدًا بحيث لا ينفع المال، ولقد يئست من الجميع، ولكني لست يائسًا من الله تعالى وأنت يا أبا نصر تعلم حالي، فليست هناك عداوة بينك وبين أي شخص، وإن ظهر لك

عدو كبير فلا تتكلم إلا بالصلاح والحسنى فى حق عدوك، فما يمكن معرفته عن أعدائك هو نفس ما تعرفه عن الأصدقاء وهو أنه كيف تكون معهم؟ وأنا اعتبرك صديقى، وحق الصداقة ثابتة، وأنا لا أذكر طيلة هذا العمر الطويل أنني نويت نية سوء فى حقك، فإن عهدت منى أذى لا أذكره فأخبرنى به، وابعث لى الجواب، ولا تغفل عن حالى (ص٨٢)، فأنت تعلم أعدائى، والعياذ بالله أن آمرك أن ترفع لي الأخبار بما يفعلونه فهذا ليس بالشرط، وأنا لا أجيز أن يفعل ذلك معتمدو أمناء المجلس المخلصين، ولكني أتوقع بحكم ثقة مولانا بك، والعلاقات الطيبة بيننا أن ترعى جانبى، وإن دارت الأقاويل وسألوك فافعل ما هو واجب فالتونتاش خوارزم شاه منشغل بالمكيدة لنا، وهو يكتب الإغراءات فى تقبيح حالى وأنت تقرؤها، وأما حسنك فهو خصم كبير، وهو يتفوه بالكلمات الباطلة التى تصل إليك، وعلى الحاجب مخادع كبير، وهو حلو الظاهر، ولكنه فى الخفاء يجتث ويتعرض للناس، وأما أبو بكر، فهو يفعل ما لا يخفى عليك، وقد خدعوا الأمير محمد الذى ينظر اليوم إلى مولانا بعين أخرى، وهو منزعج من الأمير مسعود، فاعلم أنه متحد مع مسعود حتى يصبح خصمًا بدوره، والله عز وجل يعلم أن عبوديتى واحدة لكلا الملكين، ولكن العدو يفعل فعلته، وكلما نظرت من الخارج والداخل أرى الأمير مسعود، وقد أعانوا أرسلان جاذب على السكوت رغم أنهم لا يجرؤون على أن يقولوا شيئًا، وأنا أرى الآخرين كلهم أعداء، وأبو الحسن العقيلي هو صديقك على أى حال وقد اتهموه بتلفيق خراج باخرز والضياع الكثيرة على أهلها، وتأخره فى القدوم، وقد كان الملك يريد أن يقصده بسوء، فوقفت، حتى فدى نفسه بمال، وأنا أعلم أنني لم أرتكب سوءًا، والآن فإن مقاصد لا نهاية لها تظهر منه، وأما حسنك ميكال فقد نسب إليه الخيانة بسبب تصرفه فى عمل المراعي وتسعير الأغنام، وكانت حياته معرضة للخطر فأنقذته هو وأولاده، ولم أرتكب سوءًا عندما أنقذتهم جميعهم من ذلك البلاء بأربعة آلاف درهم، ولكنه يأمر الآن الصغير

والكبير بأن ينشغلوا اليوم بمنازعتي، وهذه القصة طويلة، وما قدره الله تعالى لا يمكن تقديمه أو تأخيره، وقد أعربت عما فى قلبي، واعتمدت عليك، كى تبلغ كل شخص بما هو ممكن بالمكاتبة والمراسلة، والمشافهة حتى أرى إلى أى مدى تبلغ الأمور؟، فأجبت عمادًا وقلت: قل للخواجه (ص٨٣) أنك تعرفني أكثر من نفسى، فأنا لست رجلًا حاد الطبع، ولا أتجاوز مهنتى وهى الكتابة، والآن فإنهم يكتبون الأشياء التى ذكرها ويتحدثون بها، وأنا محيط بها كلها، ولكن السلطان خصمك اللدود، وهو يعجبه ما يختلقونه، فمن ذا الذى يجرؤ أن يخاطر بالحديث معه، أو ينطق بشيء يعارض هؤلاء القوم، ولكنني سوف لا أقف مكتوف الأيدى بأى حال، وسأرى ما أستطيع فعله، وعلّى أن أقول ما يجب قوله لأبى الحسن العقيلي وحسن على، وأنصحهما بشكل يستمعان كلامى، وأبو بكر الحصيرى رجل عاقل، ويمكن تهدئته وأخذ مساعدته، ولكنه على أية حال لا يستطيع السكوت على ما اتهم به، ومحمود رجل داهية وله خبرة فى هذه المواقف، ولكن الذين روجوا له الأخبار الكاذبة نحوك، وسوف أرى ما يجب فعله، وأما حسنك فهو مغرور بجاهه وماله، وهو لا يعلم عاقبة الأمور، وهو يطمع فى الوزارة، وعلى الحاجب رجل عاقل، ومتمكن فى عمله، وهو يستمع جيدًا إلى الأقوال التى تلقي إليه، ويستطيع الإجابة عليها، وأبلغه بما سيتم له، وخوارزم شاه رجل ذو هيبة، ولكن لا ينفع معه سوى الرسالة الصادقة، فالزمان صعب، وأنا أيضًا لى أعداء وحساد، ولا أستطيع أن أكتب رسالة، وقد كتب أن أحمد عبد الصمد نائبه، وهو غير حسن، وقد طمع فى الوزارة هو أيضًا، وأنا أخشى أن يلقينى فى البلاء كلما وصلت إليه رسالة، وأما وكيله على بارسي فهو رجل ناضج وحكيم، وسوف أدعوه، وأقول له كل ما يجب قوله فى هذا الباب، ولكنى لا أستطيع أن أتكلم بشيء مع الأمير محمد وأهل البيت والحريم فهذا ليس من شأنى، ولا أمارة مليكى، وأرسلان جاذب رجل أمين ولكنه كتب كذا وكذا إلى، وقد قلت كل ما أعرفه، وأنا أتحين

الفرصة، ولا أدخر ما في وسعي. فذهب عماد، وعاد في الليل وأتى بخطاب حسن وعزم السلطان محمود على الصيد، وهو الصيد الذى خصصوا له عشرين يومًا، ولم يكن من المعهود أن أذهب لهذه الخدمة، فذهبت من أجل هذا الأمر، وأعلمت الخواجه أحمد بذهابي، وفى خلال هذه المدة التى غبت فيها ارتكبوا من الفساد بحق الخواجه ما تجاوز الحد، وكان وهو يجلس فى الديوان بغزنه، قد بعث إلى الخزانة ألف ألف درهم لعشر مرات، وقد كنت انتهز (ص٨٤) الفرصة عله يتحدث معى، وبالطبع لم يقل أى شيء وسأحدثك عن فراسته: عندما فرغ من الصيد، وجاء وجلس للشراب، وقال لى أثناء الحديث: ألم تأت لهذه الخدمة حتى الآن؟ فقلت: أطال الله عمر الملك، على العبيد أن يخدموا، فقال: ليس الأمر كما تقول، لقد جئت بشأن الحديث، ومثل هذه الأمور لم تفتنى ولا تفوتنى، فقلت: إن تفكير الملك صواب فى كل حال، ولا أتحدث أكثر من هذا ومر ذلك اليوم وتلك الليلة حيث كان مجلس الشراب قائمًا، ومرت ثلاثة أيام، وفى اليوم التالى كان ما يزال منشغلًا بالشراب، فأجلسنى، وانشغلنا بالشراب، وتبادلنا أطراف الحديث، وعندما عدنا، وجاء عماد، وأبلغنا قائلًا: سمعت ما مر جزاك الله خيرًا، وقلت: قل للخواجه إن هذا الرجل ليس هو الذى كنت قد رأيته، ولا يمكن ملء جعبة الملوك بالمال، فإن استطعت أن تقوم بهذا العمل فلا تقصر، فبذل كل سعى كان فى إمكانه دون فائدة، وكان تغيره يزداد يومًا بعد يوم حتى وصل الحال إلى درجة أن دعوا ساروق صاحب الشراب الذى كان قد ذهب إلى ولاية بعيدة كى يطرح مسألة أمواله فقد كان عدوًا آخر، وكان قد عانى الجفاء والإذلال من الخواجه، وفى هذه الأثناء دعانى السلطان ذات يوم، وأخلي المكان بحيث لم يكن معنا شخص آخر، فقال لي: لم أقل لك شيئًا عن أحمد حتى الآن، فأصدقني القول عما أسألك عنه، وارع صلاح أمري، وقد اختبرتك كثيرًا، فأديت واجب الخدمة وقلت: فليقل مولاى وليسأل كى أجيب، قال: إن أحمد هذا رجل كفء

للغاية وخبير ومجرب، وهو يريحني في إدارة الأمور، ولكنني أبدو صغيرًا في عينه لأنه نشأ معي منذ الطفولة، وعرف أحوالي وعاداتي، فذهبت هيبتي، فهو متطاول، ولا يكتفي بما يستحقه من الأموال بل إنه أخذ مائة ألف ومائتي دينار، ثم إنه يعترض على أوامري، ويستخف بها، كما أبلغوني أنه قد بدر منه هتك للحريات بشأن غلماني فقالوا وكتبوا عنه مقالات كثيرة وأنت تعرف بعضها، وقد عزمت على أي حال أن أوقفه عند حده، وقد أشار عليّ كل من تشاورت معه في هذا الرأي بأن (ص٨٥) الصواب هو عزله، فماذا تقول أنت؟ فحالك يختلف، وقد علمت أنك تبغي الصلاح في عملي، ومن صالحي أن تقطع علاقتك بوزيري وأولادي وأقربائي. قلت: أطال الله عمر مولاي، لا يحضرني حديث عن مثل هذه الأشياء، فإن قلت شيئًا بشأن هذا الرجل ولم يعجب مولاي، فربما سيعتقد بأنني أخذت شيئًا من أحمد ولهذا أتوسط له، إن رأى مولاي أفضل بشأن مثل هؤلاء الرجال، فإن أعفاني من ذلك، فالأمر له، فقال: لا شأن لك بقلبي، وأجبني بصدق عما أسألك بشأن هذا الرجل، ولا تخني، قلت: أطال الله عمر الملك! لقد بعث أرسلان جاذب رسالة مكتومة إلى كذا وكذا، وقد فصلت ذلك كله، ولكني لم أعرضه حتى هذه اللحظة، وفكرت أنه يتصور صورة أخرى، والآن أقول إن كان ما قيل عن أحمد من خيانة ونقض وتهور وغير ذلك صحيحًا، وثبت للملك أنه صحيح، فليس من الجائز أبدًا أن يمنعه بسبب هذه الجريرة موقعًا يندم بعده، فالسلطان لا يحتمل مثل هذه المواقف الصادرة من الوزير، وإن لم يكن صحيحًا، ومله السلطان، فليقع اختيارا ولكن عليه ألا يكون متسرعًا حيال عزله، فإن أخذ ذلك القرار فعليه أن يتقين من ذلك قبل أن يندم بعده الملك على الإطاحة به، فليس هناك من أحد يجرؤ على أن يقرر ما يجب عمله وما لا يجب، ولكنني أنا العبد سأقول كلمة على قدر علمي، فقال: قل، فقد أمرتك، قلت: إن كان لمولاي رجل مثل أحمد في البلاط، أو حصل على شخص مثله، وحدثت منه هذه الخيانات،

فليكن أمر مولاى أن يعزله دون تردد، وإن لم يحصل منه كل هذه الاتهامات المغرضة فالأفضل أن توكل إليه المهام وتوضع على عاتقه، فقال: نعم، نعم، سأفكر في الأمر، فعدت، ومضى ما مضى.

حكاية: جاء فى كتاب مقامات الخواجه أبى نصر أنه لم يكن مزاج السلطان قد تغير على الوزير عندئذ حتى بعث أحد ملوك خوارزم الرسل إلى السلطان محمود، ملتمسًا منه أن يلتئم الشمل معه بالمصاهرة، فأجاب السلطان محمود، فبعث إحدى أخواته إلى خوارزم، فبعد أن تزوجها، عزم خوارزم شاه على تغيير معاملته مع الدولة والرعية، وبدأ بأذية الناس بحجة أنه صهر السلطان فيأس منه قائد الجيش وحاجبه الكبير والأمراء والحشم (ص٨٦)، فهيؤوا له وليمة، وباغتوه عند تناوله الطعام وقتلوه، وعندما بلغ خبر هذه الواقعة إلى السلطان فى غزنه، اختلى، ودعا الوزير أحمد حسن، وحضر التونتاش وجمع من الأمراء، فقال: ماذا يجب أن نفعل بشأن خوارزم؟ فقد أساءوا الأدب وقتلوا الصهر، وإن لم يؤت بهؤلاء القتلة مقيدين كى يعاقبوا فسوف يلومنا الملوك من حولنا، ولا يعلق أى شخص الأمل علينا، وإن قصدناهم فإن الطريق أمامنا طويل وصعب وهناك جيش كثيف، وأنا أخشى أن تنقلب الصورة لأن تلك الناحية كبيرة وهي منضمة إلى المعارضين، ودخلها لا يفى بتكاليفها، وليس هناك مزيد من النفقات، وقد بقيت متحيرًا فى هذا الحال، فماذا تقولون؟ فنظر الخواجه أحمد حسن إلى كبير رجال الدولة، وقال: علّي أن أقول لكم إنكم أرباب السيف ولا شأن لي بذلك، فقالوا: نحن عبيد، وقد تمتعنا بنعم كثيرة من هذا الملك، ونحن لا نمتلك الجرأة أبدًا على أن نقول ليس من الصحيح السيطرة على الولاية خاصة الولاية التى خلت من الملك وسيطرت عليها جماعة من الأوباش، فليأمروا كى نضحى بالروح فى طاعة الملك وخدمته وتنفيذ أوامره، ونحن مستعدون لكل خدمة يأمر بها، ولا يتأتى منا نحن المماليك لأولئك السلاطين أن نقول غير هذا والخواجه هو الوزير، وهو يعلم عاقبة مثل هذه

الأمور أفضل، فماذا يرى في ذلك؟ فقال الخواجه: رغم أن للملك ولاية أكثر إلا أنني سأكون مسرورًا أكثر إذا كان القلب فارغًا واليد مفتوحة أكثر، ولكن أمر هذه الولاية هو على هذه الشاكلة التي بينها السلطان فهي مهملة والسيطرة والحفاظ عليها صعب، فقالوا: فما المصلحة؟ الخواجه يعلم، والأمر للملك، فقال للخواجه أبي نصر مشكان: يا أبا نصر! ماذا تقول في هذا الأمر؟ قال: وما قيمة رأيي، خاصة في هذا المقام؟ فالتفت الخواجه أحمد إلى التونتاش وقال: إن أمهلنا الملك نحن العبيد اليوم والليلة كي نفكر في هذا الأمر ثم نعرض عليه النتيجة غدًا، ويفكر هو أيضًا فهو الحاكم، فقال السلطان: حسن، فقاموا، وعادوا، ثم إن الخواجه اختلى بأبي نصر مشكان وقال: لقد عزم السلطان على أن يحتل خوارزم، ويستأصل تلك الأسرة، وهو يتصور أنه سيجد هناك مالًا كثيرًا، ونعمة عظيمة ولكن بين خمسين (ص٨٧) أو ستين ألف سيف ورمح، وحال الأتراك يختلف عن حال الهنود، ولا ينبغي أن يحدث أمر من الصعب تلافيه، فالطريق طويل، والجيش خائف كثيرًا، وقد قتلوا الملك، وسلبوا الأرواح، وأتباعنا هؤلاء قد هربوا اليوم من هذا العمل، وألفوا المسؤولية، وكما يفعل العارفون، وأرى أن الصواب أن تخيف أولئك القوم بالرسائل شديدة اللهجة، علهم يوافقون على مال ضخم، ويولي بأمر مولانا أحد المتبقين من الملوك هناك، ويقرؤون الخطبة باسمه كي تحقق المقصود ولا تحدث إراقة للدماء في نفس الوقت، وإذا تحدثنا عن هذه القضية، فإن هؤلاء الرجال سوف يأتون بالذرائع ويتشبثون بكلامي قائلين: إن أحمد لا يستطيع أن يراني وأنا أسيطر على ولايات جديدة. وإن قلت إن من الواجب أخذ تلك المناطق بالسيف، والإطاحة ببقاياهم، فسوف يتقدم غدًا ما يقرب من خمسين ألف فارس محتشدين عندما يصل إلى هذه الولاية، ويقول: لقد فعل أحمد فعلته، ووضع أمامي خطرًا بهذا الحجم وينسى كلام الجميع، ويتذرع بكلامي فقط، والحرب مليئة بالخطر دومًا، ولا يمكن أن تسلم الجرة في كل مرة، فماذا

تقول فى هذا الأمر، وما الصواب الذى تراه؟ فقال الخواجه لأبى نصر: أطال الله عمر الخواجه! ما عساني أن أقول وأنا رجل من أرباب القلم فى أمر تحير فيه السلطان والخواجه؟ فإن بعث الخواجه رسالة فى هذا الأمر فسأستطيع أن أعرض بشكل مطلق، فالأمر دقيق، واكتب هذه الرسالة من نسختين في حضوركم من باب الاحتياط، ثم أتقدم بها، وأعرضها عليه، وأعرف الجواب الذى استلمه، كى يدعوك، فهو لا يمتلك الصبر على هذه الأمور، ويسأل عما كنت تقوله، ومن المناسب أن تحكى أنت ما سمعته مني وتقول إن أحمد قال: لا أبعث لك الرسالة، ولكنه الحزن والفرح الذي تعرضوا له فأمهلونى كى أفكر في هذا الأمر المهم بشكل أفضل اليوم والليلة، ثم أعرض النتيجة غدًا مشافهة أو بواسطة رسالة، ثم نهض، وقال: سوف لا أجلس فى الديوان، بل أذهب إلى الدار، وأنشغل بهذا الأمر. يقول الخواجه أبو نصر: وعندما رجع انشغلت في الديوان حتى جاء احد يقول إن السلطان يستدعيك، وعندما تقدمت أجلسني وسألنى عن الحديث الذى دار بينى وبين الخواجه، فقلت: لقد مر صباح على هذا الحديث، ولهذا أخلى المكان، فقال: قل ماذا حدث؟ لقد عرضت كل ما دار من حديث وقلت: هذه رسالة، فقال: لقد عاد الخواجه بهذا العذر (ص٨٨)، كى يتناول الشراب اليوم، وقد أعددت للأمر منذ فترة طويلة، وبعد أن حصلت على خوارزم بذريعة، فإن من المحال أن أتنازل عنها؛ وهؤلاء كبار رجال الدولة قد أصبحوا متقاعسين، وأنا أحتفظ بهم، وأعطيهم الأموال كى أسيطر فى كل سنة على عالم جديد، فاحفظ هذا السر، وحتى نرى ما يقولونه غدًا، فإن أرسل الخواجه شخصًا إليك وسألك: هل رأيت محمودًا، وماذا حدث فأجب بأنك رأيته، وكرر الحديث، فإن لم يجب، فقل: سأفعل ذلك، ثم رجعت إلى الديوان، ووصلت رقعة عن الخواجه فى هذا المعنى، فكتبت جوابًا بنفس المقدار الذى كنت قد أمرت به، ولكني قلت هذه الملاحظة حتى لا ينشغل الخواجه بالشراب، وهكذا حدث ثم تقدمت بعد ذلك

وأخبرت بوصول رقعة الخواجه والجواب الذى كتبته وهو أن الأمور كانت صعبة معه، فذهب من جانبى فراش إلى دار الخواجه، وعاد ليخبرنى أن الخواجه بمفرده وأمامه كتاب يقرأه، وفى اليوم التالى عندما أقام المراسيم ثم أنهاها دار الحديث فى هذا الصدد، وكان الجميع يتبادلون النظرات، فقال الخواجه: أطال الله عمر السلطان! لا شك فى أنه لم يكن قد فكر فى هذا الأمر هذا اليوم، ولم يأخذ بعين الاعتبار رأيه السامي، وهو ليس بحاجة إلى رأينا نحن العبيد إلا من باب الأدب الذى أمر به الحق عز وجل النبي صلى الله عليه وسلم: وشاورهم فى الأمر، ...، وأعمل الفكر الليلة الماضية، وقلب الأمر على وجوهه، ولم يكن الأعيان أيضًا غافلين عن ذلك، فرأى الجميع أن من المصلحة ما يرى السلطان حول حل هذه القضية ثم خرج الجميع وجلسوا فى موضع من القصر كى يستطيعوا من هناك التحدث على سبيل المزاح أيضًا، فقال: إن هيبة مجلس السلطان كبيرة، وألقوا هذا الحديث فى مناظرته كى يستقر على رأى، فقال السلطان: حسن ثم خرجوا، وجلسوا فى موضع خالٍ، وتحدث فى هذا الباب الخواجه والأمير نصر قائد الجيش الذى كان شقيق السلطان، والحاجب الكبير التونتاش، والحاجب بكتغدي والحاجب على أيل أرسلان، والحاجب بلكاتكين، ومحمد أعرابى، والخواجه العارض، وبعض من حجاب البلاط، وقادة الحشم، والتفت الخواجه أولًا إلى قائد الجيش نصر وقال: ماذا يقول الأمير فى هذا الموضوع؟ قال: لا أقول شيئًا فى مثل هذا الموقف فهذا السلطان أخى، ولا يخفى علّى شيء من أحوالنا وعاداتنا، وقد أدبنا، والرجل العاقل هو الذى يتأنى ويفكر فى كل إشارة، وفى إحدى السنين قصد غزنه (ص٨٩)، فبعثت رسالة سألته فيها الوضع الذى استقر رأيه عليه، كى أعدّ له العدة، فأجاب: قم أنت بالعمل، فعندما يصوبون القوس فى ذلك الجانب ويرفعون العلم ويضربون الطبل يذهب الصوت حيثما يوجهونه، وقد قررت ألا أتشاور فى مثل هذه الأمور، وفى تلك السنة التى كان يذهب فيها إلى سومنات كان يريد أن يسير فى

واد ضيق ، فأبلغته أن ليس من الصواب السير فيه ، وإن ذهب فعليه أن يحتاط ، فلم يعرني أذنًا صاغية ، وثنى عزيمتى ، وحدث مثل ذلك الحال ، وبعث الله عز وجل بعد أن فقدت الأمل في هذا الملك ، وبعد ذلك فسد أمر الناس ، ومعلوم أنني كنت فى المؤخرة ، وخرجت من ذلك الوادى على أثره ، حتى عانيت كثيرًا ، وكان التونتاش معي.

وأشهد أننا كنا قد يئسنا من الحياة ، وعندما وصلنا إلى المعسكر ، ألقى بالملام علّي مما حصل وقال : إن نصرًا لم يراع جانب الاحتياط ، وكان ثملًا ، حتى وقع ذلك ، وأنا أقسم بالله عز وجل أنه قد مر أربعون يومًا دون أن أتذوق الشراب ، وهو أمر يسلكه دومًا ، وأنا العبد موجود حيثما كان حافر حصانه ، ولكنى سأبدى رأيًا بحكم الأخوة والشفقة : إن كان لا بد من الذهاب إلى خوارزم ، فعلى الملك أن يذهب بنفسه ، فهذا الأمر لا يستقيم بي وبأمثالى ولا بد من الذهاب مجهزًا ، وبحيث إذا اتحد جميع الأتراك ، فيمكن مقاومتهم ، فتلك الأرض خارج حدود دولتنا والناس كثيرون ، ونحن نقصدهم كى نسلبهم أرزاقهم وأرواحهم ، وسوف يحاربون ما دام فيهم رمق أو قوة ، ويجب إرسال الرسل والرسائل منذ البدء وإن سلم القتلة ، وضربوا على يد مثيرى الفتن ، فليقرر بأمره العالي كل ما يستحق ذلك السلطان ، من قراءة الخطبة باسمه ، وإرسال المال المقرر عليهم ، ومن الجيد أن نحصل على ولاية مثل خوارزم ، فإن لم يتصرفوا وفق ذلك فالاختيار للسلطان ويجب التصرف بموجب حكم المشاهدة والصلاح. فقال الوزير : لقد قلت ذلك بالأمس لأبى نصر أيضًا ولكني لا أمتلك الأمر النافذ فى مثل هذه الأحوال ، وليس الصواب سوى ذلك ، فالتفت إلى التونتاش وقال : ماذا يقول الحاجب؟ قال : لقد فكرت أنا أيضًا نفس التفكير ، فليقل أمير الجيش والوزير شيئًا فى صالح السلطان إذ المصلحة تفترض ذلك ، فالتفت الوزير إلى الاخرين وقال : ماذا تقولون أنتم؟ فقال الجميع بلسان واحد إن هذا هو الصلاح فنحن موافقون ، فطلبت دواة وقلمًا وقرطاسًا ،

وكتبت عريضة بذلك، وقدمتها وعندما (ص٩٠) قرأها قال: لقد علمت، ارجع، فليس هناك من أحد منكم يرغب في ازدياد حدود دولتي، وأنا نفسي أعلم ما يجب فعله، وقال عليك أن تقوم بعملك وأن تأمر بما يؤمر في حينه، فحملت جواب الرسالة ورجعوا، ثم دعاني بعد ذلك واختلى بي، وقال: لقد كنت قد فكرت فيما قالوه ولكن لا يجب أن أرد عليهم، ويجب كتابة رسالة إلى أرسلان جاذب في هذا الخصوص، وأن نعرض عليه كل ما دار في هذا المجلس مما رأينا، ومما رغب كل شخص وما قاله، فيعرض علينا ما يراه من المصلحة العامة تجاه الدولة، فكتبت هذه الرسالة وعرضتها، وبعث راكبين سريعين فأتيا بالجواب أن الجيوش قد أعدت على قدم وساق، وبعث رسولًا إلى خوارزم، وكتب الوزير على لسانه رسالة إلى هناك متوعدًا وناصحًا بأن السلطان صاحب الرأي ينوى التوجه إلى بلخ، وهذا الذى حدث بالأمس كان خطًا جسيمًا وعليكم تحمل تبعة ذلك، لماذا قتلتم أميركم الذى كان صهر الملك؟ ووصل بعد ذلك جواب أرسلان جاذب وكان قد كتب: لتطل مدة الوزارة! إن أمنيتنا أن تكون خوارزم واوركنج للسلطان وهما تابعتان للتركستان، وأنا لا أجرؤ أن أتحدث في هذا المجال، وقد حصلنا اليوم على حجة قوية كهذه، فإن رأى مولانا السلطان فلا ينبغى أن نفوت الفرصة ومن الواجب تأديب هؤلاء العصاة والقتلة، فهؤلاء القوم هم كقطيع بدون راع، وسيأخذهم الله عز وجل بالذنب الكبير الذى ارتكبوه، وسيكون للسلطان الرأى والمشورة فى رد هؤلاء البغاة، وهم لا مكانة لهم، ويتم الحصول على ولاية كبيرة، وما لم يقصد السلطان تلك المناطق فسيقصدها الأمراء الآخرون، ولا يتركونها على حالها، وحينئذ سيكون عيبًا كبيرًا أن يغنم أعداء الدولة العلية العديد من المواشى والأموال، وإن سقطت خوارزم بيد معارضى الدولة، فستظهر متاعب جديدة كل يوم، وقد قلت أنا العبد ما أعرفه على قدر علمى، ولم أر صوابًا ما ذهب إليه السلطان. وعندما تقدمت بالرسالة وعرضتها قال لى السلطان: هذا هو أرسلان

الرجل المخلص، وأعجب به للغاية، وقال لي: يجب عرض الرسالة على أمير الجيش والوزير والتونتاش. وفي اليوم التالي أجلسوهم في المدينة وعرضت تلك الرسالة وقلت: يقول السلطان إن أرسلان على استعداد لمحاربة هؤلاء، فماذا تقولون أنتم في ذلك؟ قالوا: لقد قال هذا الحديث على سجيته التركية، (ص٩١) ولكن المصلحة هي ما قاله العبيد، وما يأمر به السلطان سينفذ في الحال، ونحن عبيد له، وعلينا السمع والطاعة وكل ما يأمر به، ويراه صلاحًا، ففيه الصلاح، فقال السلطان: الرأى أن أتجه إلى بلخ، ومن هناك أتخذ الرأى معكم مما سيظهره الخوارزميون، إما الطاعة أو الدخول في حرب معهم، فبعث رسولًا من قبل الوزير ليأتي بالرد على الرسائل وبعد ذلك بحكم المشورة سنعمل ما يجب علينا، وقالوا: سنفعل ذلك، وبعث الرسائل إلى الولايات أن أعدوا جيوشكم، وسجلوا أسماء المشاة، وعندما حل موعد الانطلاق، تحرك السلطان إلى جوانب بلخ بجيش كثيف، وفيلة كثيرة، وكان فصل الشتاء قد حل ببلخ، وقد جاء مع جيوش جاهزة لا يخفى حالها، ووصل رسول من خوارزم، وجاء بجواب رسالة الخواجه التي أظهروا فيها الطاعة والعبودية وأحالوا ما وقع إلى القضاء والقدر، وطلبوا من الخواجه أن لا يبخل بعنايته وأن يتوسل إلى السلطان كي يصفح عن ذنبهم وأن يطلب من جلالة السلطان العودة كي يولوا شخصًا بأمره، وأن يضربوا النقود باسمه، وعاد هذا الرسول وعندما أبلغت خوارزم بقدوم رايات السلطان إلى بلخ حدث اختلاف كبير بينهم، فتجمعت الجيوش، وصمم جلالة السلطان على أن يقصد خوارزم بأقصى سرعة، وأمر في الحال أن ينطلقوا بسفن ترمذ[١٣٢] إلى نهر آمويه، وأبرموا العهود، وبعث إلى سيحون ستة آلاف فارس في نفس اليوم، وعاد رسول خوارزم ووضع السلطان شروطًا كثيرة أمام الخوارزميين لم يكن بإمكانهم بأي حال أن ينفذوها، وانطلق من بلخ بعد النوروز[١٣٣]، وعندما وصل آموى كانوا قد أعدوا الغدة بكل ما يستطيعون، وأعد البتكين الذى كان أمير الجيش الخوارزمي خمسين أو ستين

ألف رجل ، وأغلقت باب المفاوضات واستعد الطرفان للحرب : وانطلق السلطان من آمويه ، ووجه فى المقدمة محمد أعرابى بجيش من الأكراد والعرب ، وحمل البتكين من خوارزم ، وحمل بالجيش الذى كان معه حملة ما بعدها من حملة ؛ فقُتل كثيرون وجُرح محمد أعرابى ، وثبت نفسه على جدار ، ويعث ركبانًا مسرعين ، وشرح الحالة ، وقبل وصول الركبان كان السلطان قد تأهب واستعد ، وسير الجيش باحتياط وحذر. قال السلطان : إن قلبى يحدثنى وهو لا يخطئ أبدًا أن حادثة قد وقعت ، فوجه أربعة آلاف فارس برفقة أحصنة للهجوم (ص٩٢) وعندما ذهبوا ، وحان وقت صلاة الظهر ، جاء فرسان محمد أعرابى ، وأُخبروا بتلك الحادثة ، فتضايق السلطان ، وأسقط بين يديه ، وأراح الخيول قليلًا ثم جلس ، وذهب مسرعًا ووصل هؤلاء الفرسان أصحاب الأحصنة ولم يجدوا أحدًا فقد كان البتكين قد عاد عندما قام بهذا العمل ، وعندما أدرك السلطان محمد أعرابى ، لامه كثيرًا ، ونزل هناك ، ووصل الجواسيس ليقدموا تقريرًا بأن جيشًا ضخمًا خرج من خوارزم ، وأنه يتقدم بسرعة ، وقد أخذتهم الغفلة بهذا الهجوم الذى قاموا به ، فتجرؤوا كثيرًا ، ففكر السلطان ، ورغم أن الجيش الذى كان معه كان يكفى غزو التركستان كلها ، ولكن كيف يدخل هذه الأرض التى اعتبرها غريبة عليه وعلى جيشه ، وصلى أبو نصر الصلاة الأخرى ، وأفضى بما فى قلبه وقال : أرأيت ما فعل الخواجه بنا ، إنه عدو لى حقًا ، ومن واجب الوزير أن يسدى النصيحة للسلطان ، فلا بد للملوك من أن يطلبوا المزيد من الملك والنعمة ، ولكن على الوزير أن يشير إلى المصلحة ، وإن شئت استطعنا أن ننجز ذلك بالرسائل والرسل ، ولكنه قصد وحدث ما حدث فى ذلك اليوم ، وكان الهجوم بجيش كبير فى جو حار ، وفى بلاد بعيدة لا يمكن أن نعلم عاقبة الأمر ، فقلت : أطال الله عمر السلطان الظفر والنصر حليفنا دومًا بعز الدولة العلية ، ولم أكن أجرؤ على أن أقول إن الخواجه والعبيد الآخرين أدوا ما هو فى حدود عبوديتهم فى هذا الباب ، فقال لى : اذهب إلى الخواجه وقل له إنك قد أديت

كل ما كان بالعداوة وقبلت بالنصيحة ولم تنقل لنا هذه الحال، ورغم أن من الواضح أن فوجًا من جيشى يكفى هؤلاء الخارجين، أقسم بنفسى ورأسي أننى سوف أسترد منك كل ما فقدته فى هذا السفر عندما أعود، وإن هزم جيشى فسوف أنتزع جلدك. وغضب كثيرًا، وارتعدت فرائصى من شدة الخوف، ونادى أن أحضروا أبا الحسين عقيلي كى يكون هو المشرف، ويكون هؤلاء التاجيكيون (نسبة إلى تاجيك) صفا واحدًا ويكونوا متحابين فى الرسالة التى أبلغها ويجب عليهم الالتزام بسلوك حسن ولكننى لم أتحدث إذ لم يكن الوقت مناسبًا وجاء أبو الحسين، فقال له: لقد أعطيت رسالة لأبى نصر ليسلمها إلى أحمد حسن وشرحت فيها كل ما كان مقررًا أن يعمل أبو نصر مع الأشخاص من أجل إصلاح ملكى ويكون مشرفًا عليه، حتى يبلغ رسالتى باللفظ الذى سمعه، وشرح له الرسالة التى كان قد قالها لى وأعطاها (ص٩٣). فذهبنا إلى الخواجه، وعندما رآنا معًا قال: ما هذه الصاعقة التى أنزلتموها، ومن هو مبلغ الرسالة ومن المشرف؟ قلت: أنا بو نصر عندي الرسالة الصاعقة وهذا الرجل حر هو المشرف وبدأ من البداية بإرسال الرسالة بوجهها الحقيقي كما هو واضح. فضحك الخواجه وقال: إنه أمر طريف هذا الذى حدث لى مع هذا الرجل، وأنت يا أبا نصر الشاهد لى وأخوه وأولئك الأولياء والحشم الذين كان يتشاور معهم فى هذا التدبير ماذا قلت أنا فى هذا الباب؟، ولكن مهما يقال اليوم فإن فائدته أقل، فقولوا للأمير إن النتائج خطيرة، وأنه لا يمكن الإطاحة بالخوارزميين بسهولة، ولا يمكن السيطرة على ولاية كبيرة كهذه إلا بتعريض المال والرجال للخطر، ولا شك فى أن العدو قد وصل على مقربة منا، واليوم هو يوم القتال لا يوم الكلام، والمشاورة الصحيحة أن يرسل الناس كى يقهروا هؤلاء الكلاب، فهم ليسوا بخطرين كما يتصور، و إن أذن لى تقدمت أنا وتكلفت بالأمر، وعندما يتحقق ما نريد فإن أحمد حسن بين أيدينا، فليأمر بما هو مراد منا. ثم رجعت، وتعجبنا من شجاعة هذا الرجل، وأدينا الرسالة،

فاسمع جيدًا، ولم ينبس بينت شفة، وتحقق الفتح فى خلال الأيام العشرة تلك، وتحقق المراد كله، ولم يطلع أحد على سره.

قيل إن الخواجه أبا نصر مشكان حكى أنه عندما اضطرب أمر الخواجه أحمد حسن لم يجد كل ما قدمه من مال، فيئس، وعجز عن فعل شيء، وأرسل من الديوان إلى البيت، واستعمل عليه موكلون كثيرون، وصودرت أملاكه، واعتقل جميع أولاده وأقاربه وأعوانه، وجاءوا بالوسطاء والسعاة، وأخذ السلطان بإفاداتهم، وقد جدّ الحاجب علي قريب فى استئصاله، بحيث أن أحدًا لم يكن يجرؤ أن يتحدث عنه، وفى ذات يوم جاء عماد نائب الخواجه إلىّ ملثمًا وأبلغنى أن الخواجه يقول لقد يئست من الجميع، ولكني لم أيأس من فضل الله تعالى، وقد ارتبط قلبى بك يا أبا نصر فى أن تحفظ مصلحتى فيما يحدث فقد أتوا بسارغ كى يوكلوا أمرى إليه ليحملنى إلى القلعة، وطلبوا عبد الحميد من سرخس❖ كى يكون مستخرجى، وأنت تعلم أن ليس لى على هذه الأرض أعداء أشد من هذين الإثنين، فأجبت عمادًا وقلت: قل للملك إن الأمر هكذا كما يقول (ص٩٤) الخواجه، بل أسوأ من هذا، ولكنى سوف لا أنسى حقوقه الكبيرة علّي ما دمت على قيد الحياة، فمر على بين الحين والآخر، كى أخبرك بما يحدث، فعاد، وكان أمر هذا الخواجه يزداد تدهورًا وسوءًا يومًا بعد يوم حتى بلغ الأمر أن بالغ الموكلون، وأخذوا يحصون أنفاسه، فكان يعطى المال، وكانوا يعثرون على الودائع والوثائق، ووصل عبد الحميد وسارغ، فحرضهما السلطان أكثر، ونفخ روح العداء فيهما، ولكنهم كانوا يراعون هيبة الخواجه فى حضور السلطان، وقد كنت أريد أن أتحدث مع سارغ بشأن الخواجه فقد كان صديقى، وكنت أعتمد عليه فى أن لا يفشى السر، ولكن الفرصة لم تكن سانحة، ثم إن سارغ جاء إلى ديوانى فى المساء، وجاء أبو الحسن الكوفى برسالة المجلس العالى وهى أن على سارغ أن يعود كى يؤمر بما

ينبغي أن يؤمر به، وتحدث ... بشأن أحمد حسن كي لا ينخدع بالتاجيك، فقلت لأبي الحسن: سأفعل ذلك، ولكن قل للملك إنني لا أتدخل في أمر أحمد وغيره إلا في الحدود التي لا أبتلي فيها بسخط السلطان كما ابتلوا هم، فأنا لا أمتلك الجرأة كي أتحدث بشأنه، فبدأ سارغ، وأفصح عن مقاصده، وكنت اكتب حتى تم ذلك، وعندما فرغت وأردت أن أعرضه قال لي ساروغ في الخفاء: رغم أن الملك تغير كثيرًا بشأن الخواجه وتوعده في رسائل عديدة، ولكنه قال لي في أثناء ذلك سرًا أن حياته يجب أن لا تتعرض للخطر، وأكد عليّ ألا أقول ذلك لأحد، ولكني قلت لك ذلك يا أبا نصر، وأنا أعلم أن هذا الكلام سوف لا يخرج، فأجبت أن مولانا السلطان يرعى جانب الله تعالى في كل الأمور، وخشيت أن أتكلم بأكثر من ذلك فقد ظننت أن الأمير هو الذي لقنه ذلك كي يري ما أقوله، فقد كان السلطان ساحرًا من سحرة العالم في هذا المجال، فمضيت، وعرضت التماس سارغ، وتلقيت الأجوبة، فقال: تجب الكتابة الآن كي أوقع، وقال: ألم تقل شيئًا لسارغ حول أحمد حسن؟ قلت: لم يكن الملك قد أبلغني بما أقوله؟ وكان أبو الحسن الكرخي قد جاء بمثل هذه الرسالة. فقال: قل لسارغ: عندما تحمل أحمد، لا تقترب منه، ولا تنشغل بأخذ الرشوة، فأنا أوكلت (ص٩٥) أمره إليك لأني أعلم أنه كان عدوك، وعليك أن تسلخ جلده، وتسترد منه الأموال التي سرقها مني، وتعامله بكل قسوة بقدر ما تستطيع، وقد بلغت الرسالة، فقال: سمعًا وطاعة، وكتب ما كان ينبغي أن يكتب، وأكد بالتوقيع، وعدت إلى الدار، وكانوا قد أعلموا الخواجه بكل ما كان قد دار على الملأ، وجاء عماد وأبلغني أنه سمع ما دار اليوم، وأن سارغ كان في ديوانك، فخبرني بكل ما قلته، وقلت سرًا كل ما كان قد دار بيني وبين سارغ، وقلت: يجب القول للخواجه إن عليه أن يمتلك قلبًا قويًا، فحياته ليست معرضة للخطر، على كل حال، فقد أخبرني سارغ بمثل هذه الحكاية من السلطان، وعاد عماد بعد صلاة العشاء وقال: يقول

الخواجه، جزاك الله خيرًا فقد فعلت ما كان يجب عليك فعله، وقد قوى قلبى لأن حياتي ليست معرضة للخط، المال سهل، وأنا لا أبخل بكل ما أملك على نفسى، وعندما عاد فى اليوم التالى، أجلس عبد الحميد مع سارغ فى طارم، ودعانى السلطان، وأبلغ سارغ أن عليه أن يذهب غدًا، ويحمل أحمد راكبًا فهو له علينا حق الخدمة، ومن القبيح حمله مقيدًا، وعندما تخرجون من المدينة فثبتوا العهدة فى رقابكم، وأرسل عبد الحميد لاستخراج المال فقوّيده كى يحصل على المال وحملت الرسالة إلى طارم للإيضاح، فقال: أمر الملك حق، وأنا سأنفذ بكل عبودية كل ما يأمر به، فعادوا، وكنت أنا أبا نصر حزينًا للغاية لزوال هيبة هذا المهيب واحترامه، ولم أذهب إلى البلاط عند صلاة العصر، وذهبت إلى البيت ساهمًا وملولًا، وفجأة تقدم نحوى أحد خدام سارغ وقال: إن سارغ يتبعني ويقتفى أثري، فقلت: لم هذا التجوال؟ حيث أن السلطان قد أتى بألف تأويل، ووصل سارغ ورحب بعضنا بالآخر، قلت: لماذا تألم الأمير، ولماذا فعل ما لم يفعله أبدًا؟، وهو يعلم أن الملك رجل صعب، وكيف يمكن تفسير هذا المجيء وذلك الذهاب؟ فقال: غدًا أذهب، وأردت ألا أزيد فقلت: لقد جاء الأمير دون أن يأمر الملك؛ فضحك، وأديت التواضع المعتاد وقلت: هو نفسه الذى كنت قد ذكرت فيه، وأمرت أن يخلي المكان للالتقاء، فقال: كنت قد ذهبت لأداء الخدمة عند صلاة العصر، فطلبت الإذن، فدعانى وقال سرًا: نفذ كل ما أمرت به بشأن أحمد، ولكن يجب أن لا تتعرض حياته للخطر، وإن تعرضت أخذتك بذلك (ص٩٦)، فقلت: سأفعل ذلك، فقال: هل رأيت أبا نصر؟ قلت: رأيته فى الديوان، قال: يجب الذهاب إلى داره وزؤيته، يقول أبو نصر: قلت هل تعلم سبب إرسالك إلى هنا؟ قال: لا، فقلت: إنه نادم على عزل الخواجه أحمد ولا يريد أن تتعرض حياته للخطر، وكان يريد أن يتحدث عنه أكثر، ولكن همته وشرفه منعاه من ذلك، يريد منى أن أتحدث معك، أعلم أنه رجل محترم، وقد كان دومًا يفضل الملك على نفسه،

وقد كانا فى الكتاب معًا، وله حديث طويل، وهو لا يريد أن تتعرض حياته للخطر، وعليك أن تبدي مروءتك فى هذا الأمر، فاليوم له غد، ويجب الإحسان إلى هذا الخواجه، فهذا من شيم الرجال الأحرار، فقال: سأفعل ذلك وأكثر، ثم أخذ بيدي وتعاهد، فبعثت رجلًا، ودعوت عمادًا، وشرحت كل ما حدث، فذهب، وعاد، وجاء من الخواجه برسائل حسنة، وفى اليوم التالى جاء الخواجه إلى البلاط، وقبل العتبة، وذهب كما ذهب عبد الحميد وسارغ، واستدعانى السلطان فى اليوم التالى، وسأل فى حضور علي خويشاوند: هل جاء سارغ إلى بيتك البارحة؟ قلت: نعم، قال: أنا أعجب لمجيئه إليك فلم يكن ذلك معهودًا وقلت: أطال الله عمر الملك! إن سارغ رجل عاقل وحليم: ولم يأت دون أمر مولانا، فقال: ماذا قلتم؟ قلت: لم نقل شيئًا، إذ لم يدم الأمر سوى لحظة واحدة حتى احتفيت به واحتفى بي، وكأن بعضنا لم ير الآخر، ثم دعا للمجلس العالى، ورجع، وبعد أن مر شهر، كان يتناول الشراب ذات ليلة، وأجلسني بقربه، وكان يتحدث بفنون الأحاديث حتى أخذ يتحدث عن المعرفة بالأعمال الديوانية، ثم قال: سوف لا يكون لى وزير كأحمد، فقد كان رجلًا كفوءً ومشفقًا، ولكنه كان متطاولًا كثيرًا، فقلت: ليهنأ عيش مولانا! لقد عالج الأمور كما كان يتمناه الملك، فقال: ماذا يفعل سارغ بأحمد؟ قلت: يفعل ما يأمر به الملك، فقال: لقد أمرناه سرًا أن يحفظه، وقال: عندما جاء سارغ إليك ألم تنصحه من نفسك؟ قلت: أطال الله عمر مولانا! لقد فعلت، فقد علمت أنه لا يأتى إلى دارى دون أمر من الملك، وقلت له كذا وكذا، قال: حسنًا فعلت عندما تحدثت على هذه الشاكلة.

(ص٩٧) وعندما حملوا الخواجه أحمد إلى ولايته، سلبوه كل ما كان لديه، وأرسلوا بعد ذلك الصابونى العالم، حتى أحضروه فى المسجد الجامع، وأخذوا منه أيمانًا غليظة بأنه لم يتبق لديه من صامت وناطق فوق الأرض وتحتها، وكان سارغ قد أبدى الكثير من المروءة حتى لاموه فى ذلك كثيرًا، ولم

يكن الأعداء ليتركوه، وكانوا يريدون أن تزهق روحه، وقالوا إنه ما يزال يمتلك مالًا كثيرًا و أنه أخفاه، وأن قسمه كاذب، واتهموه بعدم رعاية العهود، حتى انضموا إلى بيت حريم ابن السلطان الأمير عبد الرزاق، أضافوا إليه حديث غلمان القصر وخارجه حتى ضيّق السلطان عليه كثيرًا، وأمر بأن يؤتي به إلى قلعة كرديز❖، وأرسلوا هناك حصيرى العالم، وأبا الحسن سيارى، وطاهر مستوفى كى يقولوا له الكلام الذى قيل فى حقه، وأن يجيب على ما نسب إليه لنبلغ به المجلس الأعلى، ووضعوا عند كل فرسخ راكبين كى يحملوا الرسائل، ويحضروا الجواب بسرعة، وفى كل لحظة تصل فيها رسالة كان السلطان يزداد غضبًا، ويجيب عليها، وطأطأ الخواجه أحمد رأسه، وكان يجيب أجوبة مفحمة، ولم يستطيعوا أن يعكسوا بشكل صحيح الأحاديث التى كانوا قد قالوها فى حقه، فقد كان يقدم أجوبة غليظة حتى خجل منه السلطان والآخرون، وعندما عجزوا من جميع الوجوه أمر السلطان بكتابة رسالة إلى أبى بكر حصيرى بأن من الواجب أن كل ما قيل فى حقك كان كذبًا، وبعثت الأجوبة، ومر الأمر، ويبقى شيء واحد، وقد كنا نكتمه كي لا يبقى أى عذر، وسنأخذك به، وهو جزاؤك، وهو أن الوزير الذى يتجاوز رصيده ثلاثين ألف ألف درهم لا بد وأن يكون فى فساد عظيم، وقد وصل حتى الآن من جهتك إلى الخزانة ثلاثون ألف درهم ونيف على رسم الهدية، وثلاث دفعات أقمشة وأشياء أخرى تقدر بثلاثين ألف ألف درهم من الملبوسات وقد أخذت من الخزانة، واليوم ولأنك قد تعرضت للمصادرة (ص٩٨) فقد أخذوا منك سبعين ألف درهم ونيفًا، فإن لم تكن تسعى للتدخل ولم تكن تبغى أن تسيطر على الحكم فلماذا كل هذه الأموال التى جمعتها؟ عليك أن تصدق القول فيما كنت تفكر فيه، وإذا لم تقل الصدق فإنك تكون بذلك سعيت لإنهاء حياتك، وكتب أحمد الجواب خلف الرسالة، ووصل الجواب وقد كتب فيه أن أمر جلالة الملك كان كما كتبه ذلك العبد بخط يده، كتب كى يحاط علمًا به، أن العبيد اللذين

يجمعون الأموال والآلات وخاصة العبد الذى يشغل هذا المنصب الذى كنت أتولاه إنما يصنعون الذكر الحسن وجاه الملك، وهو لا ينفع عبدًا مسكينًا وخاصة الوزير، وقد كنت أنا العبد أسمع من الملك فى الخلوة ومجلس الشراب حديث الرى❖ وتلك المناطق التى كان يسكنها الأكراد والأتراك، وكنت أعلم أن جلالته يفكر فى احتلال الرى فليس ذلك الرجل بمستطيع احتلال بغداد، فلم يبق أحد فى تلك الديار ليكون له اعتبار، وأيضًا كان من عادة الملك المعروفة أنه يمنح المائتين والثلاثمائة ألف دينار بإرادته فى مجلس الشراب، ولقد جمعت تلك الأموال كى آخذها معي عندما يقصد الملك تلك الديار وأنفقها فى تشييد الملك، وذكره الحسن، ولا أقول أني سأهبه له، فسآخذ إزاء كل دينار أعطيته من مالى ثلاثة أضعافه لأنني لا أملك خزانة مدينة الرى، وقد كنت قد جمعت هذا المال فى سبيل ذلك، لقد قلت الحق، وإذا رأى أعدائى تأويلًا آخر لذلك فسيكون حسابهم مع الله، والدليل الأوضح أن الله مطلع على أعمالنا فى الأرض، ومنذ أربعين سنة وهو يرانى ومطلع على أفعالى، وعند تركى هذا المنصب لا يستطيع أحد أن يطعن فى ذمتى وأنا بريء مما يقال عني. هناك ملاحظة أخرى علّي أن أقولها: لماذا خنت عبدي؟ هل كنت تريد ملكًا أكبر من محمود يستوزره؟ وأنا أعلم حال وزراء السامانيين، فالعبودية والخدمة مني والحشمة والمال زيادة منهم، فلينظر الملك بعين عظمته، وبكلام هذا العاجز لا بغضب الحاسدين والأعداء، والسلام، وعندما قرأ السلطان هذا الجواب، لم يجب طبعًا، ويقول أبو نصر مشكان أنني قد أديت ما يوجب الشكر والرضا والرحمة واستحسن هذا الكلام. وأجاب بأن على قريب قد حضر، وقد كان هو العدو الأكبر للخواجه، فقال السلطان (ص٩٩): هل رأيت يا علي جواب احمد حسن وماذا كتب بشأن المال؟ وتأكد لي أن هذا الكلام قد أعجبه، ثم التفت إلي وقال: إن ما باعه أحمد ما هو إلا حفنة من الذى لا طائل فيه، وماذا يقول العاجزون؟، ومثل ذلك الكلام يستوجب أن يراق دمه جزاء له بما فعله.

ولكن لا ينبغي لي أن أسفك دم أحد دون حجة ، ثم إن هذا الرجل أخذ بيدى في عهد الشباب وصقل أخلاقي ، فيجب كتابة رسالة إلى حصيرى كي يحلّفوه مرة أخرى بحضور تلك الجماعة على أن شيئًا لم يتبق ، فإن عثر على درهم واحد عنده استحللنا دمه ، وأخذ خطه على كتاب القسم ، ورجعوا ، ويجب القول لكوتوال[١٣٤] كرديز أن يحتفظ به مع الاحتياط ، وكتب الرسائل بهذا الصدد ، وهدأت تلك القضايا ، وبعد فترة أوكله السلطان في الخفاء بعيدًا عن الأعداء إلى شخص اسمه بهرام الذى كان من خواصه ، كي يحمل إلى وادي كشمير عند جنكى[١٣٥] شخصيًا ، كي يضبطه في قلعة كالنجار من قلاع الهند ، وبعد ثمان عشرة سنة وعندما انقضت وزارته للسلطان ، وبقي محبوسًا في قلعة كالنجار وبعد وفاة السلطان أمير على قريب والسلطان محمد الذى جلس على العرش بعثوا في طلبه كي ينتقموا منه ، فلم يبعثه جنكى قائلًا إن السلطان أودعه لدي وأكد أن لا أسلمه لأحد ، وعندما وصل السلطان مسعود إلى غزنه ، أرسل شخصًا في طلب الخواجه ، وعزم السلطان مسعود على الذهاب إلى بلخ ، وكانوا في بلخ عندما أبلغوا خبر الخواجه أحمد واستقبل جميع أركان الدولة وأولياء الحشمة مسافة منزلين أو ثلاثة منازل ، يقول أبو الفضل البيهقى الذى هو مصنف مقامات أبى نصر مشكان أنه في اليوم الذى كان فيه الخواجه يدخل المدينة كان الخواجه أبو نصر مشكان قد خرج أيضًا للاستقبال وكنت معه وعندما وصل إلى الخواجه كان في هودج ، وأراد الخواجه أبو نصر أن ينزل ، فأقسم عليه الخواجه ، ومد يده ، واحتضنه ، وسأله بحرارة قائلًا : هل نسيتني؟ فقال الخواجه أبو نصر : يعلم الله أنني لم أفعل ، وقال أيضًا : هو كذلك ، لا يمكن العثور على رجل أكثر منك صدقًا والتزامًا بالعهد ، وأنا أمزح ، وتقدم الخواجه أبو نصر إلى يسار الهودج ، وكانوا يسوقون وهم يتحدثون حتى وصلوا إلى جلالة الملك ، ثم ذهبوا ، وأدي الخواجه أدب الخدمة ، وحظى بالتكريم إلى أبعد الحدود ، والحفاوة ، وعاد موفور الكرامة ، وعندما ارتاح ، ومر أسبوع

(ص١٠٠)، كان الحديث يدور حول الوزارة، وبالطبع فإنه لم يكن يذعن، وكان أبو سهل الزوزني بين المهام وكان يدير الجلسات السرية مع السلطان مسعود، أجاب أحمد: إنني أصبحت عجوزًا، ولا يتأتى هذا العمل مني، ويجب تولية أبي سهل الوزارة، كي أشير أنا من بعيد إشارة التي يجب أن أقوم بها: قال أبو سهل: أين أنا من الوزارة، أنا لا أستحق سوى أي عمل فأجاب: إنك وصلت من دامغان إلى الأمير، أليس من الواجب أن تقوم بكل الأمور؟ قال: نعم لقد كان العمل يمضي بغير انتظام، وكان كل شخص يقوم بعمل، واليوم عندما وصل الملك ضرب على الأيدي وقال: لقد فكرنا في هذا الأمر، وفي خلال أسبوع وصلت خمسون أو ستون رسالة بخصوص الوزارة، ولم يكن يذعن مطلقًا، وذات يوم جاء للخدمة وعندما أراد الرجوع طلب منه أن يجلس، واختلى به، وقال: لماذا لا يذعن الخواجه للعمل؟ إنه يعلم أنني أحل محل أبي، وأمامنا اليوم مهام كثيرة، فليس من الواجب أن يبخل علينا بكفاءته، قال الخواجه: أنا عبد مطيع، وروحي رهن إشارة الملك، ولكنني هرمت، وعجزت عن العمل، كما أنني نذرت بالأيمان أن لا أقوم بأكثر من هذا العمل، لقد تعذبت كثيرًا، قال السلطان: سنكفر عن قسمك ولا بد أن تساعدنا، قال: إن لم يكن هناك إذن بقبول شغل الوزارة هذا، فليأمر جلالة الملك بأن أجلس في طارم وأبعث الرسالة التي معي بيد معتمد إلى المجلس العالي، وأسمع الجواب، وأنصرف حينئذ حسب أمر مولانا إلى العمل، قال: حسن، أي معتمد تريد؟ قال: أبو سهل الزوزني الذي بين العمل، والآخر أبو نصر مشكان فهو رجل مستقيم وصادق وكان بين رسائلي التي يكتبها لي، قال: كلامك صحيح، وفي طارم وصلت رسالة، واختلى، وجاؤوا برسالة من عند السلطان مفادها: إنك رأيت في عهد أبي الكثير من العناء بالنسبة لي، وتحملت متاعب كثيرة، ومن العجيب أنهم تركوك حيًا، وكان بقاؤك من أجل عهدي، وعليك أن تقبل على العمل، فذلك يليق بحشمتك، والتلاميذ والأعوان موجودون

والجميع يعملون مثلك، قال الخواجه: أنا أيضًا قد أذعنت، ولكن لهذا العمل شروط، وإذا ما قبلت جميعها، وأمر السلطان بذلك، فسوف يخرج هؤلاء الخدم كلهم عليّ مرة أخرى، ويعادونني، ويلعبون نفس اللعب التى كانوا يلعبونها فى عهد السلطان السابق، وفى هذه الحالة سوف أقع فى بلاء كبير وأنا شيخ عجوز، واليوم حيث (ص١٠١) لا يعاديني أحد وبالى فارغ إن لم أؤد شروط الخدمة ولا أخون فسأكون بذلك معذورًا عند الله والملك، وإن كان ولا بد من القيام بهذا العمل فسوف أقبل كل شروطه، فإن أجبت ومكنت فسوف أقوم بما هو واجب من الشفقة والنصيحة، يقول الخواجه أبو نصر: ذهبت أنا وأبو سهل الزوزني، وأبلغنا رسالة السلطان، فقال السلطان: قل للخواجه إنني سوف أوكل جميع أعمالى إليك إلا اللهو والشراب وصيد الخنازير والحرب، وسوف لا يكون هناك أى اعتراض على رأيك، فعدنا، وحملنا الجواب، فبعث الخواجه الجواب وقال: سمعًا وطاعة، سأعود، وأكتب المواضعة، كى تعرض غدًا على جلالة الملك، وتقدم الأجوبة عليها وتؤكد بخط صاحب الجلالة وتوقيعه، فجئنا وقلنا للسلطان، فقال: حسن، عليك أن تنجز هذه الأعمال غدًا، وفى اليوم التالى جاء الخواجه، وأدي فروض الخدمة، وعندما رجع، وسأله السلطان عن المواضعة، فقال: جئت بها، وأعطانى أياها، فقدمتها، وقرأها، وكتب السلطان بخطه أجوبتها، وأكدها بالتوقيع، وهذا هو نص تلك المواضعة والأجوبة وكتاب القسم:

الجواب المواضع: هذه مواضعة كتبتها أنا العبد كى تعرض فصولها على صاحب الجلالة زاده الله علوًا، وتحت كل فصل جواب، كى أقوم أنا العبد بالوزارة بقلب قوي، وتكون كدستور يرجع إليه، فلا يمكن إزعاج المجلس العالى أدام الله اشرافه فى كل وقت وحال، وولي الخير والخير مما فيه الفلاح بمنه وسعته وفضله.

المواضعة: لا يخفى على جلالة الملك السلطان العظيم ولى النعم أطال الله بقاه أن اختيارى أنا العبد أن أنشغل فيما بقى من العمر بالدعاء للدولة العالية شرفها الله التى تفضل بها عليّ أنا العبد، وأنقذها من مخالب البلاء بهذه العظمة، لأنى أنا العبد أصبحت عجوزًا وضعيفًا، وكنت أفكر أحيانًا بالتوبة، وترك أعمال الدنيا، ولكن لأن أمر الملك يقتضي أن أقوم بعمل الوزارة، فما حيلتنا نحن العبيد سوى الطاعة، ولذلك فقد انشغلت بهذه الخدمة، وأنجزت بمقتضى العبودية (ص١٠٢) هذا العمل الكبير، فإن بدر تقصير فى بعض الأعمال لا ذنب لي فيه فأنا معذور.

الجواب: منذ عهد طويل ونحن نعرف الخواجه الفاضل أدام الله تأييده ونراه، وحقوقه على هذه الدولة ليست بخافية، ويجب ألا يشغل البال بمثل هذه الأبواب، ويجب بذل كل ما فى الوسع، فلم يبد منه سوى الأمانة والمناصحة، وسوف لا نعاتبه فى أى وقت وفى أى حال على عمل لا يرغب هو فيه.

المواضعة: لا يخفى على صاحب الرأى العالى زاده الله علوًا أن الوزير هو ضيعة الملك، وهو لا بد أن يقدم له المثال فى كل الأمور، وسيد العالم أدام الله سلطانه هو ملك وقائد، ولكن هناك أشياء لعلها لا تخفى على صاحب الرأى العالى وأنا العبد لا يمكننى أن أخون فى أى حل، فلا مناص من بيانها، وحسادى وأعدائى يرسمون لى وجهًا آخ، وهو أننى اعترض على صاحب الآراء العالية، فيحتالون بها فى تغيير صورتي، ويجب أن أكون فى مأمن من ذلك، وأن يتقرر أن ما أبينه من هذه الأبواب فيه الصلاح.

الجواب: يجب التحلى بقوة القلب فى هذه الأمور، فمثل هذه الأحوال لا يمكن أن تخفى علينا، يجب العمل بقلب قوى، وبيان ما فيه صلاحنا وصوابنا باستمرار سواء بخصوص الأولياء والحشم وأصناف الجيش أم الأعمال والأموال

أم الأولاد الأعزاء ومهمات الملك، فأنا أعلم أن ما يديه فيه صلاح، ولا يجرؤ أحد في مثل هذه الأمور أن يكون فعّالًا ما لم يكن مستقر القلب.

المواضعة: تروننى أنا العبد أتحدث عند عرش الملك فى باب الأعمال والأموال كلما تجاسر أحد، والأعمال هي التي تصنع الناس، والأوامر والأحكام والتوقيعات هي التي تأخذ في باب الأموال، ومن جمع الأموال فإن ضرر ذلك كبير للغاية وما رأى جلالتكم لنعمل معًا لصالح المملكة؟ حتى لا يقع ضرر بين رجال الدولة. وإذا وقع المحظور فلا يحمد عقباه، ومن أراد أن يجمع الأموال فإن عليه أن يرجع إلى بشأنه (ص١٠٣)، كي يتبين صوابه وصلاحه، وذلك لأنه إن بقى على الحالة التى هو عليها الآن فسيظهر خلل كثير ليس اليوم بل غدًا، كي يتم النظر جيدًا في هذا الأمر.

الجواب: عندما توجهنا إلى هذا الجانب من أصفهان، فكرنا فيما سيحصل لنا من متاعب، وكيف نعمل لحلها؟، فإذا وجدنا من يعترض على أمر ما كنا نقوم بالإجابة على أسئلته إرضاء له، لأن الأمور فى الدولة لم تستقر بأيدينا بعد، أما اليوم فقد تغير الحال، واستقرت الأمور على قاعدتها الأولى والحمد لله، وزالت جميع الهموم، وتغير الأمر، ولا يستطيع أحد الآن أن يتحدث لدينا سوى أرباب العمل، ويجب الاطمئنان إلى أن الأوامر تصدر مني مباشرة، ويجب تنفيذ هذه الأوامر الصادرة مني ومن الخواجه الفاضل فى المقام الثاني، أما الآخرون فهم عبيدنا وليس بأيديهم أى شيء، وإذا أراد شخص أن يخرج عن حدود موضعه وشغله، فيجب أن لا نرضى بأى حال، وإن قاموا بقلب الحقائق وبلغ ذلك مسامع الخواجه فعليه رد ذلك، أما إذا قالوا بالحقيقة فعلي الخواجه العمل به.

المواضعة: إن ديوان العرض وديوان الوكالة هما ديوانان كبيران، والذين يعملون بهما يجب أن يكونوا أشخاصًا يختارهم ملك العالم أدام الله سلطانه، وهؤلاء عندما يتولون المناصب ولهم منزلة رفيعة فى الدولة يجب أن أكون رقيبًا علي حساباتهم طول فترة عملهم كى لا تحدث مبالغات فى هذين العملين لأننى أتعامل مباشرة، فيجب أن يكون الحكم فى هذا المعنى كى يقف متولو هذا الشغل عند حدودهم وأقدارهم، ويستمعوا إلى الحكم العالى وأوامري أنا العبد، كى لا يقع خلل، والله الهادي إلى طريق الرشاد.

الجواب: جرت العادة على أن يدور الحديث فى هذه الأبواب مع الوزير، وقد رأينا أن أبانا جذا حذو الآباء الماضين أنار الله برهانهم، ولم يضع لهذين الديوانين لوائح وقوانين، ولم يرشح لهما المتولين، والهدف أن تهيأ القوانين المنظمة لذلك ومن ثم يكون الحديث عن الدواوين الباقية، والآن وقد استقر الأمر فلنتشاور مع الخواجه الفاضل فى هذا الباب، ويلزم هذين المنصبين رجلان (ص١٠٤) كفؤان يقومان بالعمل مباشرة، ورغم أنهما خدمنا وعبيدنا إلا أنهما تلامذتك، فيجب الاقتداء بك، ويجب أن يكون الخواجه الفاضل عليمًا بدخلهما وخرجهما وحلهما وعقدهما وقبضهما ويسطهما كى لا يقع خلل، وإن لم تسر الأمور على هذا المنوال، ورأى الخواجه الفاضل ذلك فيجب أن لا يرضي بذلك أبدًا، ولا يعاتب الوزير بذلك، وأولياء الحشم نصرهم الله يمتلكون كلهم ولايات ونعمًا كثيرة ورواتب مجزية، ولا تضيق عليهم في النعم حتى يؤدوا عملهم على الوجه الأكمل ولا يتسببوا فى تعطيل الإدارة، وظلم الناس والتدخل فى حياتهم، ويرضوا بما يملكوا من النعم التى قسمتها لهم، وإذا لم تستقر الأمور على هذا المنوال، فسوف يحدث الضرر العام على بيت المال وموارد دخل الدولة، وخاصة عندما تريد حماية الأجيال القادمة من هذا الفساد، هكذا نكون قد أغلقنا طريق الظلم والفساد الإدارى أمام الولاة ولم نيسر لهم بعد ذلك الاستيلاء على أموال الناس، ويجب ألا يفكر الخواجه

الفاضل فى هذا الباب، ويجب عدم التعاون معهم كى لا يحتموا به، ويجب عليك تطبيق القانون الإدارى عليهم وعدم المسامحة بأى حال، وإذا وجد بعض القبائل دون مسئول وحدثت لهم مشاكل فعليك إبلاغنا بذلك حتى نقوم بالواجب نحوهم.

المواضعة: جرت العادة على أن ينعم سيد العالم أدام الله سلطنته على أصحاب البريد والمشرفين على العبيد والخدم، ويجب أن يمروا من ديوانى أنا العبد كى يكون هناك أشخاص أمناء ومعتمدون اختارهم أنا العبد لأنى عليم بأحوالهم كى يقتصدوا ولا يأخذوا المزيد من المال وأكون الرقيب عليهم ويعملوا بما أصدر لهم من الأوامر.

الجواب: قد أجبنا الخواجه الفاضل أدام الله تأييده فى هذا، وكتبنا ما هو مرسوم يقول أبو سعيد مسعود بن محمود(١٣٦) نقسم بالله الغالب الرحمن الرحيم أننا سنلتزم بعهدنا هذا مع أبى القاسم أحمد بن حسن بأن لا نغير رأينا الحسن عنه، ولا نصغي إلى أقوال معانديه وحاسديه وأعدائه ما لم تصدر منه خيانة سافرة وواضحة فى الملك، وأشهدنا الله عز وجل على ذلك، وكفى بالله شهيدًا، بخطه وتاريخه.

(ص١٠٥) وأما نص القسم الذى نطق به الوزير فهو: إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، أقسم بالله، وبعهده، وبالإله الذى يعلم سر الخلق وعلانيتهم، وبالإله الذى بعث الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين إلى الخلق بالحق، بأن أكون أنا أبو القاسم أحمد بن حسن صادقًا بالقلب والنية مع سيد العالم السلطان الكبير أبى سعيد مسعود بن محمود أطال الله بقاه، وأن أوالى أولياءه، وأعادى أعداءه، وأن أسعى كل السعي فى ما هو

لصالحه وصالح أولاده، وأوليائه، وحشمه، وأصناف جيشه، وماله وملكه، وأن لا أنشغل بالمضايعة والمداهنة، وأن أسير بالعدل فى منصب الوزارة الذى اعتمد علّى فيه، وأن لا أخون بأخذ مال لنفسى عن طريق الرشوة، أو أن آخذ مال الغير لآخر، وأن أبذل كل جهدي فى تنظيم الإدارة والمحافظة على الأموال الثابتة والمنقولة وأن لا أتفق مع أولاده وأمراء جيشه وحشمه، وأن اسعى كل السعى من أجل إزالة كل ضرر يلحق به وبملكه، وإن كان لا بد من التكلم مع شخص من المعارضين أو مع الأعداء المعارضين لدولته أو المؤيدين مثل الحكام وملوك البلدان المجاورة أو مكاتبتهم فعلّى أن أقوم بذلك بأمر من جلالة الملك، وأن لا أعمل شيئًا فى الخفاء يعود بالفساد على حياته وملكه، وإذا لم أوف بهذه الشروط الواحدة تلو الأخرى فإني أكون بذلك قد ابتعدت عن الله عز وجل وعن حوله وقوته، واعتمدت على حولى وقوتى وما حصلت على الأموال والأملاك فترة حياتي، وإذا لم أوف بقسمى سوف أتنازل عن أموالى وأملاكى وحتى أحرر كل الجوارى والغلمان الذين أمتلكهم كما يحق له طلاق زوجاتى، وبذلك يكون قد وقع عليه ثلاث طلقات، ومن ثم يوجب عليه أداء ثلاث حجات والذهاب إلى مكة حرسها الله، وإذا أديت هذه الحجات لا أطمع فى نيل ثوابها، أما إذا أردت إعادة أموالى وأملاكى والجوارى والغلمان والزوجات فعليه أداء ثلاث حجات أخرى، وقد أشهدت على نيتى فى هذا الأيمان سيد العالم السلطان المعظم (ص١٠٦) أبا سعيد مسعود بن محمود أطال الله بقاءه، والله عز وجل، وكفى بالله شهيدًا وذلك فى يوم كذا.

والخلاصة فإن مناقب هذا الوزير ومآثره كثيرة للغاية، والحكايات عنه لا حصر لها، وهي مذكورة فى كتاب مقامات أبى نصر مشكان إن أراد أحد الإطلاع عليها كلها، وقد عمل الخواجه أحمد وزيرًا للسلطان مسعود لمدة سنتين ونصف، وفى نهاية المطاف التحق بالرفيق الأعلى.



وذكر عقيلي بعد ذلك فى آثار الوزراء قسمًا من كتاب مقامات أبى نصر مشكان وهو كالتالى:

حكاية: حكى الخواجه أبو نصر مشكان قائلًا: فى تاريخ تسع عشر وأربعمائة دعانى السلطان محمود ذات يوم واختلي بي، وكان يتحدث معى عن كل فرح وترح، وقال فى أثناء ذلك: جرت العادة أنه عندما يعزل وزير، وتسلب منه النعمة كلها، ثم يعيدونه ويولي الوزارة مرة أخرى، فهل يمكن أن نتوقع صدقًا وأمانة من هذا الشخص بعد أن تجرع كل هذا الأذى والجفاء؟، فقلت أطال الله عمر الملك! إن كان غرض الملك شيئًا فليقل وإذا أردت أن أوضح لك فاسأل حتى أوضح لك أكثر، فقال: أريد منك أن تبين لي كما قرأت وتتذكر، والآخر حديث أحمد حسن الذى اعتقد أنه مادام حيًا فلن يرى وجهى، ولا يبدأ بأى خدمة، ويجول فى خاطرى أن الله تعالى قد قدر أنه ينال رضانا، ونعطيه منصب الوزارة، ويتهمنا الناس بضعف الرأى، فهل سيكون صادقًا معنا بعد أن تألم قلبه، وأصبح فقيرًا، ورأى الكثير من الجفاء؟ قلت: أطال الله عمر الملك، سأوضح بعض الأمور فى هذا الباب مما هو قريب منا، علينا أن نعلم أن الأمور جرت على هذا المنوال مادامت الدنيا قائمة وهو أن الملوك كانوا يغضبون علي العبيد ثم يعودون ليرحموهم ويعفوا عنهم، وينعموا عليهم باللطف، وإن شاؤوا أعادوا إليهم مناصبهم ولم يكن هناك من عيب فى

ذلك، كما لا يقع عليك حرج، (ص١٠٧) وقد فعل ذلك خلفاء بني العباس، ففي عهد المقتدر بالله عزل علي ابن عيسى ثلاث مرات من الوزارة ثم أعادوه إليها، وكان هناك أشخاص آخرون منهم قد عزلوا مرة ومرتين وثلاثًا، ثم ولوهم ثانية، كما حدث في عهد السامانيين أيضًا أن عزلوا أبا جعفر الديلمي مرة ومرتين، وأرسلوه إلى سمرقند وفرغانة❖، ثم أعادوه وعفوا عنه، ولم يظهر منه سوى المناصحة والصدق، والآن فلينظر الملك بقلبه، ليفعل ويأمر بما يروق له أكثر، قال: إن أحمد رجل كفء، وقد انجز عملًا كبيرًا بعلم وخبرة، وكان خاطري يميل إليه حتى عزل، وقد بقي ألم كبير في نفسي من ذلك، ولكن أولياء حشمي هؤلاء هم أعداؤه، وعندما رأوا سوء رأيي فيه، ارتكبوا بحقه ما استطاعوا من سوء وعداء، ولم يقصروا في ذلك، وأنا أخشى، وأفكر في أنني إذا أعدت إليه منصب الوزارة رغم أنه لا يجرؤ على أن ينشغل بالانتقام الظاهر، ولكنني لا أستطيع أن أحيط علمًا بباطنه، وأوليائي وحشمي يخشونه، ولذلك تحنق عليّ قلوب الجميع، وأن أؤذي شخصًا واحدًا وأجعله يحنق عليّ أولي من أن أخيف عالمًا بأكمله وأسيء ظنه.

قلت: الأمر كما فكر فيه الملك، وهو والحمد لله ليس بحاجة إلى أي وزير ومعين، فالملك هو الذي يقرر مراتب الوزارة بل جميع الأعمال، ولكن يلزمنا على كل حال وزير وواسطة لا تتيسر الأمور إلا به، ولا يمكننا الابتعاد عن المرسوم، فما الذي فكر به الملك في هذا الباب؟ قال: في اليوم الأول الذي عزل فيه أحمد، استقر قلبي على العارض أبي القاسم كثير فهو رجل من أسرة الوزارة وله رأي ووجاهة وقد اكتسب الحشمة في خدمتنا، ولكني خبرته لسنتين، وأرى أنه لا يحسن هذا العمل، كما أن منصب العرض سوف يفسد إن هو خرج منه، قلت: مولانا الملك محيط بعبيده فما هو رأيه؟، قال: فعيّن لنا من خدمنا من يليق بهذا المنصب؟ قلت: أطال الله عمر الملك، إن هذا الأمر ليس هينًا، ولا يمكن البت فيه في مجلس واحد، فإن رأى صاحب الجلالة رتبنا مجلسًا

يحضره جماعة من محتشمي الحشم فى ديوان طارم كى يتشاوروا فى هذا الباب، ويكتبوا أسماء الأشخاص الذين يليقون لهذا العمل، ويعرضوها كى يقع الاختيار على واحد منهم، فقال: هذا هو الصواب، اطلب فى الحال من أرسلان جاذب وعلى خويشاوند ويلكاتكين وبكتغدي أن يتواجدوا فى طارم، وحملني السلطان رسالة إليهم فى هذا الباب وهي أن الأمور لا تستقيم بدون الوزير، وأنني لن أوكل هذا المنصب لأحمد فى أى حال، وأن العارض تقع على عاتقه مسؤولية خطيرة، وهو لا يحسن هذا العمل (الوزارة) فما الصواب (ص١٠٨) الذى ترونه؟ وتبادلوا أنواع الحديث، وذكروا حكاية عن كل شخص، فطلبت دواة، وكتبت أولًا اسم أبى الحسن سيارى، ثم طاهر مستوفى وأبى الحسن عقيلي، ثم حسنك وأحمد عبد الصمد وزير التونتاش، فقالوا نحن نعرف هؤلاء، وحسنك له العدة والعدد الكثير، وعندما حملت هذا المحضر إلى السلطان، فكر لفترة ثم قال: أبو الحسن سيارى حسن وكفء ولكني لا أحب رداءه وعمامته، وطاهر مستوفى رجل أمين ومعتمد ولكنه بطئ وأنا متعجل وأريد أن تسير الأمور بسرعة، وأبو الحسين عقيلي رجل حسن الطالع، وقروي الطبع، ويعرف جيدًا أحوالنا وعاداتنا، وأنا نفسي كتبت له رسالة وأكن له الحب، ولا أرضى فى أى حال أن يكون بعيدًا عن مجلسنا، وحسنك شاب، ورغم أنه يفهم بشكل جيد عاداتنا ولكنه لم يتتلمذ فى أى ديوان، فما رأيكم أن يولي هذا المنصب، لأنه سبق أن عمل نائبًا عن السلطان فى مدينة نيسابور بشكل جيد، ولكن ماذا سيقول الناس عني عندما أعدل عن كل هؤلاء الخدم المسنين اللائقين، واختار لهذا الأمر شابًا؟ والوزير التونتاش رجل جلد وكفء، ومن المناسب توليته هذا المنصب، ولكني سأراعي شعور التونتاش فلا يحق لأحد غيره الوزارة، ولكنني بقيت متحيرًا فى هذا الأمر، وحملت هذه الرسالة إلى طارم، وسمعها الجميع، وفى اليوم التالى استدعي حسنك، وقام بما كان ينبغي القيام به، وألبسه خلعة لم يلبس مثلها وزير قبله، وأنعم عليه بالوزارة،

ولكن السلطان ما لبث أن ندم، فقد اعتبروا وزارته من الأخطاء التى ارتكبها، وظل فى هذا المنصب حتى آخر عمر ذلك الملك وخاتمة أمره، وعندما أجاب السلطان دعوة الحق، قدم ابنه الأصغر السلطان محمد من جوزجان، وجلس على العرش، وفوض الوزارة إلى حسنك، وتخلي عن السلطان مسعود الذى كان فى العراق فى ذلك الوقت، تأييدًا للسلطان محمد، حتي قال أمام الملأ ذات يوم: يجب شنق حسنك عندما يصبح مسعود ملكًا، وبطبيعة الحال، فعندما انتزع السلطان مسعود الملك من أخيه وجلس على سرير السلطنة، قتل حسنك فى نيسابور بحجة أنه لبس خلعة المصريين، وأنه قرمطي(١٣٧) وباطني.

الهوامش

يبدو أن الأستاذ سعيد النفيسى قد سقط منه سهوًا أثناء عرضه لسيرة المؤرخ الكبير أبى الفضل البيهقى من كتاب تاريخ بيهق بعض الأبيات الشعرية والنصوص المكتوبة باللغة العربية وللأمانة العلمية نقلت هذه النصوص والأبيات فى الهوامش رقم ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ المترجم.

(١) قال: أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمى فى سنة احدى وأربعمائة، قال: أخبرنا جدى إسماعيل بن نجيد، أخبرنا عبد الله بن حامد، أخبرنا أبو بشر إسماعيل ابن إبراهيم الحلواني، أخبرنا على بن داود القنطرى، أخبرنا وكيع بن الجراح أنه قال: إذا أخذت فألًا من القرآن فأقرأ سورة الاخلاص ثلاث مرات أو المعوذتين وفاتحة الكتاب مرة ثم خذ الفأل.

ابن فندق، أبو الحسن على بن زيد بيهقى المعروف بابن فندق: تاريخ بيهق، باتصحيح وتعليقات مرحوم أحمد بهمنيار استاد دانشكاه، ومقدمه

مرحوم علامة ميرزا محمد ابن عبد الوهاب قزوينى، كتاب فروشى فروغى، چاپ افست مروى، بدون تاريخ، ص ١٧٥.

(٢) كان فيها هذان البيتان:

هنيئًا لكم أهل غزنه قسمة — خصصتم بها فخرًا ونلتم بها عزا

دراهمنا تجبى إليكم وثلجكم — يرد إلينا هذه قسمة ضيزى

ابن فندق: المصدر السابق، ص ١٧٦.

(٣) قال: عبد لكاني الزوزنى فى هذه المجاعة هذه الأبيات:

لا تخرجن من البيوت لحاجة أو غير حاجة

والباب أغلقه عليك موثقـًا منه رتاجه

لتقتنصك الجائعون فيطبخوك بشور باجه

نعوذ بالله من هذه الحالة.

ابن فندق ، المصدر السابق، ص ١٧٦.

(٤) ومن منظومه قوله:

جرمى قد أربى على العذر — فليس لى شيء سوى الصبر

فأسر عنى خاطرى كله — لانفق الأيـام فى الشكر

ابن فندق، المصدر السابق، ص ١٧٧.

(٥) ويزعم أبو الحسن أن قاضى غزنة حكم عليه بالسجن فى نهاية حكم عبد الرشيد لأنه كان يحفر الأختام بما يخالف القانون، وعندما أُخرج البيهقى من السجن الذى سجنه فيه القاضى وحبس فى القلعة قال هذين البيتين:

كلما مر من سرورك يوم   مر فى الحبس من بلائى يوم
ما لبؤسي وما لنعمى دوام   لم يدم فى النعيم والبؤس قوم

هذا النص أيضًا قد سقط من النصوص الأصلية للأستاذ نفيسى مع أنه قد أخذ هذا الخبر من دائرة المعارف الإسلامية، كما أورده المؤرخ بارتولد (Borthold) من كتاب تاريخ بيهق وفيه خبر دخول أبى الفضل البيهقى السجن بأمر من قاضى غزنة.

ابن فندق: المصدر السابق، ص ١٧٨ ؛ دائرة المعارف الإسلامية المترجمة، أصدرها باللغة العربية أحمد الشنتناوى وإبراهيم زكى خورشيد وعبد الحميد يونس، دار المعرفة، بيروت، ١٩٣٣، مج٤، ص ٤٣٣.

(٦) ترجمة وشرح الأبيات فى ص ١٠.

(٧) نيسابور: مدينة من مدن خراسان، ذات فضائل حسنة وعمارة، كثيرة الخيرات والفواكه والثمرات، جامعة لأنواع المسرّات، وعتبة الشرق، مجمع العلماء ومعدن الفضلاء، وكانت عاصمة معظم الدول المستقلة التى قامت فى المشرق مثل الدولة الطاهرية، ولما دخلها إسماعيل بن أحمد الساماني، قال: يا لها من مدينة لو لم يكن بها عيبان! قيل: ما هما؟ قال: كان ينبغى أن تكون مياهها التى فى باطن الأرض على ظاهرها، ومشأيخها الذين على ظاهرها فى باطنها.

ونيسابور فى العصر الغزنوى أصبحت من المراكز الثقافية فى خراسان حيث اهتم السلاطين والأمراء بإنشاء المدارس العلمية والمذهبية منذ تأسيس دولهم، إلى أن كانت هذه المدينة من اهتمامات الوزير نظام الملك حيث أنشأ بها مدرسة سميت بنظامية نيسابور لها وزنها وثقافتها كما كانت لبقية المدارس التى سميت بالنظاميات.

القزويني: زكريا بن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ص ٤٧٣ - ٤٧٧.

أيرانشهر: تأليف مجموعة من المؤرخين، تهران ١٣٤٢ ش، ١٩٦٣م، المجلد الأول، ص ٩١٦.

(٨) بخارى: مدينة قديمة على أرض مستوية، من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها، وكانت تضم خمس أحياء يدور عليها حائط سعته اثنا عشر فرسخًا فى مثله، ليس فيها أرض بائرة، وكانت قاعدة ملك السامانية، وبها البساتين الكثيرة والفواكه الطيبة التى كانت تحمل إلى مرو، وأجمع المؤرخون على أنها من أجمل المدن بحيث إن البصر لم يقع إذا ما أشرف عليها إلا خضرة متصلة بخضرة السماء، والقصور فيها تلوح كالنواوير، وعمارتها تملأ الأرجاء، وهى مبثوثة بين البساتين، وكان بها من المساكن والمحال ما ليس له نظير، وكانت محصنة، وبها قلعة يسكنها ولاة خراسان، إذ هى كانت تابعة لخراسان، وإن كانت بأيدى السامانيين، وبعد استيلاء الغزنويين على خراسان ومدينة نيسابور، قسم الغزنويون والقراخانيون الأسلاب فيما بينهم حتى أصبح لكل دولة حدود، فالدولة الغزنوية حددت بالأجزاء الجنوبية وجنوب غرب نهر جيحون، بينما حددت الدولة القراخانية بالاجزاء الشمالية وشمال شرقى نهر جيحون، وبذلك أصبحت بخارى عاصمة للقراخانيين، مع هذه التطورات السياسية والتاريخية لم تفقد مدينة بخارى أهميتها العلمية والثقافية، فقد كانت مجمع الفقهاء ومعدن الفضلاء، ينسب إليها الشيخ الإمام قدوة المشايخ محمد بن إسماعيل البخارى صاحب الصحيح الذى هو أقدم كتب الأحاديث، وكان وحيد عصره وفريد دهره، وله من الكتب التاريخ الكبير، والتاريخ الصغير، وكتاب الأسماء والكنى، وكتاب الضعفاء وكتاب السنن فى الفقه، ومن علماء بخارى أيضًا أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا الحكيم البخارى، وهو من

كبار الموسوعين فى التاريخ والطب والفلسفة، ومن أهم كتبه كتاب الشفاء، وكتاب الإرشادات فى الفلسفة ، وكتاب القانون فى الطب.

لمزيد من المعلومات انظر :

- القزوينى: زكريا بن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ص ٥٠٩- ٥١١.

- شامى، يحيى (دكتور): موسوعة المدن العربية والإسلامية، دار الفكر العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٣م، ص ٤٠٩ — ٤١١.

(٩) طخارستان: ويقال طخيرستان: وهى ولأية واسعة كبيرة تشتمل على عدة بلاد، وهى من نواحى خراسان، وهى طخارستان العليا والسفلى، فالعليا شرقى بلخ وغربي نهر جيحون، وبينها وبين بلخ ثمانية وعشرون فرسخًا، وأما السفلى فهى أيضًا غربي جيحون إلا أنها أبعد من بلخ وأقرب فى الشرق من العليا، وقد خرج منها طائفة من أهل العلم.

ومن مدن طخارستان: خُلم وسمنجان ويسلان وغيرها أما أكبر مدينة بطخارستان طالقان، وهى مدينة فى مستوٍ عن الأرض وبينها وبين الجبل غلوة سهم.

الحموى: ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٢.

(١٠) بلكاتكين: هو أحد قادة الغزنويين، تولى الحكم بعد وفاة أبى اسحاق إبراهيم بن البتكين، وفى الفترة التي لم يكن هناك من يرث حكم الغزنويين من آل البتكين، وقع اختيار رجال الدولة والأعيان على القائد بلكاتكين ليرث هذه الدولة فى الظروف التي كانت تعايش الأخطار الخارجية والداخلية، ولكن هذا القائد أثبت فترة حكيمه أنه كان محاربًا وجريئًا لخوض الحروب مع الأعداء ويحقق الانتصار عليهم فى جميع مواقعهم، وكذلك أرسى

أثناء حكمه العدل والمساواة بين أبناء شعبه، وهذا ما جعله محبوبًا بينهم لما حقق لهم الكثير من الرفاهية والأمن والاستقرار. حكم بلكاتكين عشر سنوات حتى سنة ٤٦٣هـ حيث توفى فى هذه السنة أثناء انشغاله فى حصار گرديز.

أستاذ خليلي: سلطنت غزنويان، مطبعة عمومي كابل، ٢٢ ميزان ١٣٣٣هـ.ش، ص٤.

(١١) كابل: عاصمة أفغانستان حاليًا ولكن فى القديم كانت ولاية بين الهند وغزنة، ونسبتها إلى الهند أصح، عرفت بالنارجيل والعود والزعفران والإهليلج لأنها متاخمة للهند، وأهل كابل قبل الفتح كان معظمهم من التتار والترك والتركمان، كما كان بعضهم من العرق الهندى، كما زعمت الهند أن الشاهية لا تنعقد إلا بكابل، وأن كان بغيرها فلا يصير واجب الطاعة حتى يصير إليها ويّعقد له الملك هنا. كما يجلب منها النوق البخاتى وهو أحسن أنواع الابل.

ومن أبرز معالم كابل زاوية الشيخ إسماعيل الأفغانى تلميذ الشيخ عباس، من الأولياء، مسجد بلوخشتى من أكبر مساجد المدينة، ومسجد سنكي وهو من آثار شاه جيهان، وكذلك مسجد عروس الفلك الذى بناه السلطان محمود الغزنوى، كما أن هناك مساجد ومواقع أثرية أخرى تنسب إلى هذه المدينة.

أما العلماء المحدثين الذى نسبوا إلى كابل فمنهم، أبو مجاهد على بن مجاهد الكابلى الرازى، وكذلك أبو الحسين محمد بن الحسين الكابلى، وأبو عبد اللّه محمد بن العباس الكابلى الذى حدث عن إبراهيم بن إسماعيل بن محمد المعقب وأحمد بن حنبل، روى عنه أبو عبد اللّه محمد بن مخلد الدورى وقد توفى سنة ١٧٢هـ.

لمزيد من المعلومات انظر:

- الحموى: ياقوت، معجم البلدان، المجلد الرابع، ص ٤٢٦، ٤٢٧.
- القزويني: نفس المصدر، ص ٢٤٣.
- شامي: يحيى (دكتور)، موسوعة المدن العربية الإسلامية، ص ٢٤٢، ٢٤٣.

(١٢) داور: وهى ولاية واسعة ذات بلدان وقرى مجاورة لولاية رُحج وبُست والغور، يعرف باسم زمين داور، وهو الاسم الذى أطلقه البلدانيون العرب على ناحيتها. وهذه هى التسمية الفارسية، ويقابلها بالعربية أرض الداور أو بلد الداور. ومعنى هاتين التسميتين واحد، هو أرض الأبواب أى دروب الجبال. وكانت هذه البلاد فى القرون الوسطى خصبة عامرة كثيرة السكان، بها أربع مدن جبلية، هى درتل ودرغش وبغنين وشروان، ولها قرى ورساتيق عديدة، وأكبر مدن هذه الناحية درتل أو تل، على ما كتب الإصطخرى اسمها، والظاهر أنه يطابق المدينة التي وصفها المقدسى باسم الدوار وقال «الدوار»: كبيرة طيبة وهى ثغر جليل عليها حراس مرتبون.

لمزيد من المعلومات انظر:

- الإصطخرى: أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى المعروف بالكرخي، مسالك الممالك، طبع فى مدينة ليدن المحروسة بمطبعة بريل ١٩٢٧، ص ٢٤٤، ٢٤٥.
- لسترنج: كي، بلدان الخلافة الشرقية، نقله إلى العربية بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مطبعة الرابطة بغداد، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م، ص ٣٨٤.

(١٣) قصدار: ناحية مشهورة قرب غزنة، وهي أيضًا عند ياقوت الحموى قزداد وأنها من بلاد الهند، وكلا القولين من كتاب السمعانى، ويذكر أبو نصر العتبى فى كتاب اليميني أن قصدار من نواحى السند، وهو الصحيح، وتاريخ هذه الناحية (قصدار) يبدأ بظهور الغزنويين فى هذه النواحى فقد سيطروا على غزنة، وكابل وقصدار. ثم انطلق سبكتكين من ببست بعد فتحها لغزو بلاد الهند وعاد إلى غزنه منتصرًا ولكن جيبال أحد ملوك الهند رأى فى هذا الاستيلاء تهديدًا لملكه، وعلى الفور قامت الحرب بينهما وانتهت بهزيمة جيبال وطلبه الصلح على مال يؤديه إليه، ولكن سبكتكين استمر فى غزو بلاد الهند مستهدفًا إعلاء كلمة الله ونشرًا لدينه بين أتباع الوثنية، فكانت النتيجة أن دخل كثير من الهنود فى الإسلام، بالإضافة إلى أن هذه الحملات كانت ترجع منصورًا يحمل من الغنائم الهندية ما لم يسمع بمثله حتى عظم حجم جريرته، وعمرت أرض خزانته، وأشفقت النفوس من هيبته.

لمزيد من المعلومات انظر:

- الحموى: المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٥٣.

- العتبى: أبو نصر محمد بن عبد الجبار، تاريخ اليميني - جزءان
- وبه شرح الشيخ أحمد بن على الحنفى المينينى المتوفى ١٧٧٢م وسماه الفتح الوهبي على تاريخ أبى نصر العتبى - ١٣٨٦هـ، ج١، ص ٨٥، ٨٦.

- الخولي: محمد مرسي (الدكتور): أبو الفتح البستى حياته وشعره، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٠م، ص١٥—١٧.

(١٤) باميان: بلدة وكورة فى الجبال بين بلخ وهراة وغزنة، بها قلعة حصينة، وهى ناحية بين خراسان وأرض الغور، بها بيت فى الهواء وأساطين

نقش عليها صور الطير، وفيه صنمان عظيمان من الحجر: يسمى أحدهما سرخ بت، والآخر خنك بت، وقيل: ليس لهما فى الدنيا نظير، كما قيل: وما عرف خاصية البيت ولا خاصية الصنم. خرج من هذه المدينة جماعة من أهل العلم، منهم: أبو محمد أجيد بن الحسين بن على بن سليمان السلمي الباමياني، كذلك ينسب إليها الحكيم أفضل الباමياني، كان حكيمًا فاضلًا عارفًا أنواع الحكمة، طلبه صاحب فارس أتابك سعد بن زنكي فى بعض أمور الفلك وعندما أنجز له ذلك أكرمه وأحسن إليه.

لمزيد من المعلومات، انظر:

- الحموى: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٣٠.
- القزوينى: المصدر السابق، ص ١٥٤.

(١٥) بلاد الغور: جبال وولاية بين هراة وغزنة وهى بلاد باردة واسعة موحشة وهى مع ذلك لا تنطوي على مدينة مشهورة، وأكبر ما فيها قلعة يقال لها فيروز كوه يسكن ملوكهم فيها، ينسب إليها أبو الفتح محمد بن سام الملقب بغياث الدين، كان ملكًا عالمًا مظفرًا فى جميع وقائعه، وقد بنى مدارس ورباطات وكتب بخطه مصاحف ووقفها عليها، وينسب إليها أبو المظفر محمد بن سام الملقب بشهاب الدين، كان ملكًا عادلًا حسن السيرة. كان يقعد حتى يفصل قاضيه الحكومات بحضوره، ومن مات أو قتل من مماليكه وعليه دين لا يقطع معيشته حتى يستوفى الدين.

لمزيد من المعلومات انظر:

- الحموى: المصدر السابق، ج ٤، ص ٢١٨.
- القزوينى: المصدر السابق، ص ٤٢٩، ٤٣٠.

(١٦) كاشغر: مدينة منغولية واقعة فى أقصى الغرب من البلاد، قريبة من تاجكستان إلى الغرب، وكشمير إلى الجنوب، وهى على حافة صحراء

تكامكان، فيها العديد من الآثار والمساجد الإسلامية.

وكاشغر من المدن التي كان يسافر إليها من سمرقند، وكانت وسط بلاد الترك وأهله مسلمون، ينسب إليها من المتأخرين أبو المعالى طغرل شاه محمد ابن الحسن بن هشام الكاشغرى الواعظ، سمع الحديث، وطلب الأدب والتفسير، وكان مولده سنة ٩٤هـ، ومن الذين نسبوا إلى كاشغر أبو عبد اللّه الحسين بن على بن خلف بن جبرائيل بن الخليل بن صالح بن محمد الألمعى الكاشغرى، كان شيخًا فاضلًا وواعظًا، له تصانيف كثيرة، سمع الحافظ أبا عبد اللّه محمد بن على النصورى، وروى عنه أبو نصر محمد بن محمود السرمدى الشجاعى، صنف من الحديث ما يزيد على مائة وعشرين مصنفًا، مات ببغداد سنة ٤٨٤هـ.

لمزيد من المعلومات، انظر:

- شامى: المرجع السابق، ص ٤٢٧، ٤٢٨.

(١٧) بلخ: مدينة عظيمة من أمهات بلاد خراسان، كان بها النوبهار، وهو أعظم بيت من بيوت الأصنام، لما سمع ملوك ذلك الزمان بشرف الكعبة، زينوه بالديباج والحرير والجواهر النفيسة، ونصبوا الأصنام حوله، والفرس والترك تعظمه وتحج وتهدى إليه الهدأيا، وكان البرامكة سدنة هذا البيت قبل الإسلام، ولما دخل الإسلام خراسان بُعث الأحنف بن قيس إلى النوبهار فخربها.

وبلخ مدينة عريقة المجد عرفت بأخلاق أهلها وشجاعتهم وعقلهم، وجودة رأيهم ونبل همتهم، وحسن معاشرتهم، وحرصهم على قضاء الحقوق، وعرفت بلخ بجمالها وهندسة بنائها، وكثرة خضرتها وأنهارها، ولم يكن لها نظير فى الحسن فى ذلك الزمان إلا دمشق الشام، ولم يكن بأقاليم العجم مثلها حسنًا ويسارًا، وكان يحمل من غلاتها إلى جميع خراسان وإلى

خوارزم. كما كان يحمل من غلاتها فى كل سنة مال عظيم إلى السلطان زائدًا عما يحتاج إليه.

وإلى بلخ ينسب جماعة من أهل العلم والفضل منهم أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخى، عالم الفلك الشهير وصاحب الأحكام النجومية، فاق علماء عصره فى علم النجوم، وأبو زرعة الرازى، ومحمد بن زكريا، ومن الذين انتسبوا إلى بلخ مولانا جلال الدين الرومى البلخى المعروف بالمولوي صاحب ديوان الشعر الكبير «مثنوى» الزاخر بالحكمة والمعرفة والعرفان والتصوف.

لمزيد من المعلومات انظر:

- الحموى: المصدر السابق، ج١، ص ٤٧٩، ٤٨٠ .
- القرويني: المصدر السابق، ص ٣٣١ - ٣٣٥ .
- شامى، يحيى (دكتور)، المرجع السابق، ص ٢٣٦، ٢٣٧ .

(١٨) الباطنية: هذه الكلمة مشتقة من كلمة باطن كما يدل على ذلك اسمها. والباطنية هم الذين يأخذون بالمعنى الباطن للكتاب ويجعلون لكل تنزيل تأويلًا. وقد أطلق مؤلفو العرب اسم الباطنية على فرق عديدة متباينة كان لها شأن سياسى هام، وأهمها: الخرمية والقرامطة والإسماعيلية. وهذه التسمية اطلقت أيضًا على فرق ليست من فرق المسلمين، إذ يعد منهم المزدكية وهى فرقة مانوية أسسها مزدك وظهرت فى عهد الملك الساسانى قباذ بن فيروز.

وذكر الباطنية فى كتبهم أن الإله خلق النفس، فالإله هو الأول والنفس هو الثانى، وهما مدبرا هذا العالم وسموها الأول والثانى، وربما سموها العقل والنفس. ثم قالوا إنهما يدبران هذا العالم بتدبر الكواكب السبعة والطبائع الأربع. وهذا شبيه بقول الثنوية بأن النور والظلمة يدبران أمر العالم.

ويقال إن دعوة الباطنية أول ما ظهرت فى زمن المأمون وانتشرت فى زمن المعتصم، ويقال إن الخرمية تحالفت مع الباطنية ويقولون إن أول من أسسها

جماعة، منهم محمد بن الحسين الملقب بذيذان وميمون بن ديصان في سجن والي العراق. فأسسوا في ذلك السجن مذاهب الباطنية، وابتدأ ذيذان بالدعوة من ناحية فدخل في مذهبه جماعة من أكراد الجبل المعروف بالبدين، ثم رحل ميمون ابن ديصان إلى ناحية المغرب وانتسب هناك إلى عقيل بن أبي طالب. ودخل في دعوته قوم من غلاة الرفض والحلولية.

وخلاصة القول إن فرقة الباطنية يسمونها في العراق القرامطة والمزدكية كما يسمونها في خراسان التعليمية والملحدة، كذلك أطلق اسم الباطنية أيضًا على بعض الصوفية. وعلى هذا فلا يوجد مذهب عام يقابل هذه التسمية بل لكل فرق منها مذهبها الخاص. ومع هذا فإن الباطنية مذهبهم على هذا النحو يكون قريبًا جدًا من مذهب الإسماعيلية.

لمزيد من المعلومات انظر:

- دائرة المعارف الإسلامية، ج ٣، ص ٢٩٠.
- الأمين: شريف يحيى، معجم الفرق الإسلامية (بحث موسوعي مبسط)، دار الأضواء، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص ٥٠، ٥١.

(١٩) منصور بن نوح: هو أبو صالح منصور بن نوح بن نصر الملقب بـ «الأمير السديد» كان حكمه (٣٥٠هـ - ٣٦٦هـ)، وقد تولى الحكم بعد وفاة الأمير عبد الملك بن نوح سنة ٣٥٠هـ بعد مبايعة الجند والحشم له، ولكن ظهر عدم الوفاق بين بعض الأمراء وكبار رجال الدولة حول البيعة خاصة أن البتكين لم يكن من المبايعين فقد كان في هذه الفترة يشغل منصب كبير الحجاب وكان يميل إلى أبناء الأمير عبد الملك بن نوح المتوفى في توليه الحكم من بعد أبيهم، ولا يرغب في توليه منصور بن نوح الحكم، وعندما حصل الخلاف بينه وبين كبار رجال الدولة، خرج من نيسابور ومعه غلمانه يريد الجهاد في سبيل الله

وفتح بلاد الهند، وليس ثائرًا كما تصور البعض بما كان يملك من موارد مالية وضياع وقوة بشرية المتمثلة فى غلمانه، إلا أن ذلك أدى فى النهاية إلى نجاح البتكين باقتحام غزنة والتحصن بها منذ سنة ٣٥٠هـ، وكانت البداية لنشوء الإمارة الغزنوية بقيادة البتكين، ثم تأسيس الدولة الغزنوية فى عهد الأمير سبكتكين ٣٨٧هـ.

وخلاصة القول إن الدولة السامانية فى عهد الأمير منصور بن نوح قد اتسمت بالضعف السياسى والإداري فى انحاء خراسان. وفقد السامانيون ولاياتهم الجنوبية ولم يتمكن هذا الأمير من التوسع واعادة نفوذه إلى تلك الولايات بسبب قوة البويهيين من جهة وحدوث بعض المشاكل الداخلية من جهة أخرى.

لمزيد من المعلومات، انظر:

- النرشخى: أبو بكر محمد بن جعفر، تاريخ بخارى، ترجمة أمين عبدالمجيد بدوى، نصر اللّه مبشر الطرازى، القاهرة ١٩٦٥م، ص ١٣٢، ١٣٣.
- ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج٨، الصفحات ٥٣٥، ٥٤٢، ٥٤٤، ٥٦٤، ٦٢٦، ٦٧٣.
- أبو على مسكويه الرازي: تجارب الأمم، حققه وقدم له الدكتور أبو القاسم إمامي، دار سروش للطباعة والنشر، طهران ١٣٧٩ ش - ٢٠٠٠م، ج٦، ص ٢٣١، ص ٣٥٤.

(٢٠) أبو الحسن سيمجور: هو أبو الحسن محمد بن إبراهيم سيمجور، أحد القادة الأتراك البارزين فى الدولة السامانية، وقد تقلد قيادة جيوش السامانيين بخراسان فى عهد الأمير أبى الفوارس عبد الملك بن نوح بن نصر (٣٤٣ - ٣٥٠هـ) ومن بعد الأميرين أبى صالح منصور بن نوح بن نصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) وأبى القاسم نوح بن منصور (٣٦٦- ٣٨٧هـ). يشير المؤرخون أن الفترة التي ولى فيها أبو الحسن سيمجور قيادة الجيوش بخراسان قد اشتدت

الصراعات بين القيادات السامانية بعد مقتل الوزير بكر بن مالك، والقصة كما يرويها الكرديزي: (أن بكر بن مالك قدم فى رمضان سنة ٣٤٥هـ إلى بخارى ليقدم ولاء الطاعة للأمير عبد الملك وليتسلم الوزارة، وبعد أدائه المراسم، أراد أن يرجع إلى مقره، كان افتكين الخازن على يمينه والبتكين على يساره، فطلب أن يركب فطرحه البتكين الحاجب على الأرض وأعملوا فيه السيف والحربة حتى قتلوه على باب السلطان ..).

بعد أن ارتكبوا هذه الجريمة عينوا أبا جعفر بن محمد الحسين وزيرًا، كما أسند لأبى الحسن محمد بن إبراهيم قيادة جيوش خراسان، ولكن أبا الحسن استغل هذه الوظيفة فى نيسابور استغلالًا سيئًا، حيث ارتكب مظالم كثيرة، فلم يجد الناس حلًا لهذه المظالم إلا تقديم الشكوى إلى الأمير عبد الملك بن نوح فى جمادى الآخرة سنة ٣٤٩هـ، الذى قرر عزله من قيادة الجيوش فى خراسان، ليولى هذا المنصب لأبى منصور محمد بن عبد الرزاق، ثم تنازع أمراء الدولة فيما بينهم فأبعد يوسف بن إسحق عن الوزارة، وأسندها لأبى على محمد بن البلعمى، ليسند قيادة جيوش لالبتكين الذى وصل إلى نيسابور ٠٢ من ذي الحجة سنة ٣٤٩هـ كان بين البتكين وأبى على البلعمى عهد على أن يكون كلاهما نائبًا عن الآخر، ولم يفعل البلعمى أى عمل مطلقًا دون علم أو مشورة البتكين، بعد وفاة الرشيد (عبد الملك بن نوح) تولى الحكم الأمير أبو صالح منصور بن نوح، ولم يكن على وفاق مع البتكين فعزله وأسند قيادة جيوش خراسان لأبى منصور محمد عبد الرزاق، وقد ركز هذا القائد جهوده فى القضاء على تمرد البتكين.

لمزيد من المعلومات، انظر:

- الكرديزي، المصدر السابق، ص ٢٥٥ - ٢٦٠.
- العتبى، المصدر السابق، ج١، ص ١٢٥ - ١٣٤.

- النرشخي، أبو بكر محمد بن جعفر: تاريخ بخارى، ترجمة أمين عبدالمجيد

- نصر اللّه مبشر الطرازي، القاهرة ١٩٦٥م، ص ١٣٣ ، ١٣٤ .
- الحديثي، قحطان عبد الستار (دكتور) الدولة العربية في العصور العباسية المتأخرة (الحركات الانفصالية في أيران)، مطبعة جامعة البصرة، ١٩٨٧م، ص٢٨٢— ٢٩٠.

(٢١) وقعت هذه الحوادث في عهد منصور بن نوح باتفاق المؤرخين، ومن المدهش أن يقع المؤلف في مثل هذا الخطأ.

(٢٢) «أمرستان» في الأصل، وقد صححتها إلى الأمير سياه، استنادًا إلى السياق. يقول ابن الأثير في هذه الواقعة التي حدثت في سنة ٣٥١هـ إن البتكين هزم جيش منصور بن نوح، وأسر قادته وكان خالد منصور (في النص خال منصور) من بينهم، چاپ ليدن، ج٨، ص ٤٠٤.

(٢٣) ذكر المؤرخون أن الاسم الآخر لهذا الملك «لويك» واعتبروه أمير غزنة ومن المرجح أن يكون من أسلاف الكوشانيين الذين كانوا يحكمون دومًا في هذه المناطق، ضبط اسمه في سياست نامه (كوبك) وفي زينة المجلس ذكر أن اسمه أمير على كوبك.

(٢٤) روى هذه القصة محمد العوفي أيضًا في جوامع الحكايات ولوامع الروأيات، ولكنه ذكرها في باب محاصرة غزنة وكتب (دجاج) بدلًا من «منّين من التبن والدجاج».

(٢٥) بُست: مدينة قديمة في أفغانستان الحديثة على الشاطئ الأيسر لنهر هلمند إلى الجنوب مباشرة من الموقع الذى يتصل بنهر أرغنداب، وموقع هذه

المدينة حسن جدًا لوقوعها فى الزاوية التي بين هذين النهرين حيث تلتقى الطرق الآتية من الغرب، أى من هراة وزريخ لتعبر نهر هلمند ثم تتابع سيرها إلى بلوخستان والهند، أضف إلى ذلك أن بست واقعة فى البقعة التي يصبح النهر فيها صالحًا للملاحة.

ودخلت بست فى حوزة المسلمين، على يد عبد الرحمن بن سمرة، ويظهر أنها كانت فى عهدهم هذا قاعدة حربية ضد الأمراء المستقلين بالبلاد المجاورة لمدينة بست من ناحية الشرق الذين كانوا يلقبون بـ «رتبيل»، واعتبر العرب أحيانًا مدينة بست من أعمال سجستان، وفى عام ٣٦٦هـ استولى سبكتكين مؤسس الأسرة الغزنوية على مدينة بست، ويظهر أن العهد الغزنوى كان أزهى عصور المدينة فى عهدها الإسلامي، وفى عام ٤٤٧هـ أفلح قواد عبد الرشيد فى أن يلحقوا الهزيمة بسلاجقة داود وألب ارسلان الذين أغاروا على سجستان بالقرب من بست. وأصيبت أملاك الغزنويين بعد ذلك بقرن بالضربة القاضية، فقد اكتسح علاء الدين جهان الغورى مملكة بهرام شاه وضرب عاصمتها بست وقضى بذلك على ما كان لها من ازدهار.

ينتمي إلى هذه المدينة بعض العلماء وجماعة من أعيان الفضلاء منهم: الخطأبى أبو سليمان أحمد بن محمد البستى صاحب معالم السنن وغريب الحديث وغير ذلك، وكان من الأئمة الأعيان، ومن أشهر الشعراء والسياسيين لهذه المدينة أبو الفتح البستى الذى رأس الوزارة لناصر الدولة سبكتكين، وكذلك نسب إلى هذه المدينة أبو حاتم محمد حبان بن معاذ بن معبد بن سعيد التميمي العالم الفقيه، ومن بين مؤلفاته، صحيح ابن حبان، (التقاسيم والأنواع) ومشاهير علماء الأمصار، وروضة العقلاء وكثير من المؤلفات الأخرى..

لمزيد من المعلومات، انظر:

- الحموى: المصدر السابق، ج١، ص ٤١٤ - ٤١٩.

- دائرة المعارف الإسلامية: المصدر السابق، ج٣، ص ٦٢٥، ٦٢٦

(٢٦) غَزْنَةُ: بفتح أوله، وسكون ثانيه وفتح النون، هكذا يتلفظ بها العامة، والصحيح عند العلماء غزنين ويعربونها فيقولون جزنة، ويقال لمجموع بلادها زابلستان، وغزنة قصبتها، وغزن في وجوهه الستة مهمل في كلام العرب، وهي مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان، وهي الحد بين خراسان والهند في طريق الخيران واسعة إلا أن البرد فيها شديد جدًا، وبالقرب منها عقبة بينهما مسيرة يوم واحد إذا قطعها القاطع وقع في أرض دفيئة شديدة الحر، ومن جانب آخر برده كالزمهرير، وقد نسب إلى هذه المدينة من لا يُعد ولا يُحصى من العلماء، وقد ورد بأن بلاط السلطان محمود الغزنوي كان يحضره حوالي أربعمائة عالمًا وشاعرًا وأديبًا، ومازالت غزنة آهلة بأهل العلم والدين ولزوم طريق أهل الشريعة والسلف الصالح، وهي كانت عاصمة الدولة الغزنوية إلى أن سقطت في أيدي الغوريين سنة ٥٨٢هـ.

لمزيد من المعلومات، انظر:

- الحموي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٠١.
- القزويني: المصدر السابق، ص ٤٢٨، ٤٢٩.

(٢٧) اختلف المؤلف مع المؤرخين في وفاة البتكين، فقد ذكروا أن وفاة البتكين كانت سنة ٣٥١- ٣٥٢هـ، فيما يذكر هو نفسه أن وفاة ابنه إسحاق كانت بعد ٤ سنوات في ٣٥٥هـ.

(٢٨) الخلجيون: ينسب هؤلاء إلى أتراك الخلج، ويقول صاحب كتاب زين الأخبار: إن الخلج كان من عظماء الترك، وكانوا ينتقلون من مكان إلى مكان وكانت والدة الخلج تجلس على دابة وقد خلا المكان إلا منها، فالتحق بها أحد الخدم وأراد بها السوء فطرحته خارجًا وهددته، إذ من المعروف عن نساء

الترك طهارة الذيل والعفة، وحينما رأى الخادم ذلك خاف وهرب وذهب إلى ناحية التغزغز فى ولاية الخاقان. وفى مكان الصيد وجده رجل من الخاقانيين فى مكان شديد القذارة وقد لف نفسه برداء ممزق فأسماه (ياغو) ثم اصطحبه إلى الخاقان.

وحينما علم الخاقان بحاله جمع الخلج الذين كانوا فى ولأيته جميعًا، وأعطى ياغو الرياسة عليهم، وأسمى تلك القبيلة (ياغو الخلج).

كذلك ذكر أن الخلجيين لهم تاريخ مع حكام غزنة خصوصًا أيام سبكتكين وأبيه محمود، ويبدأ نجم هؤلاء الأمراء فى الظهور بالهند أيام محمد الغورى وقطب الدين أيبك وشمس الدين التمش فكانوا حكامًا على البنغال والأقاليم الشرقية كما ولوا كذلك كثيرًا من المناصب الرفيعة فى الدولة. والتف الأمراء الأفغان حولهم ببلاط بلبن وخلفائه فى جبهة تناهض نفوذ الأتراك الآخرين وغيرهم، حتى انتهى بهم الأمر إلى أن ارتقى زعيمهم جلال الدين فيروز شاه عرش دهلي عام ٦٨٩هـ وكان فى السبعين من عمره. وكان لهذا الزعيم ابن أخ يسمى علاء الدين، فقد استغل عمه فى أمور الدولة، ولم يكتف بذلك بل غدر بعمه فقتله فى عام ٦٩٥هـ، واستطاع فترة حكمه أى عام ٧٠٦هـ أن يكون له مملكة ممتدة من البنجاب إلى البنغال ومن جبال الهملأيا إلى تلال الوندهأيا وهى الرقعة التي اصطلح المؤرخون على اطلاق اسم هندستان عليها.

ولكن بعد وفاة علاء الدين ضعفت الدولة على يد الوصي كافور لأنه لم يستغل أمور الدولة استغلالًا جيدًا بل ساقها إلى حرب أشبه بالحرب الأهلية، بل إنه قتل وسجن الكثير من الأمراء والأعيان إلى أن وفق بعض مماليك علاء الدين من تخليص البلاد من شرور وعصبية كافور، فقتلوه ثم عهدوا بالملك للأمير الخلجي مبارك خان، الذى تولى عرش الهند عام ٧١٦هـ.

وفى بداية حكمه أطلق سراح المعتقلين ورد الأراضي والأملاك المغتصبة إلى أصحابها ورفع كثيرًا من الضرائب عن كاهل التجار، على أن السلطان

الجديد فجأة انغمس في الشهوات والشراب، وكان كثيرًا ما يحرص على مصاحبة بنات الهوى كما كان يرغم كبار الأمراء على مجالسته في هذه المجالس.

وعندما زاد من تصرفاته في العبث والمجون وثب عليه قائده خسرو فقتله وقتل معه الكثير من الأمراء الخلجيين، وبموت هذا السلطان عام ٧٢٠هـ انتهى حكم الخلجيين في دهلي.

لمزيد من المعلومات، انظر:

- الگرديزي، أبو سعيد عبد الحي بن الضحاك بن محمود: زين الاخيار، ترجمته عن الفارسية الدكتورة عفاف السيد زيدان، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م، ص ٤٣٥.
- الساداتي: نفس المرجع، ص ١٣٢ – ١٤٧.

(٢٩) يبدو أن تفصيل حكم بلكاتكين من ٣٥٥ - ٣٦٢هـ سقط من المخطوطة، ومن المحتمل أن يكون الكاتب قد نسى ذلك، وقد ذكر اسم بلتكاتكين بصورة (بيكاتكين) في جميع أرجاء المخطوطة.

(٣٠) كودين في الأصل، وقد كان هناك موضع في سجستان يدعى كوين أيضًا، انظر تاريخ سيستان، ص ٢٠٧.

(٣١) هيبان في الأصل، وقد كان في سجستان موضع يدعى هسون، انظر: تاريخ سيستان ص ١٩٨ و ١٩٩.

(٣٢) اختلف المؤلف مع الآخرين حول بداية حكم سبكتكين فيقول إنها كانت في ٣٦٧هـ ذلك لأن بيرى تولى الحكم من ٣٦٢ - ٣٦٧هـ.

(٣٣) ولد محمود سنة ٣٥٩هـ، يقول أبو القاسم على بن أحمد في كتاب «سر الأسرار في حقيقة التيسير وكيفية الاستمرار» إنه ولد في مدينة غزنة يوم السبت (بهرام روز) من شهر خرداد سنة ٥٣٥ حسب تقويم الفرس.

(٣٤) ذكر محمد عوفى - كما قلنا- فى جوامع الحكأيات ولوامع الروأيات: ابنين آخرين لسبكتكين باسم حسن وحسين، كما كان لسبكتكين بنت تدعى «حمرة» وكانت الزوجة الأولى لعلى بن مأمون خوارزم شاه، ثم أصبحت امرأة أخيه أبى العباس المأمون.

(٣٥) أبو الفتح البستى: هو أبو الفتح على بن محمد بن الحسين بن يوسف بن محمد ابن عبد العزيز البستى، وهو سياسى وأديب وشاعر، وأول وزير يتولى الوزارة للدولة الغزنوية فى عهد الأمير سبكتكين.

والبستى نسبة إلى بست، وهى مدينة كبيرة تقع بين سجستان وغزنة وهراة، أما مولده فلم يرد شيء عن تاريخه. ولكن بروكلمان يزعم أن مولده كان سنة ٣٦٠هـ وهو زعم لا يستند إلى حقيقة، والدليل على ذلك أمور منها: (١) أن أبا الفتح أخذ الحديث عن ابن حيان البستى، وابن حيان توفى سنة ٣٥٤هـ، فكيف أخذ عنه قبل مولده بست سنوات (٢) من الثابت أن أبا الفتح كان كاتبًا لباتيوز صاحب بست قبل أن يفتتحها الأمير سبكتكين صاحب غزنه، ولما افتتحها سنة ٣٦٥هـ، دل عليه فاستحضره، واتخذه كاتبًا له، فكيف يكون كاتبًا وسنه خمس سنوات؟ تتلمذ أبو الفتح البستى على يد شيوخ القلم، ويكاد أبو حاتم محمد بن حيان البستى من أهم الشخصيات العلمية فى حياته، فقد كان فقيهًا، بل كان إلى جانب ذلك عالمًا بالطب والفلك والرياضيات وله فى كل ذلك مؤلفات، والواقع أن أبا الفتح كان إلى جانب تأثره بشيخه فى تعدد معارفه، كانت له شخصيته وعقله وذكاؤه، تلك العوامل التي تمثل بها كل هذه العلوم ووعاها، وصارت على طرف لسانه وقلمه، يصرف معانيها ومسائلها فيما يشاؤه من المعانى فى شعر، وأول هذه الينابيع القرآن الكريم، الذى أكثر أبو الفتح من الاقتباس منه كقوله:

خذ العفو وأمر بعرف كما أمرت وأعرض عن الجاهلين

أما علاقة أبي الفتح البستي مع الأمير ناصر الدين سبكتكين، فتبدأ مع سقوط مدينة بست في يد ناصر الدين سبكتكين بعد هزيمته لبايتوز الذى كان البستي يعمل كاتبًا أو وزيرًا فى بلاطه، ويذكر لنا أبو الفتح القصة كلها بقوله: لما استخدمني الأمير سبكتكين وأحلني محل الثقة الأمين عنده فى مهمات شأنه، أسرار ديوانه وكان بايتوز حيًا، وحسادي يلوون ألسنتهم بالقدح فى والجرح لموضع الثقة بي ليًا، أشفقت لقرب العهد بالاختيار من أن يعلق بقلبه شيء من تلك الأقوال، .... ، إلى أن قال العتبى: (فكان اختيار ذلك أحد ما استدل به الأمير على عقله وجودة رأيه وتدبيره ورزانته، ودرج به إلى محله ومكانته، وصار من بعده ينظم بأقلام منثور الآثار عن حسناته، وينسج بعباراته وشي فتوحه ومقاماته).

ولقد عاش أبو الفتح فى رحاب هذا الأمير الذى عرف بقوة الإرادة ومتانة الخلق، عاش أبو الفتح فى رحابه نحوًا من عشرين عامًا متوالية، كانت أعظم سنوات عمره، فهو كاتب الأمير وصاحبه، وهو بالنسبة لسبكتكين أخلص صفأيا فتح بست كما يقول العتبى، ولهذا فقد كان حريصًا عليه، ولقد أخلص أبو الفتح فى خدمة أميره ويذل من الجهود السياسية ما كان له أثر كبير فى خدمة الدولة الغزنوية، على أن أبا الفتح البستي قد وطد علاقته مع دول الجوار وذلك لكي يدفع الأطماع والأذى عن الدولة الناشئة التي يقوم بخدمتها، وتحقيقًا لهذا الهدف وثّق أبو الفتح أواصر الصداقة بينه وبين خلف بن أحمد أمير سجستان وأقرب الولايات إلى غزنة ثم مع بنى فريغون ولاة جوزجان وكذلك الأمير قابوس ابن وشمكير أمير طبرستان، كل ذلك من أجل بقاء هؤلاء الأمراء على علاقة طيبة مع سبكتكين أو بعيدين عن الصراع معه حتى يتفرغ لغزو بلاد الهند ونشر الإسلام فيها.

أما عن علاقة البستى مع السلطان محمود فيقول العتبى: إن أبا الفتح كتب له عدة فتوح وظل فى خدمته - إلى أن زحزحه القضاء عنها ونبذه إلى

ديار الترك على غير قصده وإرادته فتوفى بها سنة ٤٠٠هـ.

لمزيد من المعلومات، انظر:

- ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، حققه الدكتور إحسان عباس، .دار صادر بيروت، ١٩٧٧م، الجزء الثالث، ص ٣٧٦ – ٣٧٨.
- العتبى (أبو نصر محمد بن عبد الجبار): تاريخ اليميني - جزءان - وبه شرح الشيخ أحمد بن على الحنفى المينينى المتوفى ١١٧٢هـ وسماه الفتح الوهبي على تاريخ أبى نصر العتبى - القاهرة ١٢٨٦هـ، الجزء الأول، ص٦٧، ٦٨ و ص ٣٧٥.
- الخولى: محمد مرسي (دكتور)، أبو الفتح البستى حياته وشعره: دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٩٨٠م، ص ٣٩- ٤٦، ص٦١ – ٦٥.

(٣٦) هذه الكلمة تقال هكذا اسم الوالد يزدگر الثالث كان آخر ملوك الساسانيين والذى ينسب سبكتكين له، ولكن عندما ضبطت كلمة « برسنجان » جعلت من اشتقاقها بين السطور واضحة وضبط المتن بشكله الصحيح كما جاء فى قول منهاج السراج لنسب سبكتكين كما هو: سبكتكين بن جوق قرا بجكم بن قرا أرسلان بن قرا ملت بن قرا نعمان بن فيروز بن سنجان أو برسنجان بن يزدگر، وجاء فى النسخ الأخرى بدل بجكم « محكم ». (راجع ترجمة طبقات ناصري، روايات ج١، ص ٧٠).

(٣٧) التركستان: كلمة فارسية مركبة من كلمتين « ترك » و « ستان » وتعني به «بلاد الترك»، وهو اسم جامع لجميع بلاد الترك، ولكن الفرس لم يهتموا إلا بالحد الجنوبي من بلاد الترك المتاخم لبلاد أيران، وهو حد قام بطبيعة الحال على اعتبارات سياسية، وقد وصل الترك عند بدء ظهورهم فى أواسط

آسيا فى القرن السادس الميلادي إلى نهر جيحون، وعلى ذلك كانت بلاد الترك فى العهد الساسانى تبدأ شمالي هذا النهر مباشرة، وعلى هذا فإن التركستان كانت فى نظر جغرافيي العرب الذين عاشوا فى القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين) لا تبدأ من الشمال من نهر جيحون مباشرة وإنما تبدأ من البلاد المعروفة ببلاد ما وراء النهر، ويقال فى ذلك الوقت إن التركستان هى البلاد التي إلى الشمال والشرق من بلاد ما وراء النهر. وكان أوسع بلاد الترك بلاد التغزغز، وحدهم الصين والتبت والخرلخ والكيماك والغز والجفر والبجناك والبذكش وأول حدهم من جهة المسلمين فاراب، قالوا: ومدائنهم المشهورة ست عشرة مدينة، والتغزغز فى الترك كالبادية، أصحاب عمد يرحلون ويحلون، والبذكشية أهل بلاد وقرى، على أن هذا فى الحقيقة ليس هو وطن الأتراك جميعهم، إنما هو وطن الأتراك ين فقط، أما وطن الأتراك الشرقيين فهو يتجاوز إقليم ما وراء النهر صوب الشمال حتى منطقة السهوب الروسية، أو يمتد قليلًا صوب الشرق حتى حده والصين.

وهذا الوطن قد يتطاول أحيانًا إلى الشمال الغربى من بحر قزوين، ويدخل منطقة القوقاز من الشمال، وأحيانًا أخرى يمتد حتى حوض الفولجا.

دخل الأتراك الإسلام مع فتوحات المسلمين لخراسان وبلاد ما وراء النهر، وتوالى على هذه البلاد حكام من أسر فارسية منها كالطاهريين والسامانيين إلى أن اقتسم التركة دولتان تركيتان هما: الدولة الغزنوية والدولة القره الخانية بعد سقوط الدولة السامانية، إلا أن هذه البلاد ساهمت فى بناء الحضارة الإسلامية وأثرت التجربة الإسلامية وأكسبت الفكر الإسلامي دمًا جديدًا ساعد على انطلاقة بعد انتقال زمام الأمور إلى الأتراك أنفسهم.

لمزيد من المعلومات، انظر:

- الحموى: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣ - ٢٦.
- دائرة المعارف الإسلامية: اصدر بالألمانية والإنجليزية والفرنسية

واعتمد فى الترجمة العربية على الأصلين الإنجليزى والفرنسى، وأصدرهما باللغة العربية أحمد الشتناوى، إبراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس، راجعها من قبل وزارة المعارف الدكتور محمد مهدى علام، المجلد الخامس، ١٩٣٣م، ص ٢٠٩.

– محمود: حسن أحمد (دكتور): الإسلام والحضارة العربية فى آسيا الوسطى بين الفتحين العربى والتركى، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ١١١، ١١٢.

(٣٨) نجيبان، وبحيتان، ولجنتان فى الأصل، ولكن يبدو أن جميع هذه القراءات مغلوطة، والأصح تخسيان على ما يبدو ذلك لأن التخسيى كان اسم احدى القبائل التركية (ديوان لغات الترك، ج ١ ص ٢٨).

(٣٩) ذكر اسم هذا الشخص (نصر حاجى) فى مواضع أخرى، ومن الواضح أن الخطأ من الكتاب.

(٤٠) نخشب: من مدن ما وراء النهر بين جيحون وسمرقند وليست على طريق بخارى، فإن القاصد من بخارى إلى سمرقند يجعل نخشب عن يساره وهى نسف نفسها المذكورة فى بابها، بينها وبين سمرقند ثلاث مراحل، ينسب إليها الحافظ عبدالعزيز بن محمد بن محمد بن عاصم النسفى النخشبي العاصمي أحد الأئمة، مات سنة ٦٥٤هـ كذلك ينسب إليها الأولياء والحكماء، ينسب إليها الحكيم ابن المقفع الذى أنشأ بنخشب بئرًا يصعد منها قمر يراه الناس مثل القمر، واشتهر ذلك فى الآفاق، والناس يقصدون نخشب لرؤيته ويتعجبون منه، وعوام الناس يحسبونه سحرًا، وما كان إلا بطريق الهندسة وانعكاس شعاع القمر، لأنهم وجدوا فى قعر البئر طاسًا كبيرًا مملوءًا زئبقًا، وفى الجملة قد اهتدى إلى أمر عجيب سار فى الآفاق، واشتهر حتى ذكره الناس فى الأشعار

والأمثال، ويبقى ذكره بين الناس.

لمزيد من المعلومات، انظر:

- الحموى: نفس المصدر، ج ٥، ص ٢٨٦.
- القزوينى: نفس المصدر، ص ٤٦٦.

(٤١) فى النص (جغرات) وجغرات باللهجة السمرقندية يعني اللبن.

(٤٢) هذا التاريخ صحيح، ولكن مدة إمارته تبلغ عشرين سنة استنادًا إلى ما مر لا أربعًا وعشرين سنة.

(٤٣) طبعة طهران، ص ٧٥ — ٨٥.

(٤٤) شانمهار فى الأصل، وواضح أنها لابد أن تكون شابهار وهى السهل المعروف فى أطراف مدينة بلخ، وهى أيضًا على ما يقول السمعانى اسم قصبة بالقرب من بلخ.

(٤٥) فى الأصل جنين، وأغلب الظن أن البتكين هو كاتب جنين الذى عمل الصحف.

(٤٦) سورة النحل، الأية ٤٠.

(٤٧) إسفرايين: بلدة بأرض خراسان وهى من المدن الحصينة بنواحى نيسابور والواقعة على منتصف الطريق من جرجان، واسمها القديم مهرجان، سماها بذلك بعض الملوك لخضرتها ونضارتها، ومهرجان قرية من أعمالها، وقال أبو القاسم البيهقى: أصلها من أسبرايين، بالباء الموحدة، وأسبر بالفارسية هو الترس وأيين هو العادة فكأنهم عرفوا قديمًا بحمل الترس فسميت مدينتهم بذلك، ينسب إليها خلق كثير من أعيان الأئمة، منهم: يعقوب بن إسحاق بن

ابراهيم الإسفراييني أحد حفّاظ الحديث، سافر في طلب الحديث إلى البلاد الشاسعة، توفي سنة ٦١٣هـ، وأشهر علماء هذه المدينة أبو حامد أحمد بن محمد بن أحمد الفقيه الإمام الإسفراييني، أقام ببغداد ودرس الفقه وانتهت إليه الرئاسة في المذهب الشافعي، قيل: كان يحضر درسه سبعمائة فقيه، وكانوا يقولون: لو رآه الشافعي، رضي الله عنه، لفرح به، كذلك من علمائها أبو الفتوح محمد بن الفضل الإسفرأييني، كان إمامًا فاضلًا عالمًا زاهدًا أسرع الناس عند السؤال جوابًا، وأسكتهم عند الأيراد خطابًا، مع صحة العقيدة والخصال الحميدة، وينتمي إلى هذه المدينة الوزير المعروف أبو العباس الفضل بن أحمد الأسفرأييني الذي وزر للسلطان محمود الوزارة بعد أن تم إعفاء الوزير أبي الفتح البستي من الوزارة، والاسفرأييني كان يعمل في بداية حياته نائبًا وكاتبًا لفائق الذي كان واليًا للسامانيين على خراسان، ولما أفل نجم فائق، التحق بخدمة الأمير ناصر الدين سبكتكين، وبعد أن توفي هذا الأمير، وجلس ابنه السلطان محمود على عرش السلطنة، شمل أبا العباس بعنأيته، وأسند منصب الوزارة، وجاء في كتاب آثار الوزراء أنه برغم أن الفضل بن أحمد كان رجلًا عديم الفضل والأدب، خاليًا من التبحر في لغة العرب، إلا أنه كان ماهرًا في ضبط أمور السلطنة، وإنجاز مهام الجيش والشعب، وإدخال اللغة الفارسية في دواوين الدولة في عهد السلطان محمود.

هذا وبعد أن انقضت عشر سنوات على وزارته، تغير طالعه، وتبدلت أحواله، وانتقل من أوج الشرف إلى حضيض الوبال. ومن أسباب عزل الوزير أن الأمير على قريب كان يحرض السلطان على محاسبة الوزير والضغط عليه بتسديد المبالغ التي على وزارته لخزانة الدولة، فلما عجز عن دفع ذلك، صادر السلطان أمواله، ودخل الوزير بمحض إرادته واثبت على نفسه ما كان يتهم به بتباطؤه بدفع المبالغ التي عليه لخزانة الدولة، وخلال هذه الظروف أراد أن يثبت الأمير على قريب للسلطان خيانة الوزير والاستيلاء على أموال الدولة فترة

حكمه، وكان هذا الأمير يحتفظ سرًا للوزير الاسفرأييني بقبضة خنجر مرصع بالجواهر الثمينة وكأس ياقوتية كان قد حصل عليها كهدايا أيام الحكم الساماني في خراسان. وعندما صدر الحكم من السلطان بالتفتيش على ما يختزنه الوزير، أخذ الأمير على قريب ذلك الخنجر والكأس إلى القلعة مكان سجنه، وأشاع بين الحاضرين أنه تم الحصول على هذه الأمتعة ضمن مقتنيات الوزير، فغضب السلطان عليه، وأبقاه في سجنه إلى أن مات في عام ٤٠٤هـ.

لمزيد من المعلومات، انظر:

- الحموي: المصدر السابق، ج١، ص ١٧٧، ١٧٨.
- القزويني: المصدر السابق، ص ٢٩٥.
- عقيلي (سيف الدين حاجي بن نظام عقيلي): آثار الوزراء بتصحيح مير الدين حسين أرموي محدث، تهران ١٣٣٧ ش، ص ١٥٠ - ١٥٢.
- المؤرخ الأيراني الكبير غياث الدين خواندمير كما يبدو في كتابه دستور الوزراء، تأليف وترجمة وتعليق الدكتور حربي أمين سليمان، تقديم الدكتور فؤاد الصياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٢٣٥، ٢٣٦.

(٤٨) سيستان أي سجستان (من سَكَسْتَانَةَ أرض السكاى) وتسمى أيضًا نيمروز «الظهر»، بلاد الجنوب أى جنوب خراسان، ويرد هذا الاسم كثيرًا في الشاهنامة وعلى قطع النقود التي سكها ملوك الكيانيين أصحاب سجستان.

بدأ الفتح العربي الإسلامي لسجستان عام ٢٣هـ إلا أن الفتح يكتمل بسبب وجود مقاومة للمسلمين من قبل بعض أمراء سجستان مثل رتبيل (وهذا ليس اسم شخص وإنما اسم علم وهو لقب مثل الإخشيد كسائر الألقاب التي تطلق على أمراء تلك المناطق) منذ خلافة عبد الملك بن مروان حتى خلافة المنصور، إلا أن بعض أمراء سجستان الآخرين كانوا يؤدون الأتاوة مع ذلك

لعمال المهدى والرشيد، ولو أنهم كانوا يؤدونها فى غير انتظام.

وفى القرون الوسطى كانت سجستان بمعناها الواسع تشمل أيضًا نواحى زابلستان وداور ورجح وكان من مدنها فراه، وجوين، وبست، وغزنه ولا يمكن تحديد تخوم سجستان فى الشرق تحديدًا دقيقًا، أما فى الشمال فكانت تحف بخراسان وفى الغرب بقوهستان وصحراء كرمان الكبرى، وفى الجنوب بمكران، بيد أن الاسم لا يتضمن فى جميع الأحوال هذه الرقعة الكبيرة من الأرض.

ولم يكن لسجستان شأن هام فى تاريخ العصور الوسطى إلا فى عهد الأسرة الصفارية وكان رأس الصفارية يعقوب بن الليث نفسه سجستانيًا، كما كانت سجستان بطبيعة الحال مركز هذه الأسرة وانهارت دولة الصفارية، فأضحت سجستان من أملاك السامانيين ثم من أملاك الغزنويين، وقد عثر على سكة لسبكتكين ومحمود فى سجستان، على أنه كان للبلاد ملوكها الذي كانوا ينصبون من أهلها تحت سيادة بيوت حاكمة أكبر منهم شأنًا، وقد أقام نصر بن أحمد الساماني أحد الصفاريين اسمه أحمد واليًا على موطنه سجستان سنة ٣٠٩هـ وخلف أحمد ابنه، بيد أن محمودًا الغزنوى عزله عن سجستان، ووهب البلاد لأخيه نصر بن سبكتكين، وحدث بعد هذا أن حفيدًا من أحفاد خلف يسمى طاهرًا حصل فى عهد السلاجقة على ولاية سجستان من الدولة السلجوقية، والظاهر أن طاهرًا هذا هو الذى يعده كتاب «طبقات ناصري» أول ملك من الكيانية تولى حكم سجستان، فقد ورد فى كتابه (إن هؤلاء الملوك كانوا يزعمون أنهم من سلالة قوم كيكاوس).

إلا أن العلاقة التي كانت قائمة بين الأسرة الصفارية وملوك سجستان فى القرون الوسطى يكتنفها غموض شديد، ذلك أنه من المشكوك فيه كثيرًا، لأن الفرع الذى انحدر منه طاهر لا يرجع نسبه فى الأصل إلى الليث، والد يعقوب ابن الليث الصفاري، وانتهت دولته بوفاته عام ٤٨٠هـ.

لمزيد من المعلومات، انظر:

- دائرة المعارف الإسلامية، مج ١١، ص ٢٨٢ – ٢٩٤.
- الحموى : نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ١٩٠ – ١٩٢.

(٤٩) زابل أو زابلستان: وهى كورة واسعة قائمة برأسها جنوبي بلخ وطخارستان وهى زابل، والعجم يزيدون من السين وما بعدها فى أسماء البلدان تشبيهًا بالنسبة، وهى منسوبة إلى زابل جد رستم بن دستان، وهى البلاد التي قصبتها غزنه وهي البلد المعروف العظيم.
انظر، الحموى: نفس المصدر، ج٣، ص ١٢٥.

(٥٠) فى الأصل وفى كل النصوص جاء «بكتور» ولكن عرف بعد ذلك بيكتوزون.

(٥١) هراة: مدينة عظيمة من خراسان، ما كان بخراسان مدينة أجل وأعمر، ولا أحصن ولا أكثر خيرًا منها. بها بساتين كثيرة ومياه غزيرة. ومن عجائبها أرحية مبنية على الريح تديرها الريح بنفسها كما يديرها الماء، ويحمل منها إلى سائر البلدان كل ظريف سيما الأواني الصفرية المطعمة بالفضة وأنواع الديأبيج والحواصل، كذلك تتميز ببساتينها الكثيرة، وفاكهتها النفيسة، وعنبها الجيد الذى يضرب المثل بحسنه وحلاوته، وللغزنويين فى هذه المدينة أحداث تاريخية، فبعد وفاة السلطان محمود حصل خلاف بين محمد ومسعود ابنى السلطان محمود حول الحكم، فكان مسعود الابن الأكبر وليًا للعهد ولكن السلطان محمود كان قد جمع أمناء الملك وكبار رجال الدولة بأن يستدعوا أبا أحمد محمد الأبن الأصغر من جوزجان وأن يجلسوه على العرش، وعلى أن يتولى كبير الحجاب على قريب تدبير شؤون الملك في خدمته.

فلما بلغ إلى الأمير مسعود، بإصفهان، نبأ وفاة والده وتنصيب أخيه، تحول مسعود عن بغداد إلى غزنه، فسار من إصفهان إلى الري، ومنها إلى نيسابور ثم إلى هراة، ووصلت أنباء ذلك إلى أسماع الأمناء والقادة، فاستصوب

الأمير علي والعظماء الرأي باعتقال الأمير محمد بقلعة كوهتيز بتكيناباد، وعلى أن يرسلوا إلى الأمير مسعود كتابًا يتضمن الاعتذار عما جرى لأنه كان لصالح الدولة.

وتعرف هراة بكثرة علمائها وأهل الفضل بها لا يحصون، ومن الذين نسبوا إلى هراة الحسين بن إدريس بن المبارك بن الهيثم بن زياد أبو علي الأنصاري الهروي أحد مشهوري المحدثين، سمع بدمشق وبغداد، وروى عنه جماعة كثيرون منهم حاتم بن حيان. وللحسين بن إدريس كتاب في التاريخ صنفه على حروف المعجم، مات ٣٠١، ومنهم عاصم محمد، الفقيه الشافعي، والقاضي والكاتب، من كتبه «أدب القضاء» و «المبسوط» و «طبقات الشافعين» مات سنة ٤٥٨هـ.

لمزيد من المعلومات، انظر:

- الحموى: نفس المصدر، ج ٥، ص ٣٩٦، ٢٩٧.
- القزوينى: نفس المصدر، ص ٤٨١، ٤٨٢.
- البيهقي: أبو الفضل محمد بن حسين، تاريخ البيهقى، ترجمه إلى العربية يحيى الخشاب وصادق نشأت، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢م، ص ١، ٢، ٧٠.
- شامى، يحيى نفس المرجع، ص ٢٤٤.

(٥٢) «جيبال» فى الأصل، وقد جاء فى كتبنا على هذه الصورة «جيبال» ولكن ضبطه الصحيح جيبال.

(٥٣) «بنديال» فى الأصل، والصحيح انندبال، وقد كان أحيانًا يكتب «نندبال» فى الكتب الفارسية.

(٥٤) بوسين فى الأصل.

(٥٥) بهتمه (دون نقطة) فى الأصل، ومن الواضح أنها كلمة تكتب فى كتب المابهاطية والبهاتبه، ولعلها كانت «بهتيه» فى الأصل.

(٥٦) في الأصل: إلى أرض بند نتهاد.

(٥٧) كشمير أو قشمير: ناحية بأرض الهند متاخمة لقوم من الترك، فاختلط نسل الهند بالترك، فأهلها أكثر الناس ملاحة وحسنًا، ويضرب بحسن نسائهم المثل، لهن قامات تامة وصور مستوية وملاحة كثيرة وشعور طوال غلاظ، وهذه الناحية تحتوي على نحو ستين ألف من المدن والضياع، ولا سبيل إليها إلا من جهة واحدة، ويغلق على جميعها باب واحد.

وحواليها جبال شوامخ لا سبيل للوحش أن يتسلق إليها فضلًا عن الإنس، وفيها أودية وعرة وأشجار ورياض وأنهار.

قال مسعر بن مهلهل: شاهدتها وهي في غاية المنعة. ولأهلها أعياد في رؤوس الأهلة وفي نزول النيرين شرقهما، ولهم رصد كبير في بيت معمول من الحديد الصيني، لا يعمل فيه الزمان، ويعظمون الثريا ولا يذبحون الحيوان ولا يأكلون البيض.

وهذه المنطقة حاليًا متنازع عليها بين الهند والباكستان، وتشتهر بالصناعات اليدوية، وصنع الأواني الخزفية والمعدنية، وبها صناعات الحرير والقطن والصوف، ويرجع تاريخ دخول الإسلام إلى كشمير إلى أيام الفاتح محمد بن القاسم الثقفي الذي استولى على بلاد السند، ثم كان للسلطان محمود الغزنوي ووالده سبكتكين الدور الكبير في نشر الإسلام في ربوع هذه البلاد أثناء غزوهما لبلاد الهند حيث دخل معظم سكان كشمير في الإسلام، ويرد أخبار عن هذه البلاد في كتاب تاريخ البيهقي وخاصة في سنة ٤٢٩هـ حينما كان السلطان في زيارة لجيلم حين وصلت أنباء عن الرأي الأعظم ورأى كشمير كما وصلهم بعد أيام خبر وفاة رأس كشمير في شهر صفر.

لمزيد من المعلومات، انظر:

- الحموي: نفس المصدر، ج ٤، ص ٣٥٢.
- القزويني: نفس المصدر، ص ١٠٤.

- البيهقي: نفس المصدر، ص ٥٧٩.
- شامي: نفس المرجع، ص ٣٣٥.

(٥٨) الصامت أى الأخرس والميت، ويقال للأملاك الجامدة مثل أثاث البيت، والصحون والأواني والذهب والفضة، وذلك فى مقابل الأملاك الحية مثل القطعان والمواشي وغير ذلك.

(٥٩) مصنمت بمعنى يك لخت أو حسب المصطلح الذى يطلق عليه اليوم هو نوع من القماش.

(٦٠) هكذا فى الأصل وهى نفس الكلمة التيتكتب (كوتوال) عادة وتعني حارس القلعة والمحافظ عليها، أو بمعنى دژبان وحامي القلعة وهى كلمة هندية، ولكن يتضح من كتاب فرهنك تركي شرقى تأليف لباوه دو كورتي ص ٤٦٣ Pave de Ceurteille, Dictionnaire turk oriental أن هذه الكلمة تركية وأصلها كوتاول وكوتاوال مثل قراول ويساول وجنداول وغيرها، ويتضح من هنا أنها كتبت (كتول) أيضًا.

(٦١) فى الأصل فتوج وفتوح، ومن الواضح جدًا أن المراد قنوج.

(٦٢) قنوج: تعتبر قنوج محور الحضارة الهندية ومركز أصنامهم ومعابدهم، استولى السلطان محمود على حصن الأمير الهندوكي كلجند بعد أن تسبب فى إغراق خمسين ألفًا من حماته بالنهر، ولأن كلجند المحارب العنيد لم يطق الهزيمة، فقد قتل زوجه ونفسه، وسار السلطان محمود إلى هدفه يفتح المدن التي يجدها فى طريقه ، فاستسلمت له مدينة الهنادكه المقدسة (مترا) واستولى على ما بها من أموال، وفى سنة ٤٠١هـ وصل إلى قنوج فاستسلم له صاحبها دون أية مقاومة، وغنم أموالًا وذخائر كثيرة، واتفق الأمراء الهنادكه على مناهضتهم فأسروا صاحبها الذى استسلم للسلطان محمود، وأثاروا الفتن فتقدم لقتالهم، وبمجرد ظهوره وجلوا رغم وفرة حشودهم، وتفرقت صفوفهم، وبالأموال الطائلة التي غنمها من قنوج بنى بغزنة المسجد الجامع (عروس الفلك) الذى

يعتبر بحق إحدى روائع العمارة والفن الإسلاميين.

الشامى، نفس المرجع، ص ٣٤.

(٦٣) فى الأصل: بندنه، ويبدو أنها نندنه التي هى نفسها ناردين.

(٦٤) محمود فى الأصل، ومن الواضح أنها لابد وأن تكون (محمد).

(٦٥) بيدا فى الأصل، ومن الواضح أنه لابد أن يكون نندا.

(٦٦) الستارة عمامة هندية، وعباءة ملونة تصنع منها النساء ملابسها، ويبدو أنها نفس الكلمة التي تلفظ اليوم فى الهند (ساري).

(٦٧) فى جميع أرجاء الأصل: كاليجر، وليس صحيحًا.

(٦٨) فى الأصل: محمد، وواضح أنه أحمد.

(٦٩) مِيمَنْد: بكسر الميم الأولى، وفتح الأخرى، وميمند رستاق بفارس، وبنواحي غزنه أيضًا ميميند، وإلى هذه ينسب الميمندي وزير السلطان محمود بن سبكتكين وهو أبو القاسم أحمد بن الحسن الميمندي وهو من أبرز وزراء السلطان محمود، فقد كان إمامًا فاضلًا ومحبوبًا لدي العظماء بفضل جمال خطه، وكان أخًا للسلطان محمود فى الرضاعة، كما كان زميله فى الدراسة فترة الطفولة والشباب، وكان والد أحمد يعمل فى منطقة بست فى تنظيم الدواوين والإدارة المالية وذلك فى عصر الأمير ناصر الدين سبكتكين، وقد ظن فيه هذا الأمير بسبب رسائل الحاقدين ظنًا سيئًا فقضى عليه، ومن هنا يعتبر بعض الرواة أنه أحد وزراء السلطان محمود.

تدرج الوزير أحمد بن الحسن فى عدة مناصب إدارية قبل أن يتولى الوزارة، فقد شغل منصب رئيس ديوان الرسائل، ثم أخذت العنأية والرعاية السلطانية شيئًا فشيئًا تزيد من مكانته إلى أن أسند إليه منصب مستوفى الولايات وشؤون الجند بالإضافة إلى أعماله السابقة الذكر، ثم تقلد مهمة تنظيم جمع أموال بلاد خراسان، وقد أبدى الميمندي مهارة فائقة فى إدارة وإنجاز جميع هذه المهام بسرعة تدعو إلى الدهشة، ولولاه لما أمكن إنجازها إلا فى سنوات طويلة،

ولما تغيرت معاملة السلطان الحسنة على وزيره السابق أبى العباس الاسفراييني، قرر إسناد منصب الوزارة وإدارة جميع شؤون السلطنة إلى الميمندي بعد أن اكتسب تلك الخبرة الطويلة في مجال عمله المتواصل فى شؤون الدولة سواء فى خراسان أو الأقاليم الأخرى من الدولة، كما ترك له السلطان الحل والعقد فى جميع أمور الدولة، وفى بداية عهده أعاد إلى اللغة العربية قوتها كلغة الدولويين، وأمر بكتابتها فى جميع إدارات الدولة دون غيرها، وظل ذلك الوزير القوى بتدبير الملك والمال إلى أن كان هدفًا للحساد من ندماء السلطان، وكبار الأعيان فى الدولة، الأمر الذى حمل السلطان على عزله سنة ٤١٤هـ، بعد أن صودرت أمواله، وأمر السلطان بحبسه فى قلعة كالنجر، إذ بقي بها حتى نهاية حكم السلطان محمود.

ولما تولى السلطان مسعود الحكم سنة ٤٢١هـ، أخرج الوزير أحمد بن الحسن الميمندي من السجن وأكرمه وعهد إليه الوزارة فقبلها هذه المرة بشروط مسبقة، جاءت على صورة خطاب أو مواضعة تبادلها الوزير مع السلطان حول برنامج الوزارة، وقد أشرنا إلى هذه الخطابات أو المواضعة أثناء ترجمتها فى الصفحات التالية: ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥.

لمزيد من المعلومات، انظر:

- الحموى: نفس المصدر، ج ٥، ص ١٤٥ وقد أشار الحموى إلى الوزير الميمندي على أنه أبو الحسن على بن أحمد ثم أتى بأبيات لأبى بكر العيدي يهجوه مثل هذا البيت:

يا على بن أحمد لا اشتياقًا وأنا المرءُ لا أحب النفاق

وشخصيتنا هو أبو القاسم أحمد بن الحسن الميمندي وليس أبو الحسن على ابن أحمد الميمندي.

- العقيلي: نفس المصدر، ص ١٥٢، ١٥٣.

- غياث الدين خواندمير: دستور الوزراء، ص ٣٣٦، ٣٣٧.

(٧٠) ذكر ابن الأثير وسبط ابن الجوزي فى مرآة الزمان التاريخ هو أن سنة٤١٤هـ نفسه، ولكن جمال الدين على بن ظافر الأزدي المصري ذكر فى كتاب أخبار الدول المنقطعة أن عودة محمود إلى غزنه كانت فى نهاية سنة ٤١٣هـ.

(٧١) تذكر مصادرنا عادة أن اسم هذه المدينة فى التركستان هو بلاساغون، ومن هنا يتضح أنها ضبطت أيضًا بصورة (بلا سغون)

(٧٢) سمرقند: مدينة من أعظم مدن جمهورية أوزبكستان، ويقال بالعربية سمران: سمرقند بلد مشهور، وبها عدة مدن مذكورة فى مواضعها منها: كرمانية ودبوسية وأشروسنة والشاش ونخشب وبناكت، وقالوا عن سمرقند: ليس فى الأرض مدينة انزه ولا أطيب ولا أحسن مستشرفًا منها.

كذلك لم يكن فى هذه المدينة سكة ولا دار إلا بها ماء، وقلما تخلو دار من بستان حتى إنك إذا صعدت قهندرها لا ترى أبنية المدينة لاستتارها عنك بالبساتين والأشجار، فأما داخل سوق المدينة الكبيرة ففيه أودية وأنهار وعيون وجبال، وعلى القهندز (وهو مقر السلطان) باب حديد من داخله باب آخر حديد، ولما ولى سعيد بن عثمان فى سنة ٥٥هـ من جهة معاوية، عبر النهر ونزل على سمرقند محاصرًا لها وحلف لا يبرح حتى يدخل المدينة ويرمي القهندز بحجر أو يعطوه رهنًا من أولاد عظمائهم، فدخل المدينة ورمى القنهندز بحجر فثبت فيه فتطير أهلها بذلك وقالوا: ثبت فيها ملك العرب، وأخذ رهانهم وانصرف. ويسمرقند أشياء ظريفة تنقل إلى سائر البلاد، منها الكاغذ السمرقندي الذى لا يوجد مثله إلا بالصين.

أما تاريخ هذه المدينة فى العصر الغزنوى، فقد كان يحكم سمرقند زمن السلطان محمود حاكم يسمى على تكين، ولكنه كان شخصًا متهورًا لا يحترم العهود والمواثيق مع الدولة الغزنوية بعد وفاة السلطان محمود وبعد أن قتل أخاه

طغاخان الذى يلي حكم بلاسغون من قبل السلطان محمود، كذلك بدأ على تكين فى هذا الوقت يتحالف مع أعداء الغزنويين وخاصة قدرخان والسلاجقة فى عهد السلطان مسعود، لأن هذا السلطان كان يولي اهتمامه باتجاه الهند وأهمل الأمور الأخرى، وبالأخص فيما يتعلق بهموم الولايات الأخرى ولاسيما خراسان التي كان الأعداء يتربصون بها، ويشير البيهقى أن هناك اتفاقًا بين على تكين الذى له رجال كثيرون فى بلخ وبين السلاجقة الذين كانوا يطمعون فى الاستيلاء على بلخ ثم خراسان كلها.

ولكن السلطان مسعود لم يجد حلًا إلا أن يستعين بخوارزمشاه، فطلب منه أن يسيّر جيشًا إلى جيحون وينضم إليه الجند من هناك، ويتوجه لقتال على تكين، ودارت بينهما معركة فى موضع يقال له دبوس (بلدة صغيرة من أعمال الصفر فيما وراء النهر) انهارت على أثرها قوة على تكين وقتل من جنده جمع كثير وأصيب خوارزمشاه بسهم ولقي حتفه فى الليلة التالية، وعقد الوزير أحمد عبد الصمد الصلح ليلًا مع على تكين قبل أن يذيع خبر موت خوارزمشاه وتم الصلح بين الطرفين ورجع الوزير أحمد عبد الصمد إلى خوارزم.

ينتسب إلى هذه المدينة الإمام الفاضل ركن الدين العميدي أعجوبة الزمان، انتشر صيته فى الآفاق وفاق كل مناظر بالطبع السليم والذهن المستقيم، وقالوا عنه: ما رأينا مناظرًا مثل العميدي فى فصاحة الكلام وبلاغة المعانى، وحسن التقرير وتنقيح البيان، كذلك ينسب إليها محمد بن عدي بن الفضل أبو صالح السمرقندي نزيل مصر، سمع بدمشق أبا الحسين الميداني، وبمصر أبا مسلم الكاتب وغيرهم.

هناك علماء كثيرون انتسبوا إلى هذه المدينة منهم أبو القاسم الحكيم وكذلك القاضي أبو زيد عبد الله بن عمر بن عيسى الحنفى، وأيضًا ابن خياط أبو بكر بن أحمد بن منصور وله من مؤلفات كثيرة ومنها كتاب «النحو الكبير»

كتاب معاني القرآن، كتاب المقنع.

كذلك من أعلام سمرقند صاحب التفسير المعروف بتفسير العياشي، وهو محمد بن مسعود السمرقندي، وكان من المحدثين والأطباء والنجوميين، وهو من أعلام المائة الثالثة للهجرة.

ومن أعلامها أيضًا علاء الدين السمرقند المتوفى سنة ٥٧٥هـ، من كتبه «تحفة الفقهاء» ومنهم نجيب الدين السمرقندي وكان طبيبًا معاصرًا لفخر الدين الرازى، قتل بهراة لما دخلها التتار، وأشهر كتبه «الأسباب والعلامات» فى تشخيص الأمراض وعلاجها.

لمزيد من المعلومات، انظر:

- البيهقى: نفس المصدر، ص ٣١٠، ٣١١، ص ٣٥٠.
- الحموى: نفس المصدر، مج ٣، ص ٢٤٦ – ٣٥٠.
- القرويني: نفس المصدر، ص ٥٣٥ – ٥٣٧.
- نجبر، أحمد (دكتور): خراسان بزرك (بحثى بيرامون چند شهر از خراسان بزرك) مؤسسة انتشارات اميركبير، تهران، ١٣٦٣ ش، چاپ أول، ص١٦٨و ١٧٤.
- شامى: نفس المرجع، ص ٤١٢ – ٤١٦.

(٧٣) سماط بمعنى سفرة طعام.

(٧٤) حلاوة بمعنى الحلويات.

(٧٥) مستشعر بمعنى الخوف والفزع.

(٧٦) أبو على فى الأصل.

(٧٧) بيغر وبيغو فى الأصل كلمة تركية تعني طير من الجوارح كالشاهين.

(٧٨) فى الأصل: تاجز، تاجيك: تطلق هذه الكلمة على غير التركي، أو الإيراني والتاجيك هم من سكان تاجيكستان إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابقة، كذلك تطلق احتقارًا من قبل الترك على الأيرانيين.

انظر: شتا، إبراهيم الدسوقي: المعجم الفارسي الكبير، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٢، المجلد الأول، ص ٦٨١.

(٧٩) في الأصل: اسطر.

(٨٠) في الأصل غلام أو جماعة من التركمان.

(٨١) سومنات: فتح السلطان معبد سومنات الواقعة شمال دهلي بسبعين ميلًا في عام ٤١٦هـ، وقد جاء في الروأيات عن هذا الفتح العظيم أن السلطان محمود اقتحم في طريقه إلى كجرات عام ٦١٤هـ، مفازة جرداء قاحلة مترامية الأطراف واسعة المسالك هي صحراء الثار أكبر صحراوات الهند، فكانت قوة جلده واحتمال رجاله وشدة بأسهم مثار الدهشة والعجب.

واستولى محمود، وهو في طريقه إلى هدفه، على آجمير ونهروالة، ثم ظهر آخر الأمر أمام سومنات فوجد الأمراء الراجبوتيين قد حشدوا جموعهم الغفيرة لحمأية معبد الهنادكة الأكبر بها، وعليهم بهيم ديو صاحب كجرات ومعه راجا نهرواله وامراء بهاتي. والتحم الفريقان في قتال عنيف انتهى إلى مذبحة دامية سقط فيها خمسون ألفًا من الهنادكة مر الغزاة على أشلائهم إلى داخل الحصون. هذا ولمعبد سومنات قداسة عظمى عند الهنادكة، حتى إنهم بادروا من فورهم إلى تجديده غداة قيام جمهورية الهند الجديدة، أي بعد مضي أكثر من تسعة قرون على تدمير محمود له.

ويصف المؤرخون مصلى الهنود هذا بأنه كان بناء عجيبًا ذا ست وخمسين سارية صفائحها من ذهب مرصع بالجواهر وذا ألوف من التماثيل المصنوعة من الذهب والفضة والمحيطة بهيكله، وذا صنم ضخم قائم في وسطه وقد رصع بالجواهر والحجارة الكريمة الكثيرة.

ويعتقد الهنادكه أن الأرواح تتناسخ في الأبدان عنده، فهو الذى ينشئها في الأبدان كيف يشاء، وأن المد والجزر إن هما إلا صلاة البحر يؤديها لصنمهم الأكبر هناك. هذا وقد كان الناس يحجون إليه في جموع زاخرة لاسيما عند

خسوف القمر.

وكان فيه من السدنة ألفان من البراهمة، ومن الراقصات المنشدات خمسمائة. وكان على هؤلاء جميعًا أن يقوموا عند الدجى على جلجلة سلسلة غليظة من الذهب، فيقضوا مناسكهم لمعبودهم الأكبر.

لمزيد من المعلومات، انظر:

- ابن الأثير، عز الدين أبى الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير، الكامل فى التاريخ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٢م، المجلد التاسع، ص ٣٤٢ – ٣٤٦.
- دائرة المعارف الإسلامية: ج ١٢، ص ٣٩٥.
- الساداتي، أحمد محمود (دكتور): تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم، القاهرة، ١٩٥٧م، الجزء الأول، ص ٨٥ – ٨٧.
- الشأبى، نفس المرجع، ص ٥٣، ٦٣.
- فلسفي، نصر الله: چند مقاله تاريخي وأدبي، انتشارات وحيد، أيران، چاپ أول – فروردين ١٢٤٨ ش، ص ٦ – ١١.

(٨٢) مولتان: مدينة قديمة كان بها صنم تعظمه الهند، وتحج إليه من أقصى البلاد، وسميت مولتان باسم الصنم نفسه المعبود، وكان بيت الصنم قصرًا مبنيًا فى أعمر موضع بسوق المولتان بين سوق العاجيين وصف الصفّارين. وكان فى وسط القصر قبة فيها الصنم، وحول القبة بيوت للخدم الذين يخدمون الصنم. وكان الصنم على صورة إنسان متربع على كرسي من آجر وجص، وألبس بدنه جلدًا من السختيان الأحمر. وعينا الصنم كانتا عبارة عن جوهرتين، وعلى رأسه إكليل من ذهب. وعامة ما يحمل إلى الصنم من المال كان يأخذه أمير المولتان، وينفق على سدنته منه، ويرفع الباقي إليه. وكان على المولتان حصن منيع جدًا هذه المدينة حاليًا من المدن الباكستانية تقع على نهر شناب، إلى الشرق

من جبال سليمان، وبها سوق زراعية مشهورة، وبها العديد من الصناعات اليدوية التقليدية، وصناعة المجوهرات والعاج والفضة وغيرها.

لمزيد من المعلومات، انظر:

- الحموى: الإمام شهاب الدين أبى عبد اللّه ياقوت بن عبد اللّه الحموى الرومي البغدادي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، المجلد الخامس، ص ٢٢٧، ٢٢٨.
- الإصطخرى: أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارسى، المسالك والممالك، تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني، مراجعة محمد شفيق غربال، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ١٣٨١هـ - ١٩٦١م، ص١٠٣.
- شامى، يحيى (دكتور)، موسوعة المدن العربية والإسلامية، ص ٢٩٨، ٢٩٩.

(٨٣) نهروالة: تعتبر هذه المدينة نهروالة أو انهلواراه العاصمة القديمة لكجرات، فعندما أراد السلطان محمود فتح معبد سومنات وجد أن أمراء الراجبواتيين قد حشدوا جموعهم الغفيرة لحماية معبد الهنادكه الأكبر ألا وهو معبد سومنات، وكان من بين الذين وقفوا أمام السلطان محمود ليكونوا المانعين أمام فتحه بهيم ديو صاحب كجرات ومعه راجا نهرواله وأمراء بهاتي، ولكن السلطان استطاع أن يقتحم هذا الحشد ويحقق الانتصار على الهنادكة، إلا أن السلطان محمود لم يغفر لراجا نهزواله وأمراء بهاتي معاونتهم لراجاكو اليار في الدفاع عن سومنات فهاجم بلادهم وهو في طريقه إلى عاصمته عائدًا من سومنات واستولى عليها.

لمزيد من المعلومات، انظر:

- الساداتي، نفس المرجع، ج١، ص٨٧، ٨٨
- فلسفي، نصر الله: نفس المرجع، ص٩

(٨٤) لا يوجد في الهند موضع يشبه اسمه هذه الكلمة، ومن المحتمل أن يكون المراد منها مندهير التي تذكر أيضًا باسم (مودهرا) وقد حرف الكتاب مودشرا إلى بهوروزه، راجع فيما يتعلق بفتح سومنات المقالات الموسعة والدقيقة التي كتبها صديقي الموقر السيد نصر الله فلسفي في العدد الأول والثاني والثالث والرابع والخامس من مجلة مهر ولم يترك شيئًا قيل عن هذا الموضوع

(٨٥) في الأصل: تلايه.

(٨٦) غزال ونصيب في الأصل.

(٨٧) أبو العباسي اسفراني في الأصل.

(٨٨) من العجائب أن بعضًا من الرجال الإيرانيين المعروفين عرفوا بأسماء آبائهم مثل أحمد ابن حسن الذي ذكر في الكثير من الكتب باسم أبيه (حسن ميمندي) كما يقول السعدي في گلستان: قال البعض من غلمان محمود (حسن ميمندي) ..

(وكذلك العارف الشهير الحسين بن منصور الحلاج فقد عرف باسم أبيه منصور الحلاج)

(٨٩) أبو نصر منصور بن مشكن صاحب الرسائل لمحمود، وابنه مسعود وكان أستاذ أبي الفضل البيهقي ورئيسه، وقد نشر العالم الفاضل السيد عباس إقبال مقالة عن علاقته بالبيهقي ورئيسه، وقد نشر العالم الفاضل السيد عباس إقبال مقالة عن علاقته بالبيهقي بعنوان (خواجه أبو الفضل بيهقي) في العدد

السادس من مجلة أصول تعليم وهي أول مقالة كاملة عن أحوال البيهقي تصدر باللغة الفارسية، وقد بينها على أحسن وجه.

(٩٠) في الأصل: التون باش ومن الواضح أن لابد أن يكون التونتاش، وتعني التون الذهب وتاش الحجر في التركية

(٩١) في الأصل: بتكانكين وبيلكانكين والأصح بلكانكين، وبلكا بكسر الأول وسكون الثاني بمعنى الحكيم والعالم والعاقل (ديوان لغات الترك لكاشغري).

(ج١، ص٣٥٨)، وتكين بكسر الأول بمعنى العبد (المصدر السابق ص٣٤٦)

(٩٢) الري: مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن، كثيرة الخيرات وافرة الغلات والثمرات قديمة البناء، ودور هذه المدينة كلها تحت الأرض، ودورهم في غاية الظلمة والصعبة المسلك، وإنما فعلوا ذلك لكثرة ما يطرقهم من العساكر، فإن كانوا مخالفين نهبوا دورهم، وإن كانو موافقين نزلوا في دورهم غصبًا، فاتخذوا مسالك الدور مظلمة ليسلموا من ذلك.

وأهل الري شافعية وحنفية. وأصحاب الشافعي أقل عددًا من أصحاب أبي حنيفة، والعصبية واقعة بينهم حتى أدت إلى الحروب، وكان الظفر لأصحاب الشافعي في جميعها مع قلة عددهم. والغالب على أهل الري القتل والسفك، يقول ياقوت الحمري: (واتفق أنني احتزت في خرابها سنة ٦١٧ هـ وانا منهزم من التتر فرأيت حيطان خرابها قائمة ومنابرها باقية وتزاويق الحيطان بحالها لقرب عهدها بالخراب إلا انها خاوية على عروشها، فسألت رجلاً من عقلائها عن السبب في ذلك فقال: أما السبب فضعيف ولكن الله إذا أراد أمرًا بلغه، كان

أهل المدينة ثلاث طوائف: شافعية وهم الأقل، وحنيفة وهم الأكثر، وشيعة وهم السواد الأعظم

وينسب إليها أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الحكيم الصاحب للكتب المصنفة، مات بالرى بعد منصرفة من بغداد فى سنة ٣١١هـ، كذلك ينسب إليها الإمام العلاقة أبو عبدالله محمد بن عمر الرازي، أمام الوقت ونادرة الدهر وأعجوبة الزمان، وينسب يحيى بن معاذ الرازي، إلى الرى، كان شيخ الوقت وصاحب اللسان فى الوعظ والقبول عند الناس، إلى أن اتصل بزين العارفين أبى يزيد البسطامي، فرأى من حالاته ما تحير فيها، فعلم أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، فلازم خدمته وذكر عنه حكايات عجيبة. والتاريخ السياسي لهذه المدينة قد تعاظم فى القرن الرابع الهجرى على يد البويهيين حيث اتخذوا ثلاث حواضر لدولتهم شياز والري أو أصفهان وبغداد، وكان البويهيون حريصين على أن يكون من كبار الأدباء، فوزروا ابن العميد والصاحب بن عباد والوزير المهلبي وابن سعدان ممن كانوا غُرَّةً فى جبين الأدب وكانت مجالسهم كعبة العلماء والأدباء من شتى البقاع

لمزيد من المعلومات، انظر:

- الحموي: نفس المصدر، ج٣، ص ١١٦ — ١٢٢
- القزويني: نفس المصدر، ص ٣٧٥ — ٣٨٢
- الخولي: نفس المرجع، ص ٢٦

(٩٣) الجبال: ناحية مشهورة يقال لها قهستان. شرقها مفازة خراسان وفارس، وغربها آذربيجان.ن وشمالها بحر الخزر، وجنوبها العراق وخوزستان،

وهي أطيب النواحي هواء وماء التربة. وأهلها أصح الناس مزاجا وأحسنهم صورة، قالوا: إنها تربة ديلمية لا تقبل العدل والإنصاف ومن وليها عصى!.

وبها جبل الغيم في ارتفاعه ولا الطير في تحليقه، قال مسعر بن مهلهل: انه جبل يعلو ذروته، يراه الناظر من عقبة همذان، والناظر من الري يظن انه مشرف عليها وبينهما فرسخان، فيقول القزويني: صعدت جبل دماوند حتى وصلت إلى نصفه بمشقة شديدة، ومخاطر بالنفس، فرأيت عينًا كبريتية، وحولها كبريت مستحجر، فإذا طلعت عليه الشمس التهبت نارا، والدخان يصعد من العين الكبريتية.

ويعرف ياقوت الحموي الجبال بقوله: جمع جبل: اسم للبلاد المعروفه اليوم باصطلاح العجم بالعراق، وهي ما بين أصبهان إلى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرميسين والري وما بين ذلك من البلاد الجليلة والكور العظيمة. وتسمية العجم له بالعراق لا أعرف سببه، وهو اصطلاح محدث لا يعرف في القديم، وقد ظننت أن السبب فيه أن ملوك السلجوقية كان أحدهم إذا ملك العراق دخلت هذه ملكه فكانوا يسسمونه سلطان العراق، وهذا أكثر مقامه بالجبال، فظنوا ان العراق الذي منسوب إليه ملكه، هو الجبال

لمزيد من المعلومات، انظر:

- الحموي: نفس المصدر، ج٢، ص٩٩
- القزويني: نفس المصدر، ص ٣٤١—٣٤٦

(٩٤) الديالمة: ينتسب الديالمة إلى بلاد الديلم وهي بأرض الجبال بقرب قزوين. وهي بلاد كلها جبال ووهاد. وفيها خلق كثير من الديالمة، وهم أشد

الناس حمقًا وجهلًا! بينهم قتال فإذا قتل واحد منهم قتلوا من تلك القبيلة أي واحد كان، وكانوا ملوك البلاد الجبال قديمًا. ذكر أن أصلهم من بني تميم، وليس ترى أكثرهم يميلون إلى الأدب والعربية منهم ملوك آل بويه وكانوا كلهم أفاضل ادباء.

ينسب إليها شمس المعالي قابوس بن وشمكير. كان ملكا فاضلا اديبا كان أخوه مرداويج صاحب بلاد الجبال، وكان عساكر الديلم والترك، وبينهما خصومة، وهو ينصر الديلم لأنهم كانوا انسابه، فالترك كبسوا عليه الحمام وقتلوه، فقام قابوس مقامه وتضعضع الملك، فانتزع آل بويه إلى أن غدر به ابنه منوجهر وحبسه فى بعض القلاع، وملوك الديلم ما كانوا فى طاعة الخلفاء قلما وقع لقابوس ما وقع قال المقتدر بالله:

قد قبس القابسات قابوس ... ونجمه في السماء منْحُوس!

فكيف يرجى الفلاح من رجل ... يكون في آخر بُوسُ؟

فلما سمع قابوس قال:

ياذا الذى بصروف الدهر عيرنا ... هي عائد الدهر إلا من له خطُر

أما ترى البحر تعلو فوقه جيف ... ويستقر بأدنى قعره الدررُ

وفي السماء نجوم غيره ذى عدد ... وليس يُكسفُ الشمس والقمر

انظر، القزويني: نفس المصدر، ص ٣٣٠، ٣٣١

(٩٥) مسعود فى الأصل

(٩٦) فى الأصل: كزبرروو

❖ يلاحظ من الإحصائية التي بينها لنا المؤلف أنها مبالغ إلى حد كبير وهذه الملاحظة هي: «أن السلطان اصطحب معه جيشا لم ير الزمان مثله أبدًا، ورافقه ١٢٠٠٠ بعير حاملين الذهب، ... وسبعمائة ألف بغل تحمل صناديق الذهب» فهذه الأعداد من البعير والبغال لا يعقل مما حمل من المال والذهب لمواجهة فئة ثارت على الدولة في خراسان أو لتسوية الأمر مع التركمان كما تبين لنا بعد ذلك.(المترجم)

(٩٧) طوس: مدينة بخراسان بقرب نيسابور، تشتمل على بلدتين يقال لإحداهما الطابران وللأخرى نوقان، وبها قبر علي بن موسى الرضا وقبر الخليفة هارون الرشيد، وينسب اليها الوزير السلجوقى نظام الملك الحسن بن علي هو صاحب الكتاب المشهور «سياست نامه» «كتاب السياسة». كذلك من هذه المدينة أئمة أهل العلم والفقه ما لا يحصى، وحسبك بأبى حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى الطوسى وابى الفتوح اخيه. وأما الغزالى أبو حامد فهو الإمام المشهور صاحب التصانيف التى ملأت الارض طولًا وعرضًا، قرأ على الإمام الحرمين ابى المعالى الجوينى ودرس فى النظامية بعد ابى إسحاق ونال من الدنيا أربهُ، ثم حج وترك الدنيا واختار الزهد والعبادة وصنف كتبًا لم يسبق إلى مثلها كـ«إحياء علوم الدين».

وينسب إليها ملك الابدال احمد بن محمد بن محمد الغزالى، كان صاحب كرامات ظاهرة، كان اخوه حجة الإسلام الإمام الغزالى، كذلك ينسب إلى هذه المدينة الحكيم الفردوسى، كان من دهاقين طوس، وهو الشاعر المعروف الذى ألف الشاهنامه كما وعد السلطان محمود الغزنوى، وقد نظم هذه المنظومة من

أول زمان كيومرت، وهو أول ملك ملك وانتهى إلى زمان يزدجر بن شهريار آخر ملوك العجم، وكانت منظومة في ستين ألف بيت مشتملة على الحكم المواعظ والترغيب والترهيب بعبارة فصيحة.

لمزيد من العلومات، انظر:

- الحموي: نفس المصدر، ج٤، ص ٥٠، ٤٩.
- القزويني: نفس المصدر، ص ٤١١- ٤١٧.

(٩٨) الكرامية: ظهرت هذه الفرقة في خراسان، كان زعيمها محمد بن كرام ومطرودا من سجستان مسقط رأسه في خراسان، وقد ابتدع هذا الزعيم في المعبود أنه جسم لا كالاجسام، وسجن لبدعته ثمانية اعوام في نيسابور، ثم أفرج عنه فتوجه الى بلاد الشام، وعندما عاد مرة أخرى الى نيسابور حبسه محمد بن عبدالله بن طاهر، كذلك لهذه الفرقة حظوة في العصر الغزنوي عندما أخذ الفقهاء على أبي الفتح البستي بأن يزكيها في شعره حتى يوهم جمهور من الناس بأنه كرامي، فالواقع أن أبا الفتح لم تكن له علاقة بهذه الفرقة التي تنسب الى محمد بن كرام المتوفى سنة ٣٥٥هـ وعقيدتها المعروفة بالتجسيم (بمعنى أن جوهر الله)، وإثبات جهة الفوقية لله بمعنى أن مستقر فوق العرش.

كذلك تبدأ قصة هذه الفرقة في عهد أبى بكر محمد بن إسحاق بن محمشاد زعيم هذه الطائفة في خراسان بعد أبيه الذى توفى عام ٣٨٨هـ، ويذكر العتبى هذه القصه بقوله: (كان أبو بكر مرموقًا في صدر الدولة العزنوية لمكانة أبية من الزهادة، وضمه الأطراف على العبادة، واقتضائة نهج أبيه، فيما كان ينحله وينتحيه، وكان الأمير ناصر الدين أبو منصور سبكتكين يرى من عصابته في التزهد والتعفف والترهب والتقشف ما قل وجود مثله في كثير من فقهاء الدين وأعيان المتعبدين، فحلا ذلك بقلبه كما يحلو بعينه)، واستمر السلطان محمود في

نهج أبيه فى إيثار الكراميه على بقية الفرق الدينية، إلى أن صادف أثناء عودة القاضى صاعد بن محمد من الحج عندما حمّله الخليفة القادر بالله، رسالة إلى السلطان محمود يذكّره بفساد العقيدة وخاصة فى التجسيم، كذلك بينما كان القاضى صاعد فى مجلس السلطان محمود صارحه ببعض آراء الكرامية فى التجسيم فاستنكر السلطان هذا، واستحضر أبا بكر وواجهه بما ذكر صاعد فأنكر.

على أن السلطان أحالهم إلى قاضيه أبي محمد الناصحى، ولمّا مثلا بين يديه اتهم أبو بكر صاعدًا بالاعتزال، ولكن الناصحى كشف حقيقه الكرامية للسلطان، فولى على نيسابور أبا على الحسن بن محمد بن العباس أحد قواده وقد كانت ادارة نيسابور قبل ذلك بيد الكراميين.

فاتخذ السلطان قراره بعد ذلك مصادر أموالهم ونفيهم إلى بعض القلاع، ثم ترك زعيمهم أبا بكر منزويًا فى بيته محرومًا من عطف السلطان.

لمزيد من المعلومات حول عقيدة الكرامية وتاريخهم السياسى، انظر:

— ابن حزم الظاهري، الإمام أبى محمد على بن أحمد، الملل والاهواء والنحل، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم النصر والدكتور عبدالرحمن عميرة، شركة مكتب عكاظ للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ج ٣، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م، ص ٢٢٧.

— البغدادى، الإمام عبدالقاهر بن طاهر: الفرق بين الفرق وبيان الفرقه الناجية منهم، تحقيق لجنة إحياء التراث العربى فى دار الآفاق الجديدة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٢م، ص ٢٠٢ — ٢١٤.

- الخولي، محمد مرسى (دكتور) : نفس المرجع، ص ٥٤ — ٦٥.

(٩٩) جرجان: مدينة عظيمة مشهورة بقرب طبرستان، بناها يزيد من المهلب بن أبى صفرة، وهى أقل ندى ومطرًا من طبرستان، يجرى بينهما نهر تجرى فيه السفن، بها البلح والنخل والزيتون والجوز والرمان، وبها من الثمار والحبوب السهلية والجبلية، يعيش بها الفقراء، ويوجد فى صيفها جنى الصيف والشتاء من الباذنجان والفجل والجزر... وينسب إليها أبو سعيد إسماعيل بن احمد الجرجانى. كان وحيد دهره فى الفقه والأصول والعربية، مع كثرة العبادة والمجاهدة وحسن الخلق والاهتمام بأمور الدين والنصيحة للمسلمين.

وينسب إليها القاضي أبو الحسن على بن عبدالعزيز الجرجانى، كان أديبًا فقيهًا شاعرًا، وينسب إليها الامام عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجانى، كان عالمًا فاضلًا اديبًا عارفًا بعلم البيان، له كتاب اعجاز القرآن فى غاية الحسن ما سبقه أحد فى ذلك الأسلوب. من لم يطالع ذلك لا يعرف قدره ودقة نظره ولطافه طبعه، واطلاعه على معجزات القرآن.

وبها مشهد لبعض أولاد على الرضا، العجم يسمونه (كورسرخ)، النذر له يفضى إلى قضاء الحاجة، وهذا أمر مشهور فى بلاد العجم، يحمل إليها أموال كثيره ويصرف إلى جمع من العلويين هناك.

لمزيد من المعلومات، انظر :

- القزوينى: المصدر السابق، ص ٣٤٨ — ٣٥١.

(١٠٠) دامغان: بلد كبير بين الرى ونيسابور، كثير الفواكه والمياه والأشجار، من عجائبها مقسم للماء كسروى، يخرج ماؤه من مغاره ثم ينقسم إذا انحدر منه على مائة وعشرين قسمًا لمائة وعشرين رستاقا، فيها تفاح يطلق

عليه اسم التفاح القومسى، كان يحمل إلى العراق لطيبه وحسنه، وقد نسب إلى دامغان جماعة من أهل العلم منها ابراهيم بن إسحاق الزراد الدامغانى حنفى المذهب، تفقه على ابى عبدالله الضميرى ببغداد وسمع الحديث من أبى عبدالله محمد بن على الصورى، وكانت ولادته بدامغان سنه ٤٠٠ هـ، وقد ولى قضاء القضاة ببغداد غير واحد من ولده.

لمزيد من المعلومات، انظر:

- الحموى: المصدر السابق، ج٢، ص ٤٣٣ ، ٤٣٤ .
- القزوينى: المصدر السابق، ص ٣٦٥.
- شامى: المرجع السابق، ص ٢٦٤ ، ٢٦٥.

(١٠١) أصفهان: مدينه تاريخية عريقة من أعظم المدن وأشهرها، والمدينة القديمة تسمى جى، قالوا: إنها من بناء الإسكندر. والمدينة العظيمة تسمى اليهودية، وذلك أن بختنصر أخذ أسارى بيت المقدس أهل الحرف والصناعات، فلما وصلوا إلى موضع أصنفهان وجدوا ماءها وهواءها وتربتها شبيهة ببيت المقدس، فاختاروها للوطن وأقاموا بها عمرها. ولصناعها يد باسطة فى تدقيق الصناعات، لا ترى خطوطًا كخطوط أهل أصنفهان ولا تزويقًا كتزويقهم، وهكذا صناعتهم فى كل فن فاقوا جميع الصناع. أما ارباب العلوم كالفقهاء والأدباء والنجميين والأطباء فأكثر من أهل كل مدينه، سيما فحول الشعراء أصحاب الدواوين، فاقوا غيرهم بلطافه الكلام وحسن المعانى وعجيب التشبيه وبديع الاقتراح، مثل رفيع فارسى دبير وكمال زياد، وجمال عبدالرزاق وكمال إسماعيل. فهؤلاء أصحاب الدواوين الكبار لا نظير لهم فى غير أصفهان.

وينسب إليها الأديب الفاضل أبو الفرج الأصفهاني، صاحب كتاب (الأغاني) ذكر في ذلك أخبار العرب وعجائبها وأحسن أشعارهم. كتاب في غاية الحسن كثير الفوائد لم يسبقه في ذلك أحد.

وينسب إليها الأستاذ أبو بكر بن خورك، كان أشعريًا لا يأخذ في الله لومة لائم، درس ببغداد مدة، وكان جامعًا لأنواع العلوم، صنّف أكثر من مائة مجلد في الفقه والتفسير وأصول الدين، ثم ورد نيسابورًا فبنوا له دارًا ومدرسة.

وينسب إليها الحافظ أبو نعيم الأصفهاني، واحد عصره وفريد عصره.

هو صاحب حلية الأولياء، وله تصانيف كثيرة، وله كرامات، وينسب إليها صدر الدين عبداللطيف الخجندي. كان رئيسًا مطاعًا في أصفهان عالمًا واعظًا شاعرًا، يهابه السلاطين ويتبعه مائة ألف مسلح.

لمزيد من المعلومات، انظر:

- الحموي: المصدر السابق، ج١، ص ٢٠٦ — ٢١٠.
- القزويني: المصدر السابق، ص ٢٩٦ — ٢٩٩.

(١٠٢) خرخشة بوزن أقمشة، لم يكن يغلب الجدل وخاصمه وفي خاطره القلق والخلجان.

(١٠٣) كلمة خاشه بوزن ماشه بمعنى شك وحسد.

(١٠٤) العنصري: هو أبو القاسم حسن بن أحمد العنصري، يقال إنه ولد سنة ٣٥٠هـ وأصله من بلخ، ويُذكر عنه أن أباه احترف التجارة، وقد مارس هو

أيضاً مهنه أبيه، وظل يعمل فيها حتى غصبه ثروته قطاع الطريق فى أحد أسفاره.

واندمج بعد تلك الحادثة فى طريق تحصيل العلم، حتى اكتسب شهرة وبلغ منزلة رفيعة، ووصل فى النهاية إلى خدمة السلطان محمود، عن طريق أخية الأكبر الأمير نصر بن سبكتكين. وقد زادت مكانته على مر الأيام حتى لقب بعد ذلك بألقاب منها : الأستاذ الرئيس، الحكيم، ولكن السلطان محمود لشهرته بين الشعراء الآخرين لقبه بـ (ملك الشعراء) وأمر كل شاعر فى الدولة أن يعرض شعره عليه، حتى يميز بين غثه وثمينه ليكون صالحًا للعرض، فأصبح مجلسه لذلك مقصد الشعراء، وكان يترأس أربعمائة شاعر يسيرون فى ركاب السلطان محمود.

ومحور أشعار العنصرى، يدور حول قصائده التى كان أغلبها فى مدح السلطان محمود، وأخيه الأمير نصر، وابنه السلطان مسعود، وقد شرح فيها أعمالهم وفتوحاتهم لبلاد الهند ومناطق أخرى.

وللعنصرى ديوان قصائد يقال إن مجموعه كان فى الأصل عبارة عن ثلاثة الآف بيت، كما كانت له مهارة فى فن المثنويات. ويقال إنه أول من نظم قصة (وامق وعذراء) وينسبون كذلك مثنويات أخرى مثل (سرخ بت — المعبد الأحمر) (وخنك بت — المعبد السعيد) (وشاد بهر — الحظ السعيد).

قدم للعنصرى كل هذه الأعمال الخالدة، كما انه استطاع إبعاد الحزن عن قلب السلطان محمود، والقصة التى يرويها نظامى العروضى السمرقندى فى كتابه چهاز مقاله، مضمونها أن السلطان محمود كان ذات ليلة فى حالة سكر شديد وكان معه إياز الذى كان يؤثره بمحبته فأمره أن يقطع طرته فامتثل إياز لأمر محمود، ولما افاق محمود من سكره طلب إيازًا وأبصر طرتيه المقطوعتين،

فندم على ما فعل وغضب غضبًا شديدًا لدرجة أنه كان يرقد ويقوم ولا يستطيع أحد المقربين إليه أن يسأله ما به، وأخيرًا توجه حاجبه على قريب إلى العنصرى وطلب إليه أن يأتي لتهدئة ثورة محمود فأقبل العنصرى على السلطان محمود وبعد أن حياه وعظمه قال تلك الرباعية على البديهة:

لم تعيب قطع طرة الحبيب ولم تقعد وتقوم مهمومًا؟

ألا فاطرب وانشط واشرب فإن زينة السرو فى شذبه.

فسر السلطان محمود من هذين البيتين سرورًا شديدًا، وأمر أن يؤتى بالجواهر فملأ بها فم العنصرى ثلاث مرات، وهذا يدل على مدى صلته وقربه بالسلطان، وعلى مقدرته بهذين البيتين أن ينهى حزن للسلطان.

لمزيد من المعلومات، انظر:

— السمرقندى، نظامى العروضى: چهار مقالة (المقالات الأربع) فى الكتابة والشعر والنجوم والطب، نقله إلى العربية عبدالوهاب عزام ويحيى الخشاب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٨هـ / ١٩٤٩م، ص ٥٦ — ٥٩.

— شفق، رضا زاده (دكتور): تاريخ الأدب الفارسي، ترجمه محمد موسى هنداوى، الناشر دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٤٧م، ص ٤١، ٤٢.

— بروان، ادوارد جرانفيل، تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى، نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين الشواربى، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م، ص ١٣٩ — ١٤٣.

— الشابى، على: الأدب الفارسى فى العصر الغزنوى، تونس، ١٩٦٥، ص ٢٤٠—٢٤٤.

(١٠٥) الفردوسى : يعتبر الفردوسى من الشعراء العظام وقد ترك بصمات كثيرة على الشعر بشكل عام وخاصة عندما ألف الشاهنامه وهى المنظومة المشهورة التى اراد أن يهديها إلى السلطان محمود الغزنوى ، ولكن الفردوسى تراجع عن ذلك عندما لم يجزه الجزاء الذي قطعه السلطان على نفسه بأن يعطيه على كل بيت دينارا ذهبا ، والقصة التى حول هذا الخلاف الذي وقع بين السلطان والفردوسى أن السلطان كان رجلًا شديد التعصب فأثرت فيه الوشايات التى حكيت حول الفردوسى بأنه رافضى. على أية حال لم يعترف السلطان محمود بقيمة الشاهنامه كما ينبغى ، وقرر أن يمنح الفردوسى على كل ما عاناه فى الثلاثين عام من الالآم والتعب عشرين ألف درهم ، فغضب الفردوسى غضبًا شديدا ، وذهب إلى الحمام واغتسل ثم خرج منه وشرب فقاعًا ، وقسم النقود بين صاحب الحمام وبائع الفقاع ، وكان يعلم بقسوة محمود ، فخرج من مدينة غزنه ليلًا ونزل بمدينة هراة فى دكان إسماعيل الوراق والد الأزرقى ، ثم توارى فى منزله مدة ستة أشهر حتى وصل رسل محمود فى طلبه إلى مدينه طوس وانصرفوا عنها. فلما أحس الفردوسى الأمن والطمأنينة خرج من هراة وتوجه إلى طوس ، وحمل الشاهنامه معه ، ومنها إلى طبرستان لدى حاكم من آل باوند ، وهم جماعة يتصل نسبهم بآل ساسان ، ورغب أن يقدم الشاهنامه باسمه ، ولكنه منع الفردوسى من أن يظل على عدائه مع السلطان ، فابتاع منه هجاءه له ، وقفل الفردوسى عائدًا إلى طوس.

ومضت سنوات والسلطان مشغول فى غزوات فى الهند إلى أن تذكر الفردوسى ، فندم على قطيعته له ، فأمر الوزير أن يحمل الهدايا والمال إلى طبران فلمّا دخلت الإبل من باب الـ (رودبار) كانت جنازة الفردوسى تخرج من باب (رزان).

ويبقى بعد ذلك الآثار التى تركها الفردوسى فى الشاهنامه وقصة يوسف وزليخا، او أشعاره الأخرى، فقد تقدمه أمثال أبى شكور البلخى، والرودكى والدقيقى، ولاشك أن لهم تأثيرا كبيرًا فى فكرة وذوقه إلا أنه — مع ذلك- فقد أبلغ فصاحه الكلام الفارسى إلى حد الكمال، ومنح فن القصة قوة كبيرة، ولا شك كذلك أنه قد تابعه كثير من المقلدين، فقد ألف بعده كثير من شعراء الفرس على طريقته شاهنامات أخرى نظما ونثرا، مثل ظفرنامه لحمد الله المستوفى، وهو تاريخ منظوم على وزن الشاهنامه، نظمت فى القرن الثامن الهجري، ومثل شاهنامه أحمد التبريزي فى القرن الثامن كذلك، شاهنامه القاسمي فى القرن العاشر.

على أية حال لم يبلغ —حتى الآن- شخص من التابعين أو المقلدين ما بلغه أستاذهم، فكأنما قد بدأت الشاهنامه بالفردوسي وختمت باسمه كذلك.

لمزيد من المعلومات، انظر:

- القزويني: نفس المصدر، ص ٤١٥- ٤١٧.
- براون: نفس المرجع، ص ١٥٨- ١٦٥.
- شفق: نفس المرجع، ص ٤٩- ٦١.

(١٠٦) هنا عنوان يجب أن يكتب باللون الأحمر مثل «ذكر السلطان محمد بن السلطان محمود» ولم يكتب وبقي مكانه فارغا.

(١٠٧) فى الأصل: كوه كان.

(١٠٨) حسين فى الأصل.

(١٠٩) رستم زال: أحد أبطال الشاهنامه للشاعر الكبير (الفردوسي) وقد حيكت حـ ـل هذا البطل حكايات كثيرة خاصة عندما فقد حصانه المسمى بالرخش، وذهب إلى مدينة سمنجان، فطالب أميرها بأن يبحثوا عن حصانه وإلا فرق بين رؤوس القوم وأجسادهم، فطيب أمير سمنجان خاطره قائلا: لا حاجة بك إلى الحدة والغضب، فإن رخش رستم لا يخفى على أحد، وسنبحث عنه ونرده إليك، وليكن سيد الابطال هذه الليلة ضيفا علي فى بيتي، نشرب على شكر هذا اللقاء، ونطرب، وسيكون الرخش حاضرا فى الصباح.

والقصة تنتهي بعد ذلك بزواج رستم بابنة أمير سمنجان (تهمينة) التي تنجب منه ابنا سماه «سهراب» وعندما كبر يشاء أن يواجه والده فى حرب بين الطورانيين والإيرانيين ويقتل على يد والده وهو لا يعلم أن البطل هو ابنه، مع أن الابن أصر على والده عدة مرات بالسؤال عن رستم زال البطل الإيراني المشهور ولكن رستم تنصل عن هوايته حتى يواجه ابنه فى القتال، وبعد تصارع الإثنين فى يومين متتاليين قتل الأب الأبن، وعندما علم بالحقيقة شرع فى البكاء والحسرة وأخذ يندب ولده قائلًا: (واحسرتاه عليك يا ولدي، لقد ذهبت وما يزال ورد خديك ناضرًا، وغابت شمس حياتك ولم ينتصف نهار عمرك، قتلت ظلمًا بيد أبيك، وهويت فى خريف التراب البارد ولم تر الربيع).

لمزيد من المعلومات، انظر:

– الفردوسى، أبو القاسم: الشاهنامه، ترجمها نثرًا الفتح بن على البندارى، قارنها بالأصل الفارسى، وأكمل ترجمتها فى مواضع، وصححها وعلق عليها، وقدم لها الدكتور عبدالوهاب عزام، الجزء الأول مع المقدمة والمدخل، دار سعاد الصباح، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م، ص ١٣٦ – ١٤٧.

(١١٠) محمود فى الأصل.

(١١١) كبيرك فى الأصل.

(١١٢) فى الأصل : بو الحسنى.

(١١٣) فى الأصل : ستارى.

(١١٤) فش بفتح أوله وسكون الثانى بمعنى شعر رأس الخيل، وكل ما يخرج عن الحجاب بمقدار فتر بشكل طرة، وله علاقة باللحية تحت الحنك، وكل شئ له نهاية مثل ذيل الحصان.

(١١٥) فى الأصل برره كار.

(١١٦) فى الأصل اسفيكين، ولكنه جاء فى تاريخ بيهقى طبعة كلكته فى الصفحات (٩٧ ، ٩٨ ، ٢٨٦) كلمة اسفتكين ، وفى طبعة طهران جاء فى موضع واحد اسفتكين وفى (ص ٨٤) اسفتكين، وفى موضع آخر (ص ٨٥) أسفتكين، وفى موضع ثالث (ص٢٣٠) اسفتكين، ولكن يبدو أن اشفتكين أصح.

(١١٧) فى الأصل : محمد.

(١١٨) أوبارق فى الأصل.

(١١٩) أرياق فى الأصل.

(١٢٠) الأصل : (يطلق الفقراء والمساكين من الورق عارفي وراهم ومن الخير طالف ما وقف اللحم لفى وما من الكرباس خالف ورراعا) انظر تاريخ البيهقى طبعة طهران ص ١٥٣ ، وطبعة كلكته ص ١٨١.

(١٢١) فى الأصل : ايارق.

(١٢٢) فى الأصل آلتون باش والتوان باش.

(١٢٣) فى الأصل آلتون باش وآلتون باش.

(١٢٤) فى الأصل : جغراليك.

(١٢٥) طغرليك فى الأصل.

(١٢٦) زادكان فى الأصل.

(١٢٧) الخانقاه : كانت عبارة عن مجموعة بيوت وانتشرت فى أرجاء الأقاليم الإسلامية إلى أن أخذت طابع المركز والتجمع للمتصوفه، فمنذ القرن الرابع الهجرى بدأت الخانقاهات فى الانتشار، وازداد انتشارها بشكل ملحوظ فى أوائل القرن الخامس حتى عمت جميع أنحاء العالم الاسلامى. وكان هناك عدد كبير من هذه الخانقاهات فى خراسان والعراق وفارس وأنحاء كثيرة من إيران. ووضعوا نظامًا معينًا للحياة فيها، وكان يقوم بإداره كل واحدة منها شيخ من شيوخ الصوفية المعروفين فى هذه الفترة، ونجد على رأس هؤلاء أبا سعيد بن أبى الخير الذى يعتبر أول من شرع نظام الحياة في الخانقاهات، وأدار عددًا منها، واعتلى المنبر فى نيسابور، وعقد المجالس، وتصدى لعلماء الظاهر وأئمه المذاهب وجادلهم وحاورهم مما عرّض حياته للخطر فى بعض الأحيان، وقد ظل أبو سعيد يعمل قرابة نصف قرن على نشر تعاليمه الصوفية فى خراسان، مستقرًا فى نيسابور وموطنه (ميهنه) تارة، ومتنقلًا ما بين (طوس) و (مرو) تارة أخرى، وتجمع حوله المريدون من كل مكان، ونال حظوة كبيرة عند العامة والخاصة.

أما عن أخبار الخانقاه وما كان يدور فيها فهذا خبر قد أورده محمد بن المنور صاحب كتاب أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد عن خانقاهات هذه الحكاية عن خانقاه (محلة عدنى كويان) فقال: إنه سمع من الشيخ محمد الشوكانى خادم الشيخ (يعنى الشيخ أبو سعيد بن أبى الخير) ومن أخيه زين الطائفه عمر الشوكانى (فى ذات يوم ذهبت إلى محله عدنى كويان لعمل ما، فرأيت جمعًا على باب الخانقاة، فسألت عما حدث. فقيل لى: لقد جاء رجل من ميهمنه يقال له الشيخ أبو سعيد بن أبى الخير، وهو شيخ، زعيم للصوفية، وله كرامات ظاهرة. وقد نزل بهذه الخانقاه وسيتحدث اليوم فى هذه المجلس، وهؤلاء يرغبون فى حضور مجلسه. وهذا هو سبب الازدحام. فقلت لنفسى فلأدخل أنا ايضًا لأرى ماذا يقول. وحين دخلت من باب الخانقاه كان هناك عمود على الرواق، فوقفت جواره. وكان الشيخ قد جلس على المنصه وأخذ يتحدث. ونظرت إليه، فرأيت فيه ذلك الرجل الذي أجلسنى على الأسد فى الصحراء (وكان الشوكانى له قصة مع الشيخ أبى سعيد حول كرامات الشيخ بأن أركبه أسدًا، فأغمت عينى، فوجدت طريقًا ...) وكان يتحدث وهو يتجه إلى ناحية أخرى. وعندما سمعت صوته، عرفته للمره الثانية. وأردت أن اقول ذلك، فالتفت إلى فى الحال وقال: إياك ... إياك، ألم تسمع بأن ما يرى فى الصحراء لا يقال فى العمران؟ ...

لمزيد من المعلومات، انظر:

- قنديل، إسعاد عبدالهادى (دكتورة): كشف المحجوب للهجويرى، دراسه وترجمه وتعليق دكتورة إسعاد عبدالهادى قنديل، راجع الترجمة: دكتور أمين عبدالمجيد بدوى، الكتاب التسعون، المجلس الأعلى للشئون الاسلاميه، جمهورية مصر العربية، يونيه ١٩٧٣، ص ٣٧.

– أبو الخير، محمد المنور بن أبى سعيد بن طاهر بن أبى سعيد بن أبى الخير، اسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد، ترجمه إسعاد عبدالهادى قنديل، مراجعه الدكتور يحيى الخشاب، الدار المصرية للتأليف والترجمه، بدون تاريخ، ص ٨٤ – ٨٩.

– ميرا، محسن كيانى (كيانى) دكتور: تاريخ خانقاه در إيران، كتابخانه طهورى، تهران، ١٣٦٩، ص١٢٥ – ١٣١.

(١٢٨) السلطان سنجر السلجوقى: هو السلطان سنجر بن ملكشاه (٤٧٩ – ٥٥٢هـ) وقد ولد فى سنه ٤٧٩هـ فى مكان من آسيا الصغرى اسمه (سنجار) فنسب إليه، أما وفاته فكانت فى سنة ٥٥١هـ - أو سنة ٥٥٢هـ، وامتد حكمه إحدى وسبعين سنة، منها عشرون سنة تولى فيها حكم خراسان، وإحدى وأربعون تولى فيها حكم العالم أى حكم الدوله السلجوقية، والحقيقه أن السلطان سنجر حكم الدولة السلجوقية من (٥١٣- ٥٥٢هـ) أى تسعه وثلاثين سنة.

أما الاحداث المؤلمة فى أيامه عندما بدأت فى عصره ثوره ملك خوارزم «أتسز» وأعلن فيها استقلاله التام فى سنة ٥٣٥هـ، وفى السنة التالية قهره جماعة من كفار الأتراك وأخذوا زوجته أسيرة، وقتلوا من رجاله مائة ألف رجل، واستولوا منه على «مرو» و «سرقس» و «نيسابور» و «بيهق» وظلت هذه المدن فى أيديهم فترة من الزمان.

أما هزيمته الثانية فكانت على أيدى «الأتراك الغز» سنة ٥٤٨ هـ، فأغار هؤلاء الأتراك «طوس» و «نيسابور» ونهبوها، وقتلوا كثيرًا من سكانهما، وذبحوا كثيرًا من الرجال الذين اشتهروا بالعقل والصلاح، كما وقع السلطان سنجر نفسه أسيرًا فى أيديهم، فعاملوه ظاهريًا بشئ من الإجلال والإكرام، ولكنهم حظروا

عليه حرية النقل ومنعوه من مساعدة رعاياه المنكوبين وأبقوه فى أسرهم حتى خريف سنة ٥٥١هـ، فأستطاع المؤيد وجماعه من خلصاء أتباعه السابقين أن يرشوا حراسه من «الغز» وأن ينجوه من الأسر وأن يبلغوه مدينة «مرو» سالمًا آمنًا.

لمزيد من المعلومات، أنظر:

- القزوينى: نفس المصدر، ص ٤١٥ و ص٤٩٦.
- بروان: نفس المرجع، ص ٣٧٨ – ٣٨٠.

(١٢٩) علاء الدين حسن الغورى: يختلف المؤرخون حول هذه الشخصية وحول تسميته، منهم من يؤكد أنه علاء الدين حسن وآخرون يقولون: إنه علاء الدين حسين، وينتهى جماعه من النسابه إلى القول ان علاء الدين هو حسن أبن حسين بن سام بن سورى.

وخلاصة القول أن علاء الدين كان ملكًا على بلاد الغور بعد مقتل أخيه سورى فى غزنه بيد السلطان بهرامشاه، القصه التى تروى حول مقتل سورى أن السلطان بهرامشاه عندما كان عائدًا من بلاد الهند بجيش كبير وعدد كبير من الفيلة إلى غزنه، تقاتل مع سورى ملك الغور. فانتصر عليه وأسره، ثم أجلسه على ثور وطوّف به حول غزنه حتى قتل، وعندما وصل خبر مقتل أخيه إلى علاء الدين، جهز جيشًا كبيرًا وفيه أشجع رجال الغور لينتقم من الغزنويين، وعند وصوله إلى غزنه، علم بخبر وفاه بهرامشاه، ولكن علاء الدين لم يهتم بهذا الخبر وتقاتل مع الغزنويين حتى انتصر عليهم، ثم توجه إلى غزنه، ودخلها من أجل الانتقام، وعمد إلى القتل والتخريب وحرق المدينه، بل أنه أباح للغوريين غزنه سبعة أيام، حيث حرقوا كل شئ فى المدينة بما فيها قصور سلاطين الغزنويين، كذلك قتلوا كل رجال الدولة، حتى أن قبور السلاطين لم

تسلم من العبث ، فأخرجوا الرفات من القبور فأحرقوها ، ولم يسلم من هذا العبث إلا قصر يمين الدولة وأمين الملة سلطان محمود بن سبكتكين ، وبهذه الأعمال الوحشية التى قام بها علاء الدين حسن من القتل والحرق لقب هذا السلطان بـ «جهان سوز» أى «محرق العالم».

أما ما جاء من أخبار علاء الدين حسن فى كتابنا «الأجزاء المفقودة من كتاب أبى الفضل البيهقى «أن علاء الدين حسن جاء بجيش جرار إلى غزنه، فهرب بهرام منه ، وأجلس علاء الدين أخاه سيف الدين على عرش الحكم ، وعاد هو إلى هراة ، وعندما سنحت لبهرامشاه الفرصة ، رجع ، وعاتب سيف الدين ، وأجلسه على ثور ، وطاف به مدينة غزنه ، فقتله ، وبلغ هذا الخبر علاء الدين حسن ، فجاء بنفسه مع جيش كثيف ، وتوفى قبل مجيئه. وجلس خسرو شاه على العرش ، ووصل علاء الدين مع جيش ، فهرب خسروشاه وجلس فى غزنه علاء الدين حسن ، والسلطان غياث الدين وشهاب الدين فقد كانا ابنين لأخيه ، وذهب هو نفسه ، واستطاع أن يستدرج خسروشاه بلطائف الحيل ، وأعطوه الامان ، وقبضوا عليه وهو فى رحلة صيد ، وحبسوه حتى توفى ، وانتهى عهد سلاطين غزنه وآل محمود بن سبكتكين وكان ذلك فى سنه ٥٨٢هـ.

لمزيد من المعلومات ، انظر :

- ميرخواند ، مير محمد بن سيد برهان الدين خواوند شاه ، تاريخ روضة الصفا ، طهران ، كتاب فروشي مركزى فروردين ١٣٣٩ش ، المجلد الرابع ، ص ٦٣٣ — ٦٣٧.

- خواند امير ، غياث الدين بن همام الدين الحسينى : تاريخ حبيب السير فى اخبار افراد بشر ، زير نظر : دكتر محمد دبير سياقى ، از انتشارات كتابفروشى خيام ، طهران ، جاب دوم ، ١٣٥٣ ش ، المجلد الثانى ، ص ٦٠٢ — ٦٠٤.

- البيهقي : «الأجزاء المفقودة»، ص ٦٨.

(١٣٠) ربما الأشرار والفتوات.

(١٣١) خوارزم: ناحية مشهورة ذات مدن وقرى كثيرة، وسيعة الرقعة فسيحة البقعة، جامعة لأشتات الخيرات وأنواع المسرات، إذن خوارزم ليس اسمًا للمدينة، انما هو اسم للناحية بجملتها، ومثل خوارزم فى الشرق كسجلمامة فى الغرب، وطباع أهل خوارزم مثل طباع البربر، وما اختصت به خوارزم أنواع الرقيق والخيل، وضروب الضواري من البزاة والصقور وأجناس الوبر وألوان الثياب، وثمارها أطيب الثمار. وهي ثمانون فرسخا فى ثمانين فرسخا، كما يحيط بها رمال سيالة يسكنها قوم من الأتراك والتركمان بمواشيهم، وبها نهر جيجون يخرج من حدود بذخستان، وينضم إليها أنهار فى حدود الختل ووحش فتصير نهرا عظيما، ثم يمر على مدن كثيرة حتى يصل إلى خوارزم، ثم ينحدر عن خوارزم ويصب فى بحيرة تسمى بحيرة خوارزم.

وعندما دخلت خوارزم فى حوزة السلطان محمود الغزنوي، عين عليها شخص يسمى التونتاش ولقبه بخوارزمشاه، وقد أخلص هذا الوالي العمل للسلطان محمود فترة حكمه، وعندما توفى السلطان محمود كان هناك تسوية الحسابات للمحموديين (أي الذين كانوا يعملون مع السلطان محمود) من قبل السلطان مسعود، ولكن هذا الوالي كان السلطان مسعود يكن له كل الاحترام فلم يستطع الحاسدون والمغرضون التأثير عليه على السلطان للنيل منه، بل أكرمه برسالة كانت بدايتها «بعد الصدر والدعاء، إن للعم الفاضل الحاجب التونتاش خوارزمشاه منزلة تعادل تلك التي كانت لوالدنا السلطان، ذلك لأنه قد شملنا منذ طفولتنا إلى اليوم بعطف ورعاية تعادل عطف الآباء ورعايتهم لأبنائهم».
والذين ينسبون إليها من الأعلام والعلماء لا يحصون منهم: أبو بكر الخوارزمى صاحب «مفاتيح العلوم» وكذلك داود بن رشيد ابا الفضل الخوارزمى، رحل

فسمع بدمشق الوليد ابن مسلم وأبا الزرقاء عبدالله بن محمد الصخانى وكثيرا من العلماء، وروى البخارى عن محمد ابن عبدالرحيم فى كفارات الايمان، وقال: مات فى سنة ٢٣٩هـ.

لمزيد من المعلومات، انظر:

- البيهقى، نفس المصدر، ص ٨٩ – ٩٠.
- الحموى، نفس المصدر، مج ٢، ص ٣٩٥ – ٣٩٨.
- القزوينى، نفس المصدر، ص ٥٢٥ – ٥٢٧.

(١٣٢) ترمذ: مدينة فى أوزبكستان على نهر آمودريا (نهر جيحون)، وهى مشهورة ومن أمهات المدن، فتحها موسى بن عبدالله ابن خازم سنة ٧٠هـ، واستقل بها حتى أعادها إلى الأمويين عثمان بن مسعود، وذلك سنة ٨٥هـ، فيها مساجد وآثار إسلامية كثيرة، أهمها مقام الترمذي الحكيم ويعود تاريخ بنائه إلى القرن السادس الهجرى. من مميزات هذه المدينة أن أسواقها مفروشة بالآجر، ولهم شرب يجرى من الصغانيان لأن جيحون يستقل عن شرب قراهم، وإليها أنتسب عدد من أعيان العلماء والفقهاء منهم أبو عيسى محمد الترمذى، تلميذ الأمام البخارى، له فى الحديث كتاب «الجامع الصحيح» وكتاب «الشمائل النبوية» وكتاب «العلل فى الحديث» كما ينتسب إليها أبو عبدالله محمد الترمذى الحكيم، الفقيه والمحدث والمتصوف، له كتاب «نوراد الأصول فى أحاديث الرسول» وله كتاب «الرياضة وأدب النفس» توفى سنة ٣٢٠هـ، كما ينسب إلى ترمذ أحمد أبو الحسن ابن جنيدب أبو الحسن الترمذى الحافظ، روى عنه البخارى فى صحيحه والترمذى فى جامعه، وغيرهما.

أما التاريخ السياسى لمدينة ترمذ فإنها كانت شاطر خراسان وبلاد ما وراء النهر فى أحداثها، فكان مما يعظم من شأنها اتخاذ نهر جيحون حدًا لها كما هو الحال فى الوقت الحاضر وقد يعظم من شأنها أحيانًا أخرى اتصالها لبلخ، وكانت ترمذ فى عهد السلطان محمود وخلفائه تابعه للدولة الغزنوية كسائر ولايات بلخ.

وعندما انتقل الحكم إلى القره خطائيين فى بلاد ما وراء النهر نتيجة للقتال الذى نشب فى صحراء قطوان بالقرب من سمرقند فى الخامس من صفر عام ٥٣٦هـ، ظلت ترمذ فى حوزة السلاجقة، وما يستدل على ذلك من ان السلطان سنجر قد احتمى بها ٥٥١هـ إلا ان القره خاطائيين استولوا بعد ذلك على مدينة ترمذ وظلت فى حوزتهم إلى أن استولى عليها عماد الدين عمر والى بلخ من قبل الغوريين فى ذي القعدة عام ٦٠١هـ.

لمزيد من المعلومات: انظر،

- الحموى: نفس المصدر، ج٢، ص٢٦، ٢٧.
- دائرة المعارف الإسلامية، مج ٥، ص ٢٢٢ – ٢٣١.
- شامى، يحيى (دكتور): نفس المرجع، ص ٤١١.

(١٣٣) النوروز: كلمة فارسية مركبة من لفظين الأول «نو» أى الجديد والثانى «روز» أى اليوم، فكلمة «نوروز» فى اللغة تأتي بمعنى «اليوم الجديد».

أما فى الاصطلاح فتنطلق على عيد رأس السنة الفارسية الذى يقع فى اليوم الأول من شهر فروردين الموافق ٢١ مارس (آذار) أى أول فصل الربيع.

النوروز اعظم أعياد الفرس واجلها، يتميز – على بقية الأعياد الفارسية مثل المهرجان – بأنه استقبال السنة وافتتاح جباية الخراج، وزمن تولية العمال استبدالهم، وضرب الدراهم والدنانير، وتزكية بيوت النيران، ويرش الناس الماء بعضهم بعضًا. كما تقرب فيه القرابين، ويشهد البنيان، وما أشبه ذلك.

ومن العادات والتقاليد المتبعة بأن يبدأ الملك يوم النوروز فيعلم الناس بالجلوس لهم والإحسان إليهم. وفى اليوم الثانى يجلس لمن هو أرفع مرتبة وهم الدهاقين وأهل البيوتات. وفى اليوم الثالث يجلس لأساروية وعظماء موابذته، وفى اليوم الرابع لأهل بيته وقرابينه وخاصته، وفى اليوم الخامس لولده وصنائعه، فيصل إلى كل واحد منهم ما استحقه من الرتبة والإكرام، فإذا كان اليوم السادس كان قد فرغ من قضاء حقوقهم منوروز لنفسه، ولم يصل إليه إلا أهل انسه، ومن يصلح لخلوته، وأمر بإحضار ما حصل من الهدايا على مراتب المهدين، فيتأملها، ويفرق منها ماشاء، ويودع الخزائن ما شاء.

وكذلك من العادات والتقاليد المتبعة عند عامة الشعب في مثل هذا اليوم:

١- إيفاد النيران: لا شك أن هذا التقليد من أقدم الرسوم المتبعة فى هذا اليوم، وقد جرت العادة على أن تجمع مواد الوقود من الحشائش الجافة والأخشاب سريعة الاشتعال، وتكوم أكوامًا متعددة اقلها ثلاثة، وتوضع فى صف واحد على فواصل محددة وقد يتغنون فى إعداد هذه المواد فيلونوها بألوان زاهية. ثم يشعلونها، ويقفزون فوقها فرحين فرحين، وهم يرددون قولهم: «اصفرارى لك وحمرتك لي» «خذي منى اصفرار المرض والضعف، وامنحينى حمرة الصحة والحيوية مما تملكينه فى جوهرك».

٢- كسر الأوانى القديمة: فى كثير من أنحاء إيران يعتقد الناس أن البلايا والمحن تتراكم فى الأوانى القديمة التى مضى عليها عام. ولهذا لا يدخر الإيرانيون وسعًا فى القذف بهذه الأوانى القديمة من فوق أسطح منازلهم، وهم فى هذا يتبعون عادة قديمة كان يجرى عليها آباؤهم منذ القدم، إذ كانوا يرون ان وعاء الفخار لا ينبغي ان يحتفظ به فى المنزل أكثر من عام.

٣- تناول النقل (نوع من الحلويات الجافة) والفواكه: إن أكثر ربات البيوتات قبل حلول النوروز بنحو شهر، يشرعن فى شراء النقل من اللوز والجوز والفستق، وكذلك الأصناف المختلفة من الفواكة الجافة وأنواع أخرى من الكعك ومشتقاته وأنصاف الحلوى.

٤- التفاؤل ودفع الحسد: من التقاليد المتبعة أيضًا فى هذه الليلة التفاؤل والتكهن بالمستقبل. وهذا التقليد يناسب الفتيات اللاتي يردن أن يقفن على مستقبلهن.

لمزيد من المعلومات، انظر:

- الصياد: فؤاد عبدالمعطى (دكتور): النوروز وأثره فى الأدب العربى، جامعة بيروت، ١٩٧٢، ص ١٣ و ٢٦ و ٢٧ و ٦٦ و ٦٧ و ٦٨.

- ندا، طه (دكتور): فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية، دار الجامعات المصرية، الاسكندرية، بدون تاريخ، ص ١٠٦ — ١١٧.

❖ (سرخش): مدينة بين مرو ونيسابور، وهى كبيرة آهله بالسكان كثيرة الخيرات، لا ماء لها فى الصيف إلا من الآبار، ولأهلها يد باسطه فى عمل العصائب والمقانع المنقوشه بالذهب، منها تحمل إلى سائر الآفاق.

وينسب إليها أحمد بن الطيب السرخسى الحكيم الظريف الذى تظهر حكمته مع الظرافة، كما ينتسب إليها الفقيه أبو الفرج عبدالرحمن بن أحمد بن محمد بن عبدالرحمن بعرف بالزاز السرخسى الشافعى، له كتاب فى الفقه كبير أكبر من الشامل لأبن الصباغ، أجاد فيه جدًا، رأيت أهل مرو يفضلونه على الشامل وغيره، وسماه الاملاء، ومات بمرو فى ثانى عشر من ربيع الآخر سنة ٤٩٤هـ.

لمزيد من المعلومات انظر.

القزوينى: المصدر السابق، ص ٣٩٠

الحموى: المصدر السابق، ج٣ ، ص ٢٠٨ – ٢٠٩ .

❖ (گـرديز): بلدة بين غزنة والهند، وينسب إليها المؤرخ ابو سعيد عبدالحى بن الضحاك بن محمد الگـرديزى.

الحموى: المصدر السابق، ج٤ ، ص ٤٥٠ .

❖ (الرى): مدينة مشهورة من امهات البلاد وأعلام المدن، كثيرة الخيرات وافرة الغلات والثمرات قديمة البناء، وينسب إليها الإمام العلامة أبوعبدالله محمد بن عمر الرازى، إمام الوقت ونادرة الدهر وأعجوبة الزمان:

لقد وجدت مكان القول ذا سعة فإن وجدت لسانًا قائلًا فقل

ومن أعيان الرأى أيضًا أبوبكر محمد ابن زكريا الرازى الحكيم صاحب الكتب المصنفه، مات فى بغداد سنة ٣١١هـ كذلك ينسب إليها يحيى ابن معاذ الرازى. كان شيخ الوقت وصاحب اللسان فى الوعض والقبول عند الناس إلى أن اتصل

بزين العارفين ابى يزيد البسطاى، فرأى من حالاته ما تحير فيها. فعلم أن الفضل بيد الله يأتيه من يشاء، فلازم خدمته وذكر عنه حكايات عجيبه.

لمزيد من المعلومات انظر:

القزوينى: المصدر السابق، ص ٣٧٥ – ٣٨٢هـ.

الحموى: المصدر السابق، ج٣،

ص ١١٦ – ١٣٢هـ.

(١٣٤) الكوتوال: هذه الكلمة مترجمة في كتاب تاريخ البيهقى على أنها: قائد القلعة، وكوت بالهندى القلعة، والكلمه تركية الأصل ومعناها فى الجغتائية حارس القلعة أو قائدها.

انظر: البيهقى: أبو الفضل: تاريخ البيهقى، ترجمه إلى العربية، يحيى الخشاب، وصادق نشأت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٢، ص ٨٠٣.

(١٣٥) فى الأصل: جعكى، وفى تاريخ البيهقى ضبط الأسم: خنكى بن ماهك.

(١٣٦) بن محمود وليس محمد.

❖ (فرغانه): مدينة وكورة واسعه ببلاد ما وراء النهر، متاخمه لبلاد تركستان، أهلها من أتم الناس أمانة وديانة على مذهب أبى حنيفه، كانت ذات خيرات وغلات وثمرات، و خربت فى محاربة خوارزم شاه محمد والخطأ لأنها كانت

على ممر العساكر فخربت تلك البلاد الحسنه وفارقها أهلها قبل خروج التتر إلى ما وراء النهر وخراسان.

وممن ينسب إليها الشيخ عمر الملقب برشيد الدين الفرغانى، رأيته كان شيخًا فاضلًا كاملًا مجمع الفضائل الأدب والفقه والأصول والحكمه، كان مدرسًا بسنجار فطلبه الخليفه المنتصر للتدريس بمدرسه المستنصرية، قبض فى سنة إحدى وثلاثين وستمائة. وكذلك ممن ينسب إلى فرغانة حاجب ابن مالك ابن أركين ابو العباس الفرغانى، سكن دمشق وحدث بها عن أحمد ابن ابراهيم ابن فيل البالسى وأحمد ابن حمدون وعمرو ابن على وعلى ابن حرب وغيرهم كثيرين.

لمزيد من المعلومات انظر:

القزوينى: المصدر السابق، ص ٢٣٥ – ٢٣٦.

الحموى: المصدر السابق، الجزء الرابع، ص ٢٥٣ .

(١٣٧) قرمطى: يطلق هذا اللقب على من ينتمى إلى القرامطه كإحدى الفرق المتفرعة عن الاسماعيلية. وهذه الفرقه تنتسب إلى رجل يقال له حمدان قرمط، وهو أحد مريدى عبدالله بن ميمون القداح الذى اتخذ المذهب الاسماعيلى عقيده لغرض فى نفسه، وما لبث أن انبثق عن مجهوداته وجلده على الدعوة، المذهب الفاطمى والمذهب القرمطى، وحتى أن بعض المستشرقين يذهب نتيجه ذلك إلى أن الفاطميين والقرامطه طائفه واحدة.

وسواء صح ذلك الرأى أم لم يصح فالأمر الذى لا شك فيه أن فرقة القرامطة كانت فرقة مفزعة، شغلت العالم الإسلامى لفتره طويلة، وهزمت

جيوش الخلافة العباسية فى مواقع كثيرة، ودخلوا مكة أثناء موسم الحج وقتلوا الحجاج وطموا بجثثهم بئر زمزم، وهدموا الكعبة وانتزعوا الحجر الأسود وحملوه إلى عاصمتهم «هجر» حيث ظلّ لديهم بضعة وعشرين عامًا.

وكان للقرامطة مذاهب متطرفة غالية، فقد زعموا أن محمد بن اسماعيل رسول، كما زعموا أن الرسالة انقطعت عن النبى فى حياته بعد حديثه فى غدير خم، فآلت النبوة والرسالة إلى على بن أبى طالب وأصبح النبى مأمومًا لعلى، وقالوا إن الله جعل لمحمد بن اسماعيل جنة آدم، ومعناها عندهم الإباحة للمحارم وجميع ما خلق فى الدنيا.

أما فى الناحيه السياسة فقد تمكن القرامطة من إنشاء دولتهم فى البحرين، بعد فشل حركة الزنج الشهيرة، ثم توسعوا غربًا، حتى وصلوا إلى بلاد الشام سنه ٢٨٨هـ. فى أواخر عهد هارون بن خمارريه بن طولون، وكان على رأس القرامطة المهاجمين الشيخ يحيى «صاحب الناقة المأمورة» ثم تزعم القرامطة فى سوريا «صاحب الشامة» الحسين، شقيق يحيى، بعد مقتل هذا الأخير، وسيطر على الشام مصالحة، ثم جعل عاصمته حمص، ونادى بنفسه أميرًا للمؤمنين، وصك النقود بأسمه فكتب عليها: (قل جاء الحق وزهق الباطل). ولكن القرامطة اختلفوا مع الدعاة الإسماعيلية فى سلميه شمالى سوريا.

لمزيد من المعلومات، انظر:

– حسن، حسن ابراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الرابعة ١٩٨١، ص ٥٩، ٦١، ٦٢.

– الشكعه، مصطفى (دكتور): إسلام بلا مذاهب. الدار المصرية اللبنانية، ١٩٨٧، ص ١٩٧ – ١٩٨.

- الأمين، شريف يحيى: نفس المرجع، ص ١٩٢، ١٩٣.

المصادر والمراجع

- إبراهيم (غاده محمد عبدالقوى): المجموعه القصصية ما نخشب، دراسة نقدية تحليلة، رسالة ماجستير، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، مسجلة برقم ١٥٩ بمكتبة كلية الآداب- كلية عين شمس، تحت اشراف الدكتور أحمد السعيد الخولى.

- ابن الأثير (عز الدين ابى الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيبانى المعروف بأبن الأثير): الكامل فى التاريخ، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٢م.

- ابن حزم الطاهرى (الامام عبدالقاهر ابن طاهر): الفرق بين الفرق وبيان الفرقه الناجيه منهم، تحقيق لجنة احياء التراث العربى فى دار الآفاق الجديدة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٢م.

- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن ابى بكر بن خلكان): وفيات الأعيان وأنباء أبناء، حققه الدكتور إحسان عباس، دار صادر بيروت، ١٩٧٧م.

- ابن فندق (أبو الحسن بن زيد بيهقى المعروف بأبن فندق) : تاريخ بيهق، تصحيح وتعليقات مرحوم أحمد بهمنيار استاد دانشكاه، ومقدمة مرحوم علامه ميرزا محمد عبدالوهاب قزوينى، كتاب فروشى فروغى، چأب افست مروى، بدون تاريخ.

- استاد خليلى: سلطنت غزنويان، مطبعة عمومى كابل، ٢٢ ميزان ١٣٣٣هـ.ش.

- أبو الخير (محمد المنور بن أبى سعيد بن طاهر بن أبى سعيد بن أبى الخير): أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ ابى سعيد ترجمة الدكتورة اسعاد عبدالهادى قنديل، مراجعة الدكتور يحيى الخشاب، الدار المصرية للتأليف الترجمة، بدون تاريخ.

- أبو على مسكويه الرازى: تجارب الأمم، حققه وقدم له الدكتور أبو القاسم إمامى، دار سروش للطباعة والنشر، طهران ١٣٧٩هـ.ش - ٢٠٠٠م.

- الأمين (شريف يحيى): معجم الفرق الاسلامية (بحث موسوعى مبسط)، دار الاضواء، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

- براون (ادوار الجرانتيل): تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى، نقله للعربيه الدكتور إبراهيم أمين الشواربى، مطبعة السعاده بمصر، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.

- البغدادى (الإمام عبدالقاهر ابن طاهر)، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، تحقيق لجنه إحياء التاراث العربى فى دار الآفاق الجديدة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٨٢م.

- البيهقى (أبو الفضل محمد بن حسين): تاريخ البيهقى، ترجمه إلى العربية يحيى الخشاب وصادق نشأت دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢م.

- الحديثى (قحطان عبدالستار، دكتور): الدولة العربية فى العصور العباسية المتأخرة (الحركات الانفصالية فى إيران)، مطبعة جامعة البصرة، ١٩٨٧م.

- الحموى (الامام شهاب الدين أبى عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموى الرومى البغدادى): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

- الخولى (محمد مرسى، دكتور): أبو الفتح البستى حياته وشعره، دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعه الأولى، ١٩٨٠م.

- خواند أمير (غياث الدين بن همام الدين الحسينى): تاريخ حبيب السير فى اخبار افراد البشر، زير نظر دكتر محمد دبير سياقى، ازانتشارات كتابفروشى خيام، طهران، چاپ دوم، ١٣٥٣هـ.ش.

- ذئرة المعارف الإسلامية المترجمة، أصدرها باللغه العربية أحمد الشنتاوى وابراهيم خورشيد وعبدالحميد يونس، دار المعرفة. بيروت، ١٩٣٣م.

- الساداتى (أحمد محمود، دكتور): تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم، القاهرة، ١٩٥٧م.

- السمرقندى (نظام العروضى) : چهار مقاله (المقالات الأربع) فى الكتابة والشعر والنجوم والطب، نقله إلى العربية عبدالوهاب عزام ويحيى الخشاب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م.

- شتا (إبراهيم الدسوقى): المعجم الفارسى الكبير، مكتبة مدبولى، القاهرة ١٩٩٢م.

- الشابى (على): الأدب الفارسى فى العصر الغزنوى، تونس ١٩٦٥م.

- شامى (يحيى، دكتور): موسوعة المدن العربية والإسلامية، دار الفكر العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

- شفق (رضا زاده، دكتور): تاريخ الأدب الفارسى، ترجمة محمد موسى هنداوى، الناشر دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٤٨م

– الشكعة (مصطفى، دكتور): إسلام بلا مذاهب، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٨٧م.

– الاصطخرى (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى المعروف بالكرخى): المسالك والممالك، طبع فى مدينة ليدن المحروسة بمطبعة بريل ١٩٢٧م.

– المسالك والممالك، تحقيق الدكتور محمد جابر عبدالعال الحيني، مراجعة محمد شفيق غربال، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، القاهرة ١٣٨١هـ-١٩٦١م.

– الصياد – (فؤاد عبدالمعطى، دكتور): النوروز وأثره فى الأدب العربي، جامعة بيروت العربية، ١٩٧٢م.

– العتبى (أبو نصر محمد بن عبدالجبار): تاريخ اليمينى – جزءان – ويه شرح الشيخ أحمد بن علي الحنفى المينينى المتوفى ١٧٧٢م، وسماه الفتح الوهبى على تاريخ أبي نصر العتبى، ١٣٨٦هـ.

– عقيلى (سيف الدين حاجي بن نظام عقيلي): آثار الوزراء بتصحيح مير الدين حسين ارموى محدث، تهران ١٣٣٧ هـ. ش.

– الفردوسى (أبو القاسم منصور بن مولانا فخر الدين احمد بن مولانا فرج الفردوسى): الشاهنامه، ترجمها نثرًا الفتح بن علي البندازى، قارنها بالأصل الفارسى، وأكمل ترجمتها فى مواضع، وصححها وعلق عليها، وقدم لها الدكتور عبدالوهاب عزام، الجزء الأول مع المقدمة والمدخل، دار سعاد الصباح، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م.

- فلسفى (نصر الله): چند مقالة تاريخى وأدبى، انتشارات وحيد، إيران چاپ أول، فروردين ١٢٤٨هـ. ش.

- القروينى (زكريا بن محمد بن محمود): آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت للطباعة والنشر بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩ م.

- قنديل (اسعاد عبدالهادى، دكتورة): كشف المحجوب للهجويرى، دراسة وترجمة وتعليق دكتورة اسعاد عبدالهادى قنديل، راجع الترجمة الدكتور امين عبدالمجيد بدوى، الكتاب التسعون، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، جمهورية مصر العربية، يونيو ١٩٧٣م.

- الكرديزى (أبو سعيد عبدالحى بن الضحاك بن محمود الگرديزى): زين الأخبار، ترجمته عن الفارسية الدكتورة عفاف السيد زيدان، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٨٢م.

- لسترنج (كى): بلدان الخلافة الشرقية، نقله إلى العربية بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مطبعة الرابطة بغداد، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.

- محمود (حسن احمد، دكتور): الإسلام والحضارة الإسلامية فى آسيا الوسطى بين الفتحين العربى والتركى، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٦٨م.

- ميرا (محسن كيانى، دكتور): تاريخ خانقاه در إيران، كتابخانه طهورى، تهران ١٣٦٩هـ. ش.

- مير خواند (مير محمد بن سيد برهان الدين خواند شاه): تارريخ روضة الصفا، طهران، كتاب فروشى مركزى، فروردين ١٣٣٩هـ. ش.

- نجير (أحمد، دكتور): خراسان بزرگ (بحثي بيرامون چند شهراز خراسان بزرگ) مؤسسة انتشارات امير كبير، تهران، چاپ أول ١٣٦٣هـ. ش.

- ندا (طه، دكتور): فصول من تاريخ الحضارة الاسلامية، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، بدون تاريخ.

- النرشخي (ابو بكر محمد جعفر): تاريخ بخارى، ترجمة امين عبدالمجيد بدوى ونصر الله مبشر الطرازي، القاهرة ١٩٦٥م.

الفهرس

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة

ت : ٢٥٩٢٢٦٢٠ ـ ٢٥٩٣٨٤١١ فاكس : ٢٥٩٣٦٢٧٧

ص.ب ٢١ توزيع الظاهر ـ القاهرة

E-mail : alsakaalDinaya@hotmail.com

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة
ت ٢٥٩٢٢٦٢٠ ـ ٢٥٩٣٨٤١١ فاكس : ٢٥٩٣٦٢٧٧
ص.ب ٢١ توزيع الظاهر ـ القاهرة
E-mail : alsakaalDinaya@hotmail.com

الأجزاء المفقودة من تاريخ البيهقي

جمعها باللغة الفارسية
الأستاذ سعيد نفيسي

ترجمه وقدم له وعلق عليه
الدكتور محمد حسن العمادي

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

مفقودة
بيهقي
رسية
نفيسي
ق عليه
العمادي
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية





الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد - القاهرة
ت: ٢٥٩٢٢٦٢٠ - ٢٥٩٣٨٤١١
فاكس: ٢٥٩٣٦٢٧٧ ص.ب: ٢١ توزيع الظاهر
E-mail:alsakafa_alDinaya@hotmail.com